عِلمُ البيانِ

دراسة تحليلية لمسائل البيان

الدكتور/ بسيوني عبد الفتاح فيود
أستاذ البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

مؤسسة المختار للنشر والتوزيع

علم البيان

دراسة تحليلية لمسائل البيان

عبد الفتاح فيود، بسيونى

علم البيان

دراسة تحليلية لمسائل البيان

تأليف: د. بسيونى عبد الفتاح فيود

القاهرة: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، 2015

260 ص، 24 سم

تدمك: 978-977-5283-23-x

رقم الإيداع :3306 / 1998

الطبعة الرابعة

1436 هـ ـ 2015م

مؤسسة المختار

للنشر والتوزيع

الإدارة: 16 ش محمد حسن الجمل ـ عباس العقاد ـ مدينة نصر ـ القاهرة

تليفون: 22713945

فاكس: 22713202

المكتبة: 33 ش محمد عبده ـ خلف جامع الأزهر ـ القاهرة

تليفون: 25105891

E-mail:mokhtar_est@hotmail.com

علم البيان

دراسة تحليلية لمسائل البيان

الدكتور/ بسيوني عبد الفتاح فيود
أستاذ البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

مؤسسة
المختار
للنشر والتوزيع

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين، خلق الإنسان، علمه البيان، والصلاة والسلام على خير الأنام، النبي العدنان، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الغر الكرام، أرباب الفصاحة وأساطين البيان، الذين تلقوا عن النبي المختار الكتاب والسنة؛ حيث علمهم ﷺ، وبيَّنَ لهم ما نزل على قلبه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥]، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[النحل: ٤٤].

بَيَّنَ لهم ﷺ فتعلموا منه، وحملوا هذا العلم، ودعوا إلى الله على بصيرة، كما دعا ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].. ثم حمله العدول من الخلف قال ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحالَ المُبطلين، وتأويل الجاهلين»(١)، وهكذا تتواصل الدعوة إلى الله على بصيرة، بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن فيتبين الأمر ويتجلى للناس، فيحيا من حي عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة... صلاة وسلامًا عليك يا سيدي يا رسول الله وعلى آلك وأصحابك رضي الله عنهم أجمعين، وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعــد ؛

فهذا كتاب في علم البيان، يخرج بمشيئة الله تعالى في طبعته الثالثة، وهي طبعة مصححة مزيدة منقحة؛ حيث طبع الكتاب طبعتين، الطبعة الأولى كانت لمطبعة السعادة عام ١٩٨٧م، ولما نفدت هذه الطبعة، وبدت حاجة طلاب العلم للكتاب، أمرنا بطبعه طبعة ثانية، نهضت بتلك الطبعة دار المعالم الثقافية للنشر والتوزيع

---

(١) صححه الإمام أحمد، انظر الإصابة، القسم الرابع، وانظر الجامع الكبير للسيوطي.

بالأحساء بالمملكة العربية السعودية مشاركة مع مؤسسة المختار للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة عام ١٩٩٨م.

ولما نفدت تلك الطبعة الثانية المشتركة طبعته مؤسسة المختار منفردة طبعة ثانية في عام ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

وقد ظهرت أخطاء بتلك الطبعة ... أخطاء في ضبط الأبيات وأخرى راجعة إلى سقوط بعض الكلمات، مما أدى إلى اللبس وعدم الفهم، ونجم عن ذلك شكوى كثير من الدارسين.. وقد اقتضى ذلك أن نعيد طباعة الكتاب طبعة ثالثة صحيحة، يستقيم فيها النص، ويستقيم فيها الضبط.

وقد نهضنا في هذه الطبعة بما يلي:

أولاً: ضبط الأبيات ضبطًا صحيحًا رجعنا فيه إلى مصادر الأبيات، وإلى معاجم اللغة، ومع الضبط الصحيح للأبيات شرح وتفسير للألفاظ التي تحتاج إلى إيضاح لتتم الفائدة ويقف الدارس على المغزى البلاغي من التصوير البياني في الأبيات، تشبيهيًّا كان هذا التصوير أو مجازيًا أو كنائيًا.

ثانيًا: تصحيح ما وقع من أخطاء في الكتاب، وقد كان سبب تلك الأخطاء عدم المراجعة الدقيقة للطبعة السابقة، فبدت أخطاء لغوية وأخرى مطبعية وثالثة نجمت عن سقوط كلمات من الأبيات نتيجة الضبط الذي تطلب مساحة أوسع للبيت، وبدل أن يفسح الناسخ للبيت مساحته أسقط منه... نهضنا بتصحيح ذلك تصحيحًا دقيقًا متأنيًا.

ثالثًا: رأينا إتمامًا للفائدة المرجوة من الكتاب أن ننهض بأمور يحتاجها الدارس وتتلخص هذه الأمور فيما يلي:

١-تخريج الأحاديث النبوية وضبطها ضبطًا صحيحًا... قمنا بتخريج هذه الأحاديث من كتبها الصحيحة، وأثبتنا مواطنها في تلك الكتب الصحيحة، وضبطنا كل حديث ورد في الكتاب ضبطًا دقيقًا... وما من ريب في أن الدارس كان في حاجة إلى هذا التخريج وذاك الضبط.

٢-قمنا بضبط النصوص النثرية التي وردت بالكتاب ضبطًا صحيحًا ودقيقًا، وألقينا الضوء عليها، فشرحنا ما يحتاج إلى شرح وأوضحنا المعاني اللغوية لما يحتاج إلى إيضاح من الألفاظ الواردة بها.

قمنا بمراجعة ما يحتاج إلى مراجعة من الأحكام والقضايا والمسائل البلاغية وتهذيب وتنقيح ما يحتاج إلى تهذيب وتنقيح منها، وكان لنا في هذا الميدان، ميدان التهذيب والتنقيح والمراجعة، إيضاحات لكثير من القضايا والمسائل وإضافات كان لابد من إضافتها.

نسأل الله تبارك وتعالى أن نكون بهذا العمل قد أعدنا الكتاب إلى مكانته، وأنزلناه منزلته، وأن يجد القارئ المتأمل الواعي فيه بغيته، فسيقرأ إن شاء الله تعالى آيات كريمة حللت تحليلاً بلاغيًا دقيقًا، وسيقرأ أحاديث نبوية ضبطت وخرجت وحللت، وسيقرأ أبياتًا شعرية صحيحة لا عوار فيها ولا خلل، بل ضبط صحيح دقيق وإيضاح لما فيها من معان غريبة وتحليل بلاغي جيد، وسيقرأ نصوصًا نثرية حظيت باهتمام المؤلف فضبطت وشرحت فجلي ما فيها من تصوير بياني.

وفي ضوء هذه النصوص المحللة تحليلاً دقيقًا يجد القارئ بغيته في الوقوف على الضوابط البلاغية للتشبيه والمجاز والكناية والتعريض ويحيط بها من خلال الشواهد، فيعرف منازعها وطرق تصويرها وكيفية تشخيصها، وما ترمي إليه من مقاصد وأغراض يسعى التصوير البياني تشبيهًا ومجازًا وكناية وتعريضًا إلى إبرازها وتجليتها.

وعندما يجد القارئ الكريم بغيته -إن شاء الله تعالى- في هذا الكتاب، ويثلج صدره، لا نرجو منه إلا دعوة طيبة، نسأل الله تعالى أن يتقبلها، وأن يتقبل منا هذا العمل، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجزينا به خير الجزاء، فيغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، ويكفر عنا سيئاتنا، ويرحم والدينا، ويملأ قبورهم عليهم نورًا، ويجعلها روضة من رياض الجنة، ويشفي مرضانا، ويهدي أبناءنا ويصلحهم، ويتوفَّانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين... اللهم آمين، وصلى الله وسلم وبارك على

سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين صلاة وسلامًا كاملين تامين دائمين إلى يوم الدين... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

في غرة ربيع الآخر ١٤٢٩هـ الموافق ٧ من إبريل ٢٠٠٨م.

المؤلف

أ. د/ بسيوني عبد الفتاح فيود

أستاذ البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بالقاهرة

جامعة الأزهر – عضو اللجنة العلمية الدائمة للبلاغة والنقد.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذي خلق الإنسان من طين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وأمر الملائكة الكرام أن يقعوا له ساجدين وعلمه الأسماء كلها، نحمدك ربي حمد الشاكرين كرمت بني آدم وحملتهم في البر والبحر ورزقتهم من الطيبات وفضلتهم على كثير ممن خلقت تفضيلاً، ومن النعم التي أنعمت بها عليهم نعمة البيان والإفهام ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾ فلله الحمد وله الشكر على ما أنعم به وتفضل، ثم الصلاة والسلام الأتمان والأكملان على نبينا محمد القائل: «إن من البيان لسحرًا وإن من الشعر لحكمًا»(١) صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحابته أجمعين ومن سار على نهجهم وتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، فقد نفذت الطبعة الأولى من كتابنا: علم البيان دراسة تحليلية لمسائل البيان وهو كتاب الغاية منه إيضاح مسائل البيان وتجليتها وتحليل شواهدها فيقف الدارس له على ضوابط التشبيه ويحيط بألوانه وطرائقه ويلم بالتعبيرات المجازية والكنائية ويعرف دقائقها.

وكان غرضنا من الكتاب متجهًا إلى تحقيق غايتين:

١- أن يلم الدارس بالضوابط والقواعد البلاغية ويحيط بها.

٢- أن نرسخ في وجدانه ونغرس في نفسه حب تذوق النصوص والوقوف على أسرار الجمال بها وإدراك مزايا الحسن، ولذا حرصنا على الإكثار من

---

(١) رواه البخاري في الطب برقم (٥١)، وفي النكاح برقم (٤٧/ ٥١٤٦)، ومسلم في الجمعة برقم (٤٧/ ٨٦٩)، والإمام أحمد في مسنده برقم (٢٤٢٤).

الموازنات بين الصور والأخيلة وعلى تحليل الشواهد دون تفريط أو إفراط؛ فلا يطغى التحليل على شرح القاعدة وإيضاح الضابط ولا تعرض القواعد والضوابط عرضًا جافًا جامدًا يبعث الملل ويؤدي إلى إعراض الدارس وانصرافه عن الدرس البلاغي والرغبة عنه.

ولما نفدت الطبعة الأولى وبدت حاجة الدارس للكتاب لم نتردد في إعادة طبعه طبعة جلية واضحة لتتحقق الثمرة المرجوة والغاية المنشودة.

نسأل الله تعالى أن ينفع به وأن يجزينا خير الجزاء، ويهدينا سواء السبيل إنه خير مسئول وهو نعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة إلا به... وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المؤلف

د/ بسيوني عبد الفتاح فيود

أستاذ البلاغة والنقد

في كلية اللغة العربية بالقاهرة

جامعة الأزهر

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين حمدًا دائمًا طيبًا، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته إلى يوم الدين...

أما بعد:

فهذا كتاب في مسائل علم البيان، وضعته لطلبة الدراسات العالية الجامعية، وقد راعيت فيه مستوى الطلبة في هذه المرحلة إدراكًا وتذوقًا واستيعابًا، فالطالب في هذه المرحلة يحتاج إلى إيضاح القاعدة البلاغية وإلى تحليل الشاهد وشرح ما غمض من مفردات الشواهد، والقاعدة البلاغية وحدها لا تفي بحاجة الطالب، بل يحتاج -بالإضافة إلى إيضاح القاعدة وشرحها- إلى تحليل شواهدها والإكثار من تلك الشواهد حتى تتكون لدى الطالب ملكة التذوق وفهم النصوص، ولذا أكثرت له من الأمثلة والشواهد، وحللت له الشواهد دون إسراف في التحليل؛ لأن الإسراف في التحليل في هذه المرحلة بالذات يفوت على الطالب الإلمام التام بالقاعدة البلاغية ونحن نهدف إلى الأمرين معًا: أن يلم الطالب بالقاعدة وأن تتربى لديه ملكة الفهم وتذوق النصوص.

ويقع الكتاب في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة، أوضحت في التمهيد مفهوم البيان، وأوجه الدلالة على المعاني، وموقع التشبيه من المباحث البيانية، وتناولت في الفصل الأول مسائل التشبيه، وفي الفصل الثاني مسائل المجاز، وفي الثالث مسائل الكناية، وكان الهدف منصبًا إلى الإحاطة والإلمام بكل هذه المسائل وبطريقة دقيقة وميسرة وفي الخاتمة أشرت إلى مدى التفاوت بين الأساليب البيانية في التصوير والدلالة على المعاني.

والله عز وجل أسأل أن ينفع بهذا الكتاب وأن يثمر الثمرة المرجوة منه، وأن يثيبنا بحسن النية ونبل المقصد إنه خير مسئول، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

المؤلف

د/ بسيوني عبد الفتاح فيود

تمهيد
مفهوم البيان

قال الله عز وجل: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾[1]، فالبيان نعمة من نعم الله تعالى، أنعم بها على بني آدم؛ حيث كرمهم وحملهم في البر والبحر ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير من خلقه... وامتن عليهم بنعمة التعليم والبيان: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾[2]، بهذا التعليم تميز الإنسان عن كثير من خلقه، وصار ناطقًا مبينًا، يستطيع أن يعبر عما يخطر بخاطره، ويجول في نفسه من المعاني، فيوصلها إلى غيره من البشر، ويتلقاها الغير عنه، فيتم التفاهم، وبهذا التفاهم تتحقق السعادة بين البشرية.

والبيان في اللغة، معناه: الظهور والوضوح والإفصاح، وما بين به الشيء من الدلالة وغيرها، يقال: بان الشيء بيانًا: اتضح فهو بين... وأبنته: أوضحته، واستبان الشيء: ظهر، قال ابن ذريح:

وللحـبِّ آيـاتٌ تُبـيِّنُ للفتـى   شحوبًا وتَعْرَى من يَدَيْهِ الأشاجِمُ

أي: تظهر له شحوبًا... وبان الصبح لذي عينين: ظهر ووضح، والبيان: الفصاحة، والإفصاح مع ذكاء، والبين من الرجال: السمح اللسان، الفصيح الظريف، العالي الكلام، وفلان أبين من فلان أي: أفصح منه وأوضح كلامًا.

وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ من البَيانِ لَسِحْرًا، وإِنَّ منَ الشِّعْرِ لَحِكَمًا**»[3].

قال: البيان إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو من الفهم، وذكاء القلب مع اللسن، وأصله الكشف والظهور[4].

---

(١) سورة الرحمن الآيات: ١-٤.

(٢) سورة العلق الآيات ١-٥.

(٣) رواه البخاري في الطب برقم (٥١).

(٤) انظر لسان العرب مادة: بين.

وقد تحدث كثير من العلماء عن مفهوم البيان وآلاته، وأنواع الدلالة على المعاني، وعما يحتاج البياني إلى تحصيله من ألوان المعرفة وصنوف الثقافة.

من ذلك قول الجاحظ: "البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنًا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم، والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع»(١)، ومفهوم البيان عند الرماني، أنه الإحضار لما يظهر به تميز الشيء من غيره في الإدراك(٢)، ويجعل عبد القاهر البيان من مقتضيات النظم، فهو به يكون وعنه يحدث(٣)، وذكروا أن أنواع الدلالة على المعاني والإفصاح عنها من لفظ أو غيره خمسة أمور: اللفظ والإشارة والعقد والخط والحال التي تسمي نصبة.

فدلالة اللفظ: أن ينطق اللسان مفصحًا عما يجول بخاطر الإنسان ومبينًا عما يتردد بداخله.

ودلالة العقد: هي دلالة الحساب؛ لأن العقد ضرب من الحساب يكون بأصابع اليد، ويقال له حساب اليد، فهو نوع من أنواع الإفصاح عن المعاني.

ودلالة الإشارة: تكون باليد والرأس والعين والحاجب والمنكب، وإذا تباعد الشخصان تكون بالثوب ونحوه، وإذا هدد الشخص وتوعد تكون بالسيف والسوط ونحوهما.

ودلالة الخط: هي دلالة الكتابة التي تبلغ من بعد أو غاب، ولذا فهي تفضل دلالة اللفظ المقصورة على الشاهد دون الغائب.

أما دلالة الحال: فهي دلالة التأمل والتدبر والنظر في الكون والاعتبار بما فيه، فالسموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وغيرها

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٧٥.

(٢) انظر النكت ضمن ثلاث رسائل ص ٩٨.

(٣) انظر دلائل الإعجاز ص ٢٦٤.

مما خلقه الله في الكون أحوال ودلائل تدل على وجوده تعالى وقدرته وعظيم سلطانه[١].

وآلات علم البيان وأدواته التي ينبغي على البياني أن يتسلح بها، لافتقاره واحتياجه إليها، يحصرها ابن الأثير في الأمور الآتية:

١- حفظ القرآن الكريم وتفهم معانيه، والتدرب على استعمال أساليبه وتراكيبه في مطاوي الكلام.

٢- حفظ ما يحتاج إليه من أحاديث النبي ﷺ وأخباره والسلوك بها مسلك القرآن الكريم في الاستعمال.

٣- معرفة ما يحتاج إليه من اللغة، والتمييز بين الفصيح المستعمل من مفرداتها وبين الوحشي الغريب والمستكره المعيب.

٤- معرفة علم العربية من نحو وصرف.

٥- معرفة أمثال العرب وأيامهم ووقائعهم وعاداتهم.

٦- الإطلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب صناعة البيان.

٧- معرفة الأحكام السلطانية في الإمامة والإمارة والقضاء والحسبة ونحو ذلك.

٨- ما يختص بالناظم دون الناثر، وذلك علم العروض والقوافي الذي يقام به ميزان الشعر[٢].

البيان في اصطلاح البيانيين

أما البيان في اصطلاح البيانيين فهو: العلم الذي يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه.

وهو بهذا المفهوم الذي حده علماء البيان يختلف عن علم المعاني الذي يبحث

---

(١) انظر البيان والتبيين ج ١ ص ٧٦، والبرهان في وجوه البيان ص ٧، والنكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل ص ٩٨.

(٢) انظر المثل السائر ص ٤٠ - ٤١.

في بناء الجمل وتنسيق أجزائها تنسيقًا يطابق مقتضى حال الكلام، كما يختلف عن علم البديع الذي يبحث في وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة.

شرح هذا التعريف:

المراد بالعلم: مجموعة القواعد والضوابط والقوانين التي يعرف بها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة كقواعد التشبيه، وضوابط الاستعارة، والمجاز المرسل، وقوانين الكناية، والمهم هو الملكة التي تتربى لدى الدارس من دراسة هذه الضوابط وتطبيقها على العديد من النصوص، لا مجرد حفظها والإحاطة بها.

والمراد بالمعنى الواحد: المعنى الذي يعبر عنه المتكلم بكلام تام مطابق لمقتضى الحال كمعنى الشجاعة والكرم والعفة، فليس من البيان، الاقتدار على تأدية المعنى المفرد بألفاظ مترادفة نحو: الأسد والليث والغضنفر والسبع والضرغام، لأن معرفة ذلك يرجع إلى علم اللغة وليس إلى علم البيان، والمراد باختلاف الطرق التي يؤدى بها المعنى الواحد في وضوح الدلالة عليه، أن يكون بعضها واضحًا وبعضها أشد وضوحًا، وليس المراد أن يكون بعضها واضحًا وبعضها خفيًا، لأن الخفاء المشكل الذي لا يفهم معه المعنى المراد معيب عند علماء البيان، إلا إذا أريد بالخفاء، الدقة في أداء المعنى، بعيدًا عن اللبس والإشكال، فلا غبار على إرادة ذلك.

ويرجع التفاوت في وضوح الدلالة إلى الأمور الآتية:

١- اختلاف طرق التعبير عن المعنى الواحد، فمثلاً إذا أراد المتكلم أن يصف زيدًا بالكرم؛ فله أن يسلك طريق الحقيقة فيقول: زيد كريم، أو طريق التشبيه فيقول: زيد كالبحر عطاء، وزيد كالبحر، وكأنه البحر، وزيد بحر في العطاء، وزيد بحر، ونلاحظ اختلاف درجة المبالغة باختلاف نوع التشبيه، كما سيأتي في مباحث التشبيه، وله أن يسلك طريق الاستعارة التصريحية، فيقول: رأيت بحرًا يفيض على الناس، أو المكنية فيقول: أمطرنا زيد بعطائه، أو يسلك طريق الكناية فيقول: زيد جبان الكلب، وكثير رماد القِدر، والكرم بين برديه.

٢- قرب المعنى المجازي أو الكنائي من المعنى الحقيقي وبعده عنه،

فمثال القرب بينهما: استعارة الطيران للعدو نحو: فلان يطير إلى حاجته، أي: يعدو إليها مسرعًا، والكناية عن الرجل بحمل السلاح وعن المرأة بخضاب البنان كقول المتنبي:

ومـــنْ في كفِّـــه مـــنهمْ قنـــاةٌ   كَمَـــنْ في كفِّـــه مـــنهمْ خِـــضابُ

ومثال البعد بينهما: استعارة الانسلاخ لزوال ضوء النهار شيئًا فشيئًا حتى يظهر الليل كما في قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[١].

٣- درجة وضوح القرينة الدالة على المعنى المراد، فقد تكون بحيث يدركها السامع لأول وهلة، كقولنا: رأيت أسدًا يخطب الناس، وعندئذ يكون التعبير عن المعنى في غاية الوضوح، وقد لا يدركها السامع إلا بعد فكر وإطالة نظر كقول الغنوي:

وَجَعَلْـــتُ كُـــورِي فَـــوْقَ ناجِيَـــةٍ   يَقْتَـــاتُ شَـــحْمَ سَـــنامِهَا الرَّحْـــلُ[٢]

وكقول الآخر:

فـــإنْ تَعَـــافُوا العَـــدْلَ والإيمانَـــا   فَـــإِنَّ في أَيْمَانِنَـــا نِيرانَـــا

وعندئذ يكون التعبير دقيقًا وأقل وضوحًا.

أوجه الدلالة البيانية

والدلالة التي ذكرها البيانيون في تعريف علم البيان هي دلالة الألفاظ على معانيها، أما غيرها من أنواع الدلالات غير اللفظية والتي خاض في دراستها بعض البلاغيين[٣]، فهي لا تفيد الدراسة البلاغية شيئًا، بل عند التأمل والنظر، نرى أنها ترجع إلى الدلالة اللفظية -كما سيأتي- ولذا لا ينبغي أن تعد دلالات مستقلة أو مغايرة للدلالة اللفظية.

---

(١) سورة يس: ٣٧.

(٢) الكور: رحل البعير- والناجية: الناقة السريعة.

(٣) كالدلالة العقلية مثل دلالة الدخان على النار ودلالة تغير العالم على حدوثه، وكالدلالة الطبيعية مثل دلالة حمرة الوجه على الخجل وصفرته على الوجل.

وللألفاظ في دلالتها على معانيها ثلاثة أوجه:

١-**دلالة المطابقة**: وهي دلالة اللفظ على تمام ما وضع له في اللغة، كدلالة لفظ "أسد" على الحيوان المفترس، ولفظ "إنسان" على الحيوان الناطق، وسميت دلالة اللفظ على معناه الوضعي: دلالة مطابقة، لتطابق اللفظ والمعنى بحيث إذا أطلق اللفظ فهم السامع معناه، ولا يفتقر العقل في إدراك المعنى من اللفظ إلى شيء آخر غير الوضع، وهذا الوجه من أوجه الدلالة لا يتأتى فيه التفاوت في درجة الوضوح، ولذا لا يلتفت إليه البيانيون التفاتًا أصيلاً.

٢-**دلالة التضمين**: وهي دلالة اللفظ على جزء معناه الوضعي كدلالة لفظ الدار، على السقف، فالدار موضوعة للحيطان التي يظللها السقف، وكدلالة الأصابع على الأنامل، فالعالم بوضع اللغة يفهم من اللفظ أولاً معناه الوضعي ويستتبع ذلك فهم جزء معناه، وعلى ذلك لا تكون هذه الدلالة وضعية فيأتي فيها التفاوت في درجة الوضوح.

٣-**دلالة الالتزام**: وهي دلالة اللفظ على معنى خارج عن المعنى الذي وضعه له واضع اللغة، لازم له في الذهن، وهذا اللزوم الذهني، قد يكون مبنيًا على مجرد النظر العقلي دون تدخل عرف أو اصطلاح، كدلالة قولنا: العالم متغير، على حدوث العالم، فقد ثبت في حكم العقل التلازم بين تغير العالم وحدوثه، وقد يكون مبنيًا على عرف عام مشهور كدلالة لفظ "أسد" على الشجاعة، فالذهن يدرك التلازم بين الأسد والشجاعة، اعتمادًا على ما اشتهر في عرف الناس من التلازم بينهما... وقد يكون مبنيًا على طبيعة مستقرة في إنسان أو حيوان، كدلالة حمرة الوجه على الخجل وتقطيبه على الغضب، وجبن الكلب على الكرم... أو على عادة مشهورة كدلالة إيقاد النار في مكان مرتفع على الكرم... فمن طبيعة الإنسان أن يحمر وجهه عند الخجل وأن يقطب وجهه عند الغضب، ومن طبيعة الكلب أن يجبن أمام من اعتاد رؤيته، ومن عادات العرب إشعال النيران في الأماكن العالية ليسترشد بها القادم إليهم...

والبيانيون يعتمدون على دلالتي "التضمن والالتزام" في تحقيق الغاية المقصودة من علم البيان وهي الاقتدار على إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه...

هذا ويجب على البياني أن يراعي بالإضافة إلى وضوح الدلالة على المعنى الذي يريد أداءه، مطابقته لمقتضى الحال، فيجمع بذلك بين وظيفتي "علم البيان وعلم المعاني"، فإذا خاطب السوقي الجاهل بخفي التشبيهات أو غريب الاستعارات أو باللوازم البعيدة الدقيقة في المجازات والكنايات، فقد بعد عن الجادة... كما أنه إذا خاطب الأديب المتمكن في صناعة الكلام، المتمرس في ضروب البيان، بأسلوب الحقيقة المجردة، أو التشبيهات القريبة، أو الاستعارات العامية المبتذلة، أو الكنايات الواضحة، فقد حاد عن الطريق السوي، لأنه بهذا الصنيع يكون قد تغافل عن وظيفة علم المعاني وهي: مراعاة المطابقة لمقتضى الحال.

موقع التشبيه من المباحث البيانية:

لا يختلف علماء البيان في أن التشبيه له من الاعتبارات الدقيقة واللطائف العجيبة والمحاسن العديدة والمقاصد الغفيرة، ما يجعله موضع اهتمام البياني... ولكنهم اختلفوا في موقعه من مباحث علم البيان، هل يعد من مباحثه الرئيسية؟ أم أنه مبحث تمهيدي لمباحث الاستعارة؟ لأن الاستعارة كما نعلم مبنية على التشبيه.

فبعضهم يرى أنه مبحث تمهيدي لدراسة الاستعارة، ويحتج بأن كلاً من المشبه والمشبه به والأداة ووجه الشبه، مستعمل في معناه الوضعي، والمعاني المعبر عنها بألفاظ وضعية، تكون واضحة الدلالة، وعلم البيان إنما يبحث في الدلالات التي تختلف في درجات الوضوح، وهي الدلالات غير الوضعية...

وبعضهم يرى أن التشبيه من مباحث علم البيان الرئيسية، ومقاصده الأساسية، ودليلهم أن التشبيه ليس في درجة واحدة من الوضوح، بل تتفاوت درجاته، وتتعدد مراتبه، وتختلف أقسامه، وتتنوع ضروبه، فبينما نجد التشبيه الواضح الظاهر الدلالة، نجد التشبيه الدقيق الخفي، وعندما نرى التشبيه المفرد نرى الآخر المقيد أو المركب، وعندما نرى التشبيه الحسي، أو الصريح نرى العقلي

أو الضمني، وهذا التفاوت والاختلاف بين التشبيهات ظهورًا وخفاء، ووضوحًا ودقة، يجعله من المباحث الرئيسية لعلم البيان ونحن نميل إلى هذا الرأي ونراه أولى بالقبول..

☆☆☆

الفصل الأول

التشبيه

تعريفه:

هو الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى بإحدى أدوات التشبيه، كما نقول: محمد كالأسد شجاعة فالأمر الأول في هذا المثال هو "محمد" وهو المشبه والأمر الثاني هو "الأسد" وهو المشبه به وأداة التشبيه هنا هي الكاف والمعنى المرتبط بالأمرين المشبه والمشبه به هو الشجاعة وتعرف بوجه الشبه.

وقد عرف بعض البلاغيين التشبيه بأنه هو الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى بإحدى أدوات التشبيه لا على وجه الاستعارة التحقيقية ولا المكنية ولا التجريد[١]... فقيد التعريف بكون الدلالة ليست على وجه الاستعارة التحقيقية ولا المكنية ولا التجريد... ولا عبرة بهذا القيد لأن الاستعارتين التحقيقية نحو: رأيت بحرًا في المسجد والمكنية نحو: لعبت بنا يد الزمان، مبنيتان على تناسي التشبيه والمبالغة في تجاهله حتى كأنه لم يكن. فقولنا في التعريف: "بإحدى أدوات التشبيه" مخرج لهاتين الاستعارتين ويخرج أيضًا نحو قولنا: جاءني محمد وعلي، وقاتل زيد عمرًا وغير ذلك من الصيغ الدالة على مشاركة أمر لآخر في معنى، ولكن بطرق أخرى وليس عن طريق أدوات التشبيه.

وأما التجريد وهو أن ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله في تلك الصفة مبالغة في كمالها فيه نحو: لي من فلان صديق حميم وقولنا: لئن سألت فلانًا لتسألن به البحر، لقيت من زيد أسدًا[٢] فخروجه من التشبيه ليس على الإطلاق بل إذا لم يكن على وجه ينبئ بالتشبيه خرج منه كما في المثال الأول، وإذا كان على وجه ينبئ بالتشبيه كما في المثالين الثاني والثالث فهو داخل فيه ولا يمكن إخراجه منه[٣].

---

(١) انظر: الإيضاح ص ٣٧، والمطول ص ٣١٠.

(٢) انظر: الإيضاح ص ٤٤ - جـ ٤.

(٣) انظر مفتاح العلوم ص ١٦٨.

هذا وقد تكون هذه الأمور وهي: المشبه والمشبه به ووجه الشبه والأداة بينة ظاهرة مصرحًا بها أو ببعضها كقولنا: علي كحاتم في الكرم، وليلى كالبدر ضياء وشعرها كالليل سوادًا، وكما في قول الحق جل وعلا: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ ﴾[٣].

وكقول بشار:

كـــأن مُثـــارَ النَّقْـــع فـــوقَ رءوســـنَا   وَأسْـــيَافَنا لَيْـــلٌ تهَـــاوَى كواكبُـــهُ

وقول امرئ القيس:

أيَقْتُلُنِـــي والمَـــشْرَفِيُّ مُـــضَاجِعِي   ومَـــسْنونَةٌ زُرْقٌ كأَنْيَـــابِ أَغْـــوالِ

وقد تكون تلك الأمور خفية مستترة ينبئ بها الأسلوب وتفهم من سياق الكلام كما في بعض صور التجريد التي مرت بنا نحو: لئن لقيت فلانًا لتلقين به الأسد، وكما في التشبيهات الضمنية نحو قولنا: نور الصباح يخفي في ضوء جبينه، ونور الشمس مسروق من نور وجهه، وكقول أبي تمام:

لا تُنكـري عُطْـلَ الكـريم مـن الغِنَـى   فالـسَّيْلُ حـربٌ للمكـانِ العـالي

وقول أبي الطيب:

مَـــنْ يهُـــنْ يَـــسْهُلِ الهـــوانُ عَلَيْـــهِ   مَـــا لـــجُرْحٍ بميِّـــت إيـــلامُ

وقوله:

لـمْ تلـقَ هـذا الوجـهَ شـمسُ نهارِنَـا   إلا بوجـــهٍ لـــيس فيـــه حَيَـــاءُ

وقول أبي نواس:

إنَّ الـسحابَ لتَـسْتَحْيِي إذا نَظَـرَتْ   إلى نـــداكَ فقاسَـــتْهُ بـــما فيهـــا

---

(١) سورة الرحمن الآية ٢٤.

(٢) سورة الواقعة الآيتان ٢٢، ٢٣.

(٣) سورة القمر الآية: ٧.

وقول البحتري:

في طَلْعَـةِ البـدر شيءٌ مـنْ محاسِـنِهَا وَلِلْقَـضِيبِ نـصيبٌ مـن تَثَنِّيهَـا

إلى غير ذلك من التشبيهات الضمنية التي تكون مستترة في الأساليب مختفية وراء الجمل والعبارات فتفهم ضمنًا من سياق الكلام، ولا يصرح فيه بأركان التشبيه ولا تأتي جملته مبنية على هذا الأساس، وسيتضح لنا هذا فيما يأتي إن شاء الله.

☆☆☆

"أركان التشبيه"

وأركان التشبيه أربعة:

١- المشبه: وهو الأمر الذي يراد إلحاقه بغيره.

٢- المشبه به: وهو الأمر الذي يراد إلحاق غيره به، ويسمى كل من المشبه والمشبه به بطرفي التشبيه.

٣- وجه الشبه: وهو المعنى الجامع الذي يشترك فيه الطرفان ويكون في المشبه به أعرف وأشهر منه في المشبه، وغالبًا ما يكون في المشبه به أقوى وأكمل أيضًا منه في المشبه، ونقول "غالبًا" لأننا نرى بعض التشبيهات وقد صار بها المشبه أقوى وأكمل في وجه الشبه من المشبه به فالمدار في ذلك يرجع إلى الغرض الذي من أجله يساق التشبيه وسيتضح هذا الأمر عند حديثنا عن أغراض التشبيه.

٤- أداة التشبيه: وهي اللفظ الذي يربط بين الطرفين ويدل على التشبيه.

هذا ولكل تشبيه غرض، فالغرض من التشبيه، هو الهدف أو الفائدة التي من أجلها يسوق المتكلم التشبيه والغاية التي ينشدها من ورائه.

ما يتحتم ذكره من هذه الأركان وما يجوز حذفه:

وهذه الأركان الأربعة قد تذكر جميعًا في جملة التشبيه نحو قولنا: محمد كالبحر عطاء وكرما وعمرو كالأسد شجاعة، وقد يذكر بعضها دون بعض، فقد تحذف الأداة نحو: محمد بحر في العطاء، وذلك إذا كان المقام يقتضي المبالغة في المشابهة، ومنه قول الشاعر:

هُمُ البُحُورُ عطاءً حينَ تسألُهُمْ   وفي اللِّقَاءِ إذا تَلقَى بهمْ بُهَمُ[1]

وقد يحذف الوجه إذا كان مشهورًا واضحًا نحو: محمد كالأسد وأنت كحاتم وهو مثل أحنف... وقد تحذف الأداة والوجه معًا نحو: أنت أسد... محمد بحر ويعرف هذا التشبيه بالتشبيه البليغ.

---

(١) بُهَمٌ: جمع «بُهْمَةٌ»، وهو الشجاع قد اسْتَبْهَمَ وجهُ شجاعته على قرنه.. انظر لسان العرب مادة: بهم.

وقد اختلف فيه العلماء فبعضهم يلحقه بالتشبيه ويعده منه وبعضهم يلحقه بالاستعارة ويجعله منها وآخرون يفصلون القول فيجعلون بعضًا منه تشبيهًا والبعض الآخر استعارة على نحو ما سنرى في الفصل الثاني عند حديثنا عن الاستعارة... وقد يلحق المشبه بالوجه والأداة فيحذف معهما ويبقى المشبه به فقط، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ [1]، وقول عمران بن حطان يذم الحجاج بالجبن:

أسدٌ عليَّ وفي الحروبِ نَعَامةٌ ... فتخاءُ تَنْفِرُ من صَفِيرِ الصَّافرِ

فقد حذف في الآية والبيت المشبه بالإضافة إلى حذف الأداة ووجه الشبه والتقدير: هم صم...، وهو أسد عليَّ ونعامة في الحروب.

وحذف المشبه هنا في الآية الكريمة وفي البيت لا يخرج الكلام عن دائرة التشبيه للقاعدة المشهورة: أن المقدر كالمذكور... ولا يقال في نحو: رأيت أسدًا وحدثته... وشاهدت بحرًا في المسجد إن هذا مبني على التشبيه ولم يبق منه سوى المشبه به فلم خرج عن دائرة التشبيه وعد استعارة؟ ولم لم يظل تشبيهًا كالآية الكريمة والبيت؟ لأننا نقول: المرجع في ذلك إلى بناء الجملة، وقد بنيت الجملة في المثالين بناء تنوسي فيه التشبيه وبولغ في طيه وتجاهله، أما في الآية والبيت فقد بنيت الجملة على إرادة المشبه المحذوف وعلى تقديره والمقدر -كما قلنا- كالمذكور... فالمدار إذًا على بناء الجملة.

وأما المشبه به فيتحتم ذكره ولا يتأتى حذفه بحال من الأحوال؛ لأن في حذفه تفويتًا للغرض المقصود من التشبيه.

وبهذه الأركان الأربعة تتحقق أغراض، يعود بعضها إلى المشبه، وبعضها إلى المشبه به، وتلك الأغراض غايات يهدف المتكلم إلى تحقيقها وإفادتها بعقد هذا التشبيه، فالغرض إذًا يفاد بأسلوب التشبيه وبجملته التي تبنى من أركانه الأربعة؛ فإذا أفادت هذه الجملة الغرض كان التعبير جيدًا ومحققًا للغرض من التشبيه، وإذا لم تفده كان التعبير معيبًا ومخلاً بالغرض من التشبيه على نحو ما سنرى عند حديثنا عن أغراض التشبيه.

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٨.

هذا والتشبيه من فوائده أنه يوسع آفاق التعبير أمام المتكلم فيستطيع عن طريق الصورة أن ينقل ما رسم في ذهنه من معان إلى السامع أو القارئ وذا لأنه يجمع بين الإيجاز وحسن البيان والمبالغة في تأكيد المعاني وتقريرها، وسنفصل القول فيما يلي في العناصر التي تسهم في بناء التشبيه وتكوين الصورة وتصوير الخيال ونبدؤها بالحديث عن طرفي التشبيه.

❊ ❊ ❊

مباحث الطرفين

الطرفان وهما المشبه والمشبه به لهما صفات يتصفان بها أو أحوال يكونان عليها، وقد نظر البلاغيون إلى هذه الصفات، أو إلى تلك الأحوال ونوعوا التشبيه أو قسموه تبعًا للحال التي يوجد عليها كل من المشبه والمشبه به، نظروا إليهما من جهات مختلفة وحيثيات متعددة وزوايا متنوعة، فالطرف قد يكون حسيًا وقد يكون عقليًا، وهذه جهة نظر منها البلاغيون إلى التشبيه ونوعوه أنواعًا والطرف إما أن يكون مفردًا مجردًا أو مقيدًا بقيد له أثر في التشبيه أو يكون هيئة مركبة من عدة أمور قد امتزجت، وهذه جهة ثانية من خلالها نظر البلاغيون إلى التشبيه فقسموه أقسامًا، والمتكلم قد يشبه أمرًا واحدًا بأمر واحد أو بأمرين أو بأمور عدة، وقد يشبه أمرين بأمرين أو أمورًا بأمور، وقد يشبه أمرين أو أمورًا عدة بأمر واحد، أو بمعنى آخر الطرف قد يكون واحدًا وقد يتعدد، وهذه زاوية أخرى على أساسها قسم البلاغيون التشبيه أقسامًا، وقبل أن نخوض في هذه الأقسام أو في تلك الأنواع نريد أن نقف على هذه الأحوال التي يوجد عليها الطرف أو الصفات التي يتصف بها والتي على أساسها كانت هذه الأنواع.

ما معنى حسيَّة الطرف؟ وما معنى عقليته؟

معنى حِسِّيَّةِ الطرف أن يكون مدركًا هو أو مادته التي يتركب منها بإحدى الحواس الخمس الظاهرة وهي: البصر والسمع والشم والذوق واللمس، فمثال المدرك بإحدى هذه الحواس، ضوء الشمس فإنه مدرك بحاسة البصر وتغريد الطائر فهو مدرك بالسمع وطعم الفاكهة يدرك بالذوق ورائحة المسك تدرك بالشم

ونعومة الحرير تدرك بحاسة اللمس، ونستطيع أن نجعل هذا حسيًا حقيقيًا؛ لأن الطرف ذاته قد أدركناه ووقفنا عليه بإحدى الحواس، ومثال ما أدركت مادته التي يتكون منها بإحدى الحواس: تخيل قصر من ذهب أعمدته من فضة أو تخيل بحر من مسك موجه الذهب أو تخيل أعلام من ياقوت قائمة على أعمدة من زبرجد، فتلك أمور خيالية اخترعها الخيال وألفها من أشياء محسوسة موجودة، وهذه الهيئات المركبة لا وجود لها في الواقع ولكن أجزاءها ومادتها التي ركبت منها وهي: الذهب والفضة والمسك والياقوت والزبرجد موجودة ومدركة بالحس، ونستطيع أن نجعل هذا حسيًا غير حقيقي أو حسيًا خياليًا؛ لأن الطرف نفسه غير مدرك بالحواس ولكن الذي وقفنا عليه وأدركناه بإحدى الحواس هو مادته أو أجزاؤه التي ركب منها.

ومعنى عقلية الطرف: ألا يكون هو ولا مادته مدركًا بالحواس بأن يكون من المعاني التي يدركها المرء بعقله مثل: العلم والحياة والذكاء والمروءة والكرامة والإباء والنجدة، أو يكون من المعاني التي يحسها بوجدانه نحو: الجوع والعطش والشبع والفرح والحزن والطمأنينة والخوف، فلا مدخل للحواس الخمس في إدراك هذه الأمور، وإنما مجال إدراكها هو العقل أو الشعور الوجداني والحس الباطني، ويلحق بالطرف العقلي الأمور الوهمية التي لا وجود لها ولا لمادتها في الخارج ولكنها استقرت في وهم الإنسان نتيجة أسطورة أو عقيدة موروثة مثل: أنياب الغول، ورءوس الشياطين، وفرق بين الطرف العقلي والطرف الوهمي، فالعقلي له ثبوت وتحقق في الذهن ولكن لا مدخل للحواس في إدراكه بأي وجه من الوجوه كما رأينا. أما الوهمي؛ فلا ثبوت ولا تحقق له عقلاً ولا حسًا لعدم وجوده لكن لو فرض وقدر وجوده لأدرك بالحواس، لأننا عندئذ سنرى الغول ونبصر أنيابها ونشاهد صورة الشيطان وصورة الغول، وقد جسمتا في عالم المرئيات، كما أن هنالك فرقًا بين الطرف الوهمي والطرف الخيالي، فالخيالي هيئته التركيبية لا وجود لها ولا تحقق ولكن أجزاء هذه الهيئة ومادتها موجودة ومدركة بالحواس، والوهمي لا وجود له ولا لأجزائه حتى تدرك وتشاهد ولكن لو قدر وفرض وجوده وتحققه كان مدركًا بالحواس كما قلت.

ما معنى إفراد الطرف وتقييده وتركيبه؟

وإفراد الطرف معناه: أن يكون شيئًا واحدًا متميزًا بذاته ليس مقيدًا بقيد يؤثر في صورة التشبيه، وليس هيئة مركبة من عدة أمور، ومثاله الزهر والروض والنجوم والقمر والشجاعة والبحر والوجه.

ومعنى تقييده: أن يرتبط الطرف ويقيد بوصف أو بإضافة أو بحال أو بجار ومجرور تقييدًا لا يبلغ حد التركيب شريطة أن يكون لهذا القيد أثر في تحقيق وجه الشبه، مثاله: الراقم على الماء والمرآة في كف الأشل، وذلك بأن يشبه الرجل يجهد نفسه في عمل لا يثمر بالراقم على الماء، وأن تشبه الشمس بالمرآة في كف الأشل فقد قيد المشبه به بالجار والمجرور، وهذا القيد له تأثير في تحقيق الوجه كما لا يخفي إذ الوجه في المثال الأول هو التسوية بين الفعل وعدمه في عدم الفائدة، وفي الثاني: الهيئة المركبة من الإشراق والاستدارة والتموجات المستمرة، فالقيد إذًا له أثر في تحقيق وجه الشبه، فإذا قلنا هذه الفتاة الطويلة كالبدر إشراقًا وهذا الرجل الأسود كالأسد شجاعة، فلا يعتد بصفتي الطول والسواد، ولا تكونان قيدين في المشبه؛ لأن وجه الشبه وهو الإشراق والشجاعة لا علاقة له بالصفة المذكورة ولا أثر لهذه الصفة في تحقيقه.

ومعنى تركيب الطرف أن يكون هيئة مؤلفة من أمرين أو من عدة أمور فقد امتزجت امتزاجًا يجعلها في حكم الشيء الواحد ومثاله: الهيئة المركبة من الغبار المثار فوق رءوس المقاتلين والسيوف اللامعة المتحركة حركة مستمرة وسط هذا الغبار، والهيئة المركبة من ليل مظلم ونجوم تتهاوى وسط هذا الظلام.

ما معنى وحدة الطرف وتعدده؟

ووحدة الطرف: أن يكون أمرًا واحدًا مثل محمد كالأسد، فقد شبه شيء واحد وهو محمد بشيء واحد وهو الأسد؛ فالطرفان هنا يتصفان بالوحدة.

ومعنى تعدد الطرف: أن يكون أمرين أو عدة أمور، ولكن لا يمزج بينهما بل يظل كل أمر منهما على حدة وإلا لصار طرفًا مركبًا.

ومثال التعدد قول امرئ القيس:

كــأنَّ قُلُــوبَ الطَّــيْرِ رَطْبًــا ويَابِــسًا   لَـدَى وَكْرِهـا الْعُنَّـابُ والـحَشَفُ البـالي

فالمشبه في البيت متعدد وهو قلوب الطير الرطبة وقلوبها اليابسة والمشبه به متعدد أيضًا وهو العناب المقابل للقلوب الرطبة والحشف البالي المقابل للقلوب اليابسة، ولكن لا امتزاج بين الأمرين المشبهين ولا بين الأمرين المشبه بهما، ومنه أيضا قول أبي الطيب:

بــدَتْ قمــرًا ومالــتْ خُــوطَ بــانٍ   وفاحــتْ عَنْــبرًا وَرَنَــتْ غَــزَالاً

أي: بدت هذه المرأة بوجه كالقمر ومالت بقوام كغصن البان وفاحت برائحة كرائحة العنبر ونظرت بعين كعين الغزال، فقد شبه أمورًا متعددة بأخرى كذلك.

وبعد أن وقفنا على هذه الأحوال للطرفين وأدركنا حقيقة كل حال منها وكيفية اتصاف الطرف بها ننتقل الآن إلى أقسام التشبيه باعتبار كل حال من تلك الأحوال.

* * *

أولاً: أقسام التشبيه باعتبار حسية الطرفين أو عقليتهما:

ينقسم التشبيه من هذه الجهة إلى أربعة أقسام:

الأول: تشبيه محسوس بمحسوس كقوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾[1]، وقوله عز وجل: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾[2]، وقوله: ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة الصافات الآية ٤٨، ٤٩.

(٢) سورة الواقعة الآية ٢٢، ٢٣.

(٣) سورة الرحمن الآية: ٥٨.

فالمشبه في الآيات الكريمة هو نساء أهل الجنة والمشبه به هو بيض النعام واللؤلؤ المكنون والياقوت والمرجان(١)، وكلها من المبصرات فهي مدركة بحاسة البصر، وبتأمل الآيات الكريمة نرى مدى الدقة في إبراز جمال الحور والإبداع في تصوير حسنهن، فهن حور وقاصرات الطرف وعين، «فحور» شديدات سواد العيون وبياضها، و«قاصرات الطرف» حابساته على أزواجهن، و«عين»: ضخام الأعين حسانها، وكل هذه الألفاظ كما نرى تبرز معاني الجمال والحسن ثم كان التشبيه مصورًا هذا الجمال ومبدعًا في إظهاره؛ فهن بيض النعام ذو اللون المشرب بصفرة وذاك أجمل وأحسن ألوان النساء والبيض قد كن وسُتر فلا يصل إليه غبار، وهن لؤلؤ مكنون وهن كأنهن ياقوت ومرجان، والنفس شديدة الرغبة في هذه الأنواع الكريمة وتلك الأحجار النفيسة محبة لها شديدة الحرص عليها، وذاك عامل نفسي قوي يحبب هؤلاء النساء ويعلي شأنهن في نفس المؤمن.

ومن ذلك قول أبي طالب الرقي:

وكـــأنَّ أجـــرامَ النجـــومِ لوامعًـــا دررٌ نُثِـــرْنَ عـــلى بـــساطٍ أزرقِ

فقد شبه أديم السماء في صفاء زرقته وبياض النجوم بدرر منثورة على بساط أزرق وهما من المبصرات... وقول بشار:

كـــأنَّ مُثـــارَ النَّقْـــعِ فـــوقَ رءوسِـــنَا وأســـيافَنَا ليـــلٌ تهـــاوَى كواكِبُـــهُ

حيث شبه الغبار المثار فوق الرءوس والسيوف تتحرك وسطه مضيئة لامعة بليل مظلم تتساقط كواكبه المشرقة هاوية إلى الأرض وهما مما يدرك بالبصر... ومن ذلك تشبيهنا الخد بالورد في البياض المشوب بالحمرة والقد بالرمح في استقامته والشعر بالليل في سواده والوجه بالبدر في إشراقه وضيائه؛ فالطرفان في كل هذه التشبيهات من المرئيات.

ومن المسموعات: تشبيهنا الصوت الضعيف بالهمس، وأزيز القدر بصوت

---

(١) الياقوت: حجر نفيس كريم تختلف ألوانه وأشهر ألوانه الأحمر، والمرجان: صغار الدر وإنما خص بها دون كبار الدر؛ لأن الصفاء في صغار الدر أشد من الصفاء في كباره ووجه الشبه هو صفاء اللون وحمرته المشوبة بشدة البياض.

الطائر، ووقع الأسلحة في الحرب بالصواعق، وكتشبيه ذي الرمة أواخر الميس بأصوات الفراريخ في قوله:

كَأَنَّ أصواتَ مِنْ إيغالهنَّ بِنَا أواخِرِ الميْسِ إنقاضُ الْفَرَارِيجِ (١)

تقدير البيت: كأن أصوات أواخر الميس إنقاض الفراريج من إيغالهن بنا؛ ففصل بين المضاف والمضاف إليه بقوله: من إيغالهن بنا، وهو عيب من ناحية التركيب، والذي يعنينا هو تشبيهه الصوت المنبعث من احتكاك الرحل بعضه ببعض نتيجة شدة السير واضطراب الرحال بصوت الفراريج وهي صغار الدجاج، فوجه الشبه هو الاشتراك في هذه النغمة الخاصة، وطرفا التشبيه من المسموعات كما لا يخفى.

ومن المذوقات: تشبيه بعض الفاكهة بالعسل في الحلاوة، وتشبيه ريق الحبيب بالخمر في الطعم الجميل المذاق ... ومنه قول امرئ القيس:

كَأَنَّ المُدَامَ وصوبَ الغمَامِ وريحَ الخُزامَى ونَشْرَ القُطُرْ
يُعَلُّ بهِ بَرْدُ أنيَابِهَا إذا غرَّد الطائرُ المُسْتَحِرْ (٢)

ومن المشمومات: تشبيه النكهة بالعنبر ووجه الشبه هو الرائحة الطيبة، وتشبيه بعض الأشياء ذات الرائحة الطيبة بالريحان أو الكافور، وكتشبيه الرائحة الطيبة المنبعثة من فم الحبيبة في وقت السحر بريح الخزامى ونشر القطر في البيتين السابقين.

---

(١) الإيغال من أوغل في السير إذا أبعد فيه وأسرع والضمير للإبل، والأواخر جمع آخرة، وآخرة الرحل هي العود الذي يستند إليه الراكب، والميس: شجر صلب تتخذ منه الرحال والمراد الرحال نفسها عن طريق المجاز المرسل، والإنقاض من أنقضت الدجاجة أي: صوتت، والفراريج: صغار الدجاج جمع فروج.

(٢) المدام: الخمر، وصوب الغمام: مطره، والخزامي: نبت زهره من أطيب الزهر، والقطر: عود يتبخر به، يعل به: يسقي مرة بعد مرة والمستحر: الصوت وقت السحر يعني أنها طيبة الفم في هذا الوقت الذي تتغير فيه الأفواه بعد النوم، والمراد تشبيه برد أنيابها بالمدام وما عطف عليه فقلب التشبيه، والضمير في "به" للمدام وما بعدها، وخبر كأن: برد ويجوز جعل "برد" نائب فاعل "يعل" وجملة يعل به برد أنيابها هي الخبر والمعنى أنه يظن أن برد أنيابها مزج بالمدام وما عطف عليه وعندئذ يكون التشبيه ضمنيًا.

ومن الملموسات: تشبيه الجسم بالحرير كما في قول الشاعر:

لَهَا بَشرٌ مِثْلُ الحريرِ ومَنْطِقٌ رَخيمُ الحواشِي لا هُراءٌ ولا نَزْرُ

فالمشبه بشر والمشبه به الحرير وهما من الملموسات ووجه الشبه هو نعومة الملمس.

فطرفا التشبيه في كل ما مر بنا من شواهد حسيان حقيقيان؛ لأننا قد وقفنا عليهما، وأدركناهما بحاسة من الحواس الخمس... هذا وكثيرًا ما يلجأ الأديب إلى تأليف واختراع صور خيالية مبديًا براعته الفنية ومظهرًا المشبه في صور رائعة بديعة طريفة، وهذا الطرف الذي يخترعه الأديب ويتخيله يعد حسيًا غير حقيقي أو خياليًا أو داخلاً في الطرف الحسي كما يذكر بعض البلاغيين[١]؛ لأن مادته أو أجزاء صورته مدركة بالحس موجودة تحت مواقعه وإن كان هو بهيئته التركيبية لا وجود له.

ومن ذلك قول الصنوبري يصف شقائق النعمان:

وكأنَّ مُحْمَرَّ الشقيقِ إذا تَصَوَّبَ أو تَصَعَّدْ

أعلامُ ياقوتٍ نُشِرْنَ على رِماحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ[٢]

وقوله يصف النيلوفر وهو نبات له زهر أحمر مشوب بصفرة:

كلُّنَا باسطُ اليدِ نَحْوَ نَيْلُوفَرٍ نَدِ

كدبابيسِ عَسْجَدٍ قُطْبُهَا مِنْ زَبَرْجَدِ[٣]

---

(١) انظر الإيضاح ج ٣ ص ١٦.

(٢) الشقيق: نبات أحمر الزهر يسمى شقائق النعمان، وقد أفرد لضرورة الشعر، تصوب أو تصعد: مال إلى أسفل وإلى أعلى فأو بمعنى الواو، والياقوت حجر نفيس تختلف ألوانه والمراد هنا الأحمر، نشرن: رفعن والزبرجد حجر نفيس أشهره الأخضر وهو المراد هنا.

(٣) النيلوفر: هو نبات البشنين، وهو نبات ذو رائحة طيبة ينبت في الماء وساقه أملس أخضر فإذا ساوى سطح الماء أورق وأزهر وزهره أجمله أحمر مشوب بصفرة، والدبابيس جمع دبوس وهو عصا في رأسها كالكرة... والعسجد: الذهب أو جوهر كالدر والياقوت... وند: رطب.

وقول الآخر يصف نجم الثريا وقت طلوع الفجر:

إذا الثُّرَيَّا اعْتَرَضَتْ عند طُلوعِ الفجْرِ حَسِبْتَهَا لامِعةً سُنْبُلَةً مِنْ دُرِّ

فالمشبه في هذه الأبيات وهو شقائق النعمان ونبات النيلوفر ونجم الثريا من الحسيات الحقيقية؛ لأنها من المرئيات والمشبه به وهو الأعلام المركبة من ياقوت منشور على رماح من زبرجد، والعصا المكونة أو المصنوعة من زبرجد ورأسها من ذهب، والسنابل الدرية، من الأمور الخيالية التي صنعها خيال الشاعر ولا وجود لها في الواقع ولا تدرك بالحواس الظاهرة ولكن المواد والأجزاء التي صنعت منها هذه الأمور وركبت منها تلك المتخيلات موجودة ومدركة بالحس وواقعة تحت دائرته.

الثاني: تشبيه معقول بمعقول: كتشبيه الجهل بالموت والعلم بالحياة وتشبيه العشق بالموت كما في قول الشاعر:

العشقُ كالموت يأتي لا مردَّ لَهُ ما فيهِ للعاشقِ المسكينِ تدبيرُ

ووجه الشبه بين العشق والموت: عدم القدرة على دفعة ورده، ومن ذلك تشبيه السفر بالعذاب وتشبيه الضلال عن الحق بالعمى والاهتداء إلى الحق بالإبصار وكتشبيه الرضا بالخضوع للعدو لعدم القدرة على مقاومته بالرضا بالشيب كما في قول المتنبي:

رضُوا بِكَ كالرِّضَا بالشَّيْبِ قَسْرًا وقد وَخَطَ النَّوَاصِيَ والفُرُوعَا[1]

فالطرفان في مثل هذه التشبيهات من المعقولات.

الثالث: تشبيه معقول بمحسوس: كتشبيه أخلاق الكرام بالأرض الواسعة الممتدة وبالعطر ذي الرائحة الطيبة، وتشبيه المنية بالسبع فالمشبه وهو أخلاق الكرام والمنية من المعقولات والمشبه به وهو الأرض الواسعة والعطر والسبع من المحسوسات.

ومن ذلك تشبيه الرأي بالليل كقول الشاعر:

الرَّأْيُ كالليلِ مسودٌّ جوانِبُهِ والليلُ لا ينجلِي إلا بإصباحِ

---

(١) قسرًا: قهرًا، وخط: الوخط: فشو الشيب في الرأس وقيل: هو استواء البياض والسواد، النواصي: جوانب الرءوس، والفروع: جمع فرع، وفرع كل شيء أعلاه.

وتشبيه الغيظ بالنار كقول المتنبي:

وغَيْظٌ على الأيَّام كالنارِ في الحَشَا ... ولكنَّهُ غيظُ الأسيرِ على القِدِّ[(١)]

وتشبيه الصبر على مضض الحسود بالنار تأكل بعضها لعدم إمدادها بها يسبب بقاءها واشتعالها كقول ابن المعتز:

اصْبرْ على مَضَضِ الْحَسُو ... دِ فإنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهْ

فَالنَّارُ تَأكلُ بعْضَهَا ... إنْ لَمْ تجِدْ مَا تَأْكُلُهْ

هذا وتشبيه المعقول بالمحسوس قد ورد كثيرًا في كلام البشر كما كثر في أساليب القرآن الكريم ومن ذلك تصوير أعمال الكفار برماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، وبسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، وتمثيل اعتقادات المنافقين واضطراباتهم وتخبطهم بالذي استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم، وتمثيل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله بحبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، وبجنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تصور لنا الأمور المعنوية المعقولة بأمور محسة مشاهدة فهي كثيرة وليس هنا موطن دراستها وإشباع القول فيها، ومرجع هذه الكثرة إلى أن الأصل في باب التشبيه إخراج الأمور المعنوية العقلية إلى أمور مشاهدة محسة وإبراز الأمور الخفية المستترة إلى أمور جلية واضحة.

الرابع: تشبيه محسوس بمعقول: وهذا القسم على خلاف الأصل في باب التشبيه كما قلنا؛ لأن المشبه به شأنه أن يكون أظهر وأوضح من المشبه فأولى به أن يكون حسيًا ولا يكون عقليًا إلا بعد أن ينزل منزلة المحسوس ويدعي أنه فاق المحسوس في الوضوح والظهور.. من ذلك تشبيه الأرض الواسعة بخلق الكريم كما في قول ابن بابك:

وأَرْضٍ كأخلاقِ الكرامِ قَطَعْتُهَا ... وقدْ كَحَّلَ اللَّيْلُ السِّمَاكَ فأبصرَا[(٢)]

---

(١) غيظٌ: مبتدأ حذف خبره والتقدير: ولي غيظٌ، والقِدُّ: سير يشد به الأسير.

(٢) السماك: الأعزل والرامح وهما نجمان نيران وأبصر: فتح وظهر، وفاعل أبصر ضمير مستتر يعود على لفظ «السمـاك».

وتشبيه الظلام بيوم الفراق وبفؤاد من لم يعشق في قول أبي طالب الرقي.

ولقــدْ ذكرتُـكِ والظــلامُ كأنَّــهُ   يــومُ النَّــوَىَ وفــؤادُ مَــنْ لــمْ يَعْــشَقِ

وتشبيه الليل بالأمل المظلم في قول الشاعر:

رُبَّ ليــلٍ كأنَّــهُ أَمَــلِي فِيــ   ـكَ وقَــدْ رُحْــتُ عنــهُ بِالْــحِرْمَانِ

وتشبيه النجوم بين الدجى بالسنن بين الابتداع كقول التنوخي:

وكــأنَّ النجــومَ بــين دُجاهَــا   سُــنَنٌ لاحَ بَيْــنَهُنَّ ابتــداعُ

وتشبيه نسيم الصباح بفرصة الآيس والسراب بخجلة الوامق في قول بديع الزمان:

كــأنَّ نــسيمَ الــصبحِ فرصــةُ آيــسٍ   كــأنَّ سرابَ القــيظِ خَجْلَــةُ وامــقِ(١)

فالمشبهات في هذه الأبيات وهي: الأرض والظلام والليل والنجوم المضيئة بين الدجى ونسيم الصباح والسراب، من الأمور المدركة بالحواس، والمشبهات بها، وهي: أخلاق الكرام ويوم النوى وفؤاد من لم يعشق والأمل المظلم والسنن بين البدع وفرصة الآيس وخجلة الوامق من المعقولات التي نزلت منزلة المحسوسات وادعى أنها فاقتها في الوضوح والظهور فجعلت أخلاق الكرام أشد سعة وأكثر امتدادًا من الأرض الواسعة الممتدة، ويوم الفراق وفؤاد من لم يعشق والأمل المؤيس أشد ظلامًا من الليل، والسنة أكثر إشراقًا من النجوم والبدعة أشد ظلامًا من الليل، وفرصة الآيس أقوى في إنعاش النفس من نسيم الصباح.

هذا وكما يلجأ الأديب إلى تخيل الأطراف واختراع المركبات الخيالية إظهارًا لبراعته وإبرازًا للمشبه في صورة طريفة عجيبة، فقد يلجأ إلى استغلال المعاني الوهمية إبرازًا لفظاعة المشبه وتهويلاً من شأنه كما نرى في قول امرئ القيس:

أيقتُلُنِــي والـمَــشْرَفِيُّ مُــضاجِعِي   ومَــسْنونَةٌ زُرْقٌ كأنيــابِ أغــوالِ

فالمشبه به في البيت وهو أنياب الأغوال من المعاني الوهمية التي لا دخل للحس في إدراكها وقد استغلها الشاعر لتهويل شأن الأسنة، وإبرازها في صورة

(١) القيظ: شدة الحر، الوامق: المحب من ومقه: أحبه.

مرعبة مفزعة، ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥﴾[(١)]، فرءوس الشياطين من المعاني الوهمية وقد أبرزت قبح هذا الطلع وفظاعته ونفرت منه وبعثت في النفوس كراهته وبغضه، وفي الآية نوع من السخرية والتهكم بهؤلاء الكفرة أولياء الشيطان فهم يطعمون في جهنم من شجرة طلعها كأنها رءوس أوليائهم، كما أنه في جمع الرءوس مزيد من التهويل والتفظيع والتنفير فالطلع ليس رأس شيطان وإنما هو رءوس جميع الشياطين المنبثين في الأرض جادين في الفساد وغرس الشر واقتلاع الخير.

والأطراف الوهمية داخلة في الأطراف العقلية؛ لأنها ليس لها وجود في الواقع ولكن لو فرض وجودها وقدر لوقعت في دائرة المحسوسات ولأدركناها بإحدى الحواس الظاهرة.

* * *

ثانيًا: أقسام التشبيه باعتبار إفراد الطرفين وتقييدهما وتركيبهما:

١ - تشبيه مفرد مجرد بمفرد مجرد: كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾[(٢)]، شبه الليل باللباس ووجه الشبه: الستر فالليل يستر الناس بعضهم عن بعض، واللباس يستر صاحبه، والطرفان كما نرى مفردان غير مقيدين ومنه قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[(٣)]، فشبهت المرأة باللباس للرجل والرجل باللباس للمرأة، فالطرفان مفردان مجردان، ووجه الشبه جعله بعضهم حسيًا فقال: لما كان الرجل والمرأة يتعانقان ويشتمل كل واحد منهما على صاحبه في عناقه شبه باللباس المشتمل عليه.... الوجه إذًا هو الإحاطة والاشتمال، واستدل لهذا بقول النابغة الجعدي.

إذا مَا الضَّجِيعُ ثَنَى عِطْفَهَا ... تَثَنَّتْ فكانتْ عَلَيْهِ لِبَاسَا

---

(١) سورة الصافات آية: ٦٥.

(٢) سورة النبأ آية: ١٠.

(٣) سورة البقرة آية: ١٨٧.

وجعله بعضهم عقليًا فقال: المراد تشبيه كل واحد منهما باللباس للآخر؛ لأنه يصونه من الوقوع في فضيحة الفاحشة كاللباس الساتر للعورة(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ ﴾(٢)، شبه قلوبهم بالحجارة بجامع القسوة والصلابة، وأنه لا ينفذ إليها شيء من الخير والحق.. وطرفا التشبيه مفردان مجردان.. ومن هذا النوع قولنا: وجه كالبدر.. شعر كالليل.. رجل كالأسد، خد كالورد إلى غير ذلك من التشبيهات التي يكون طرفا التشبيه فيها من المفردات المجردة.

٢-تشبيه مفرد مقيد بمفرد مقيد، كقولنا: التعليم في الصغر كالنقش في الحجر، فالمشبه هو التعليم مقيدًا بكونه في الصغر، والمشبه به النقش مقيدًا بالجار والمجرور أي بكونه في الحجر، ووجه الشبه هو الثبات ودوام الأثر، فطرفا التشبيه مفردان مقيدان، ومن ذلك تشبيهنا من لا يحصل من سعيه على شيء بالقابض على الماء، فالمشبه مقيد بالصفة والمشبه به مقيد بالجار والمجرور والوجه وهو التسوية بين الفعل وعدمه في عدم الفائدة وخيبة مسعاه لا يتحقق إلا بمراعاة القيدين، وكذا تشبيهنا من يحاول أن يجمع بين أمرين متباعدين أو يطلب محالاً بمن يجمع السيفين في غمد فالطرفان مقيدان ووجه الشبه هو أن كلا منهما يحاول محالاً.

ومثله قولهم لمن يخاطر بنفسه في طلب الأمر العسير: هو كمبتغي الصيد في عريسة الأسد ووجه الشبه: طلب الشيء من غير موضعه.. وقولهم: هو كالحادي وليس له بعير... يضرب مثلاً لمن ينتفع ويفخر بما لا يملك، فالطرفان مقيدان.

ومنه قول ابن الرومي:

إنِّي وتَزْيِينِي بمَدْحِيَ مَعْشرًا كَمُعَلِّقٍ دُرًّا على خِنْزِيرِ

فالمشبه هو المتكلم مقيدًا باتصافه بتزيينه بمدحه معشرًا والمشبه به من يعلق درًا مقيدًا بكون تعليقه على خنزير، فالطرفان مقيدان ووجه الشبه أن كلاً منهما يضع الزينة في موضع لا يظهر لها فيه أثر.

---

(١) انظر الكشاف ج ١ ص ١٧٤.

(٢) سورة البقرة الآية: ٧٤.

٣-تشبيه مفرد مجرد بمفرد مقيد. كقوله تعالى: ﴿ خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ ﴾[1]، فالمشبه هو الخلائق في هذا اليوم، والمشبه به الجراد متيدًا بهذه الصفة أي بكونه منتشرًا ووجه الشبه: الكثرة والتدافع وجولان بعضهم في بعض ومثله قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ ﴾[2]، فالمشبه مفرد مجرد وهو الناس، والجبال، والمشبه به: الفراش مقيدًا بكونه مبثوثًا، والعهن مقيدًا بكونه منفوشًا، ووجه الشبه في الأول: الضعف وزوال التماسك، وفي الثاني. زوال القوة وتفرق الأجزاء، ولا يخفى علينا أثر هذا القيد في تحقيق وجه الشبه... ومدى دقة التعبير القرآني بإيثار هذه الألفاظ التي أبرزت وجلت حال الناس في هذا اليوم... فالفراش مثل للخفة والحماقة والتهافت ومن كلام العرب (أطيش من فراشة)... فإذا ما كان مبثوثًا فقد تم ضعفه واكتمل زوال تماسكه... والعهن هو الصوف المصبوغ ألوانًا شتى فإذا ما كان منفوشًا فقد تفرقت أجزاؤه وزال كل ما به من قوة وتماسك... ثم إيثار لفظ العهن دون الصوف ليعم كل الجبال التي هي جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود... ومن ذلك قولنا: ثغر الحبيب كاللؤلؤ المنظوم... والرشوة طعام مسموم في سوء عاقبتها.. والغيبة لحم نتن تجتمع عليه الكلاب.. وقول عبد الله بن المعتز:

والشمسُ كالمرآةِ في كفِّ الأَشَلْ　　لما رأيتُهَا بَدَتْ فوقَ الجبلْ

فالمشبهات في هذه الأمثلة، مفردة مجردة وهي ثغر الحبيب والرشوة والغيبة والشمس والمشبه بها مفردة مقيدة وهي اللؤلؤ المنظوم والطعام المسموم واللحم النتن والمرآة في كف الأشل.

٤-تشبيه مفرد مقيد بمفرد مجرد: كقولنا: العين الزرقاء كالسنان فالمشبه: العين مقيدة بكونها زرقاء والمشبه به: السنان وهو مفرد مجرد ووجه الشبه هو الزرقة الصافية. وكذا قولنا: الأمل بلا عمل كالسراب فالمشبه الأمل مقيدًا بكونه بدون

(١) سورة القمر الآية: ٧.

(٢) سورة القارعة الآيتان ٤، ٥.

عمل والمشبه به: السراب وهو مفرد مجرد ووجه الشبه، عدم الوصول إلى شيء... وكذا تشبيه الحياة في قيود المذلة بالجحيم... وتشبيه المرآة في يد الأشل بالشمس... ولا يخفى علينا في كل ما مر من شواهد وأمثلة أن القيد الذي قيد به الطرف له أثر في تحقيق وجه الشبه... وهذا شرط في تقييد الطرف، فإذا لم يكن للقيد أثر فلا اعتداد به.

٥-تشبيه مركب بمركب، كقول بشار يصف معركة:

كأنَّ مُثارَ النقعِ فوقَ رءوسِنَا ... وأسيافَنَا ليلٌ تهاوىَ كواكِبُهُ

شبه الهيئة المركبة من الغبار المثار والسيوف المتحركة حركات سريعة مضطربة وإلى جهات مختلفة بالهيئة المكونة من الظلام والكواكب تتهاوى وسطه وقد تداخلت واستطالت أشكالها... فطرفا التشبيه مركبان من عدة أمور قد امتزجت بعضها ببعض وكونت هيئة مركبة ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من سقوط أجرام مشرقة مستطيلة متناسبة المقدار في جوانب شيء مظلم.

ومنه قول البحتري يصف فرسًا:

ترَى أحجالَهُ يَصْعَدْنَ فيهِ ... صُعُودَ الْبَرْقِ في الْغَيْمِ الْجَهامِ(١)

فقد شبه الهيئة الحاصلة من ارتفاع البياض في قوائم الفرس وانتشاره ومخالطته السواد بالهيئة الحاصلة من انتشار شعاع البرق في وسط الغيم... فالطرفان مركبان، ووجه الشبه: الهيئة الحاصلة من اختلاط البياض بالسواد:

ومنه قول المتنبي يمدح سيف الدولة:

يهُزُّ الْجَيْشُ حولَكَ جانِبَيْهِ ... كَمَا نَفَضَتْ جناحَيْهَا العُقَابُ(٢)

فالمشبه الهيئة المركبة من تحرك الجيش واضطرابه واهتزاز جانبيه ميمنة وميسرة حول سيف الدولة، والمشبه به الهيئة المكونة من صورة العقاب تنفض جناحيها

---

(١) الأحجال: جمع حَجَل وهو البياض في رجل الفرس، الغيم الجهام: الذي لا ماء فيه.

(٢) العقاب: طائر كاسر معروف بالعزة والمنعة يضرب به المثل في ذلك فيقال: أمنع من عقاب الجو، وهو خفيف الجناح سريع الطيران.

وتحركهما حركات سريعة... فالطرفان مركبان ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من شيء له جانبان في حال حركة واضطراب وتموج.

وقول الفرزدق:

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ في الشَّبَابِ كأَنَّهُ ... لَيلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارُ

فالمشبه: الهيئة الحاصلة من نهوض الشيب في الشباب وتمكنه منه وسيطرته عليه وكأنه يؤذن بهلاكه ورحيله... والمشبه به: الهيئة الحاصلة من نهار يصبح بجانبي ليل، وقد تمكن النهار وسيطر وصارت له الغلبة فهو الذي يصيح معلنًا انتصاره وبرزوه وتمكنه من خصمه وقد أحاط بجانبيه معلنًا هلاكه وزواله. فالطرفان مركبان، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من انتشار البياض في السواد.

وقول أبي طالب الرقي:

وكأَنَّ أجرامَ النجومِ لوامعًا ... دُرَرٌ نُثِرْنَ على بِسَاطٍ أَزْرَقِ

وقول السري الرفاء:

وكأَنَّ الْهِلالَ نُونُ لُجَيْنٍ ... غَرَقَتْ في صَحِيفَةٍ زَرْقَاءَ

فالمشبهان في البيتين: الهيئة المركبة من النجوم المضيئة اللامعة، وقد انتشرت في أديم السماء، في البيت الأول... ومن الهلال وقد بدا أبيض لامعًا مقوسًا في السماء الزرقاء في البيت الثاني، والمشبه بهما على الترتيب المذكور: الهيئة الحاصلة من درر نثرت على بساط أزرق... ومن فضة ظهرت مقوسة مثل حرف النون غارقة في صحيفة زرقاء...

والوجه: الهيئة المكونة من أشياء لامعة مضيئة منتشرة في شيء أزرق، ومن شيء أبيض لامع مقوس في شيء أزرق.

* * *

هل يتأتى تحويل التشبيه المركب إلى متعدد؟

عرفنا أن التشبيه المركب هو الذي ركبت أجزاؤه وامتزجت واتحدت وصارت كالشيء الواحد، وأن المتعدد لا يحدث فيه هذا الامتزاج بل يبقى كل أمر

مستقلاً عن غيره ومشبهًا بنظيره في الطرف الآخر... وإذا نظرنا إلى التشبيهات المركبة وجدنا أن بعضها لا يمكن فصل أجزائه وجعلها تشبيهات متعددة، وأن البعض الآخر يمكن فصل أجزائه وتحويله إلى متعدد، ولكن هذا الفصل يمحو جمال الصورة التركيبية ويذهب بغرض الشاعر وما يهدف إليه من بناء التشبيه وتركيبه.

فمن الأول الذي لا يمكن فصل أجزائه قول ابن المعتز:

غَدَا والصبحُ تحتَ الليلِ بادِ ... كَطَرْفِ أَشْهَبٍ مُلْقَي الْجِلالِ(١)

يشبه ظهور الفجر وإضاءته في بقايا الليل المدبر بفرس أشهب مال عنه غطاؤه الأسود فبدا بياض الفرس في سواد الغطاء والوجه: اجتماع سواد قليل في بياض كثير، فطرفا التشبيه مركبان، ولو حاولنا فصل الأجزاء في الطرفين فربما استقام تشبيه الصبح بالفرس الأبيض، ولكن حين نشبه الليل بالجلال لا يستقيم التشبيه لغثاثته وفقدان ثمرته.

وقول التنوخي:

كأنَّمَا المريخُ والمشترَي ... قُدَّامَهُ في شامخِ الرِّفْعَةْ
مُنْصَرِفٌ بالليلِ عن دَعْوَةٍ ... قد أُسْرِجَتْ قُدَّامَه شَمْعَةِ

يشبه الصورة الحاصلة من وقوع المريخ في السماء وهو كوكب مضيء شديد اللمعان وقد تقدمه المشترى بالصورة الحاصلة من شخص منصرف في جنح الليل من دعوة وقد تقدمه تابعه بمصباح يضيء له الطريق.... ووجه الشبه: الصورة المكونة من وجود شيء مضيء يتقدمه شيء آخر مضيء وبينهما مسافة قصيرة... ولو حاولنا فض أجزاء الصورة فشبهنا المريخ بالمنصرف قلنا ما ليس بقول؛ لأنه لا وجه بين المريخ والشخص المنصرف وربما استقام تشبيه المشتري بالشمعة لوجود وجه بينهما وهو الإضاءة ولكنك ترى هذا التشبيه غثًا لا ثمرة له ولا يستسيغه الذوق.

---

(١) باد: ظاهر، الطرف الأشهب: الفرس الأبيض، والجلال: جمع جُلّ بضم الجيم وبفتحها وهو غطاء الفرس ولعله كان يتخذ من قماش أسود.

ومن الثاني قول بشار وقد مر بنا:

كأنَّ مُثارَ النقعِ فوقَ رءوسِنَا وأسيافَنَا ليلٌ تهاوَى كواكِبُهُ

وقول الرفاء وقد مر بنا أيضًا:

وكأنَّ الهلالَ نونُ لُجَيْنٍ غَرَقَتْ في صَحِيفَةٍ زَرْقَاءَ

وقول أبي طالب وقد سبق:

وكأنَّ أجرامَ النجومِ لوامعًا دُرَرٌ نُثِرْنَ على بساطٍ أزرقِ

فلو فضضنا أجزاء الصور في هذه التشبيهات فشبهنا النقع بالليل والسيوف بالكواكب والهلال بنون اللجين والنجوم بالدرر والسماء بالبساط الأزرق وبالصحيفة الزرقاء لصحت هذه التشبيهات من حيث تحقق وجه الشبه بين الأجزاء... ولكن يضيع جمال التشبيه الذي أحدثه التركيب ويضيع غرض الشاعر الذي رمى إليه وقصده بهذه الصورة المركبة.

٦-تشبيه مفرد بمركب: كقول ابن المعتز يصف الهلال:

اُنْظُرْ إليهِ كزَوْرَقٍ من فضةٍ قد أَثْقَلَتْهُ حُمُولَةٌ من عَنْبَرِ(١)

شبه الهلال وقد امتلأ قوسه المضيء بظلام الليل بزورق من فضة قد أثقل بحمولة من عنبر... فالمشبه مفرد والمشبه به مركب ووجه الشبه: الهيئة الحاصلة من وجود جسم مضيء متقوس يملأ تقوسه أشياء سوداء قاتمة.

وقول الخنساء تصف أخاها صخرًا:

أَغَرُّ أبلجُ تأتمُّ الْهُدَاةُ بهِ كأَنَّهُ عَلَمٌ في رأسهِ نارٌ(٢)

فالمشبه مفرد وهو صخر والمشبه به مركب وهو الهيئة الحاصلة من الجبل والنار المشتعلة في قمته... ومن ذلك تشبيه النيلوفر بدبابيس عسجد قطبها من زبرجد... وتشبيه شقائق النعمان بأعلام ياقوت منشورة على رماح زبرجد. فالمشبه مفرد والمشبه به مركب وقد مر بنا هذان التشبيهان.

---

(١) الضمير في "إليه" يعود إلى الهلال.

(٢) العلم: الجبل.

٧-تشبيه مركب بمفرد وهو قليل ومنه قول أبي تمام:

يَـــا صَـــاحِبيَّ تَقَـــصَّيَا نَظَـــرَيْكُمَا تَرَيَـــا وُجُـــوهَ الأرضِ كيـــفَ تَـــصَوَّرُ
تَرَيَـــا نَهَـــارًا مُشْمِـــسًا قـــد شَـــابَهُ زَهْـــرُ الرُّبَـــا فكـــأَنَّما هـــو مُقْمِـــرُ[١]

يشبه الهيئة الحاصلة من الشمس الساطعة على الروابي المزهرة المخضرة وقد اختلطت الأشعة المشرقة بالخضرة القاتمة فانكسرت بهذا الاختلاط حدة الضوء حتى صار يضرب إلى السواد... يشبه هذه الهيئة المركبة بليل مقمر... فالمشبه به مفرد مقيد والمشبه مركب.

* * *

ثالثا: أقسام التشبيه باعتبار وحدة الطرفين أو تعددهما:

ينقسم التشبيه باعتبار هذه الحال إلى خمسة أقسام:

الأول: أن يكون المشبه واحدًا والمشبه به كذلك كقوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾[٢]، المشبه: أصحاب الفيل والمشبه به: العصف المأكول وكلاهما واحد فلا تعدد. وكذا قوله تعالى في وصف هلاك ثمود قوم صالح عليه السلام: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ ﴾[٣]، فقد شبه القوم بالهشيم وكلاهما واحد لا تعدد فيه... وانظر إلى دقة التعبير القرآني في استخدام الألفاظ وإلى إيحاءات تلك الألفاظ فقد عبر عن هلاك ثمود بأنهم صاروا كالهشيم وهو الشجر اليابس وهذا يكفي في إفادة هلاكهم ولكنه أضاف إلى المشبه به هذا القيد "المحتظر" أي: الذي يعمل الحظيرة لمواشيه من يابس الشجر فما سقط منها وداسته فهو الهشيم ولذا أفاد هذا القيد حقارتهم وازدراءهم فهم كالهشيم الذي تطؤه الدواب وتبول عليه وتروث، ثم عبر عن هلاك أصحاب الفيل بأنهم جعلوا كالعصف وهو ورق الزرع وهذا كاف في إفادة الهلاك ولكنه قيد العصف بهذا الوصف "مأكول" أي:

---

(١) تقصَّيَا: اجتهدَا في النظر وابلغَا أقصى نظريكما من تقصيته: بلغت أقصاه، والنهار المشمس الذي لا غيم فيه، وشابه: خالطه، والربا: جمع ربوة وهي الأرض المرتفعة.

(٢) سورة الفيل الآية: ٥.

(٣) سورة القمر الآية: ٣١.

أكلته الدواب فهضمته، ثم راثته فضلات وبالت عليه، فهم قد صاروا إلى حال أخرى في أجسادهم بخلاف الصورة الأولى التي تصور هلاك ثمود، فثمود قد تهشموا وبقيت أوصاف أجسامهم كما هي... التعبير القرآني قد أبرز هلاك أصحاب الفيل في صورة أشد وأفظع من هلاك ثمود ويرجع ذلك إلى الحال الذي اقتضى هلاك كلٍّ فثمود عقروا الناقة وأعرضوا عن آيات ربهم، وأصحاب الفيل قد قصدوا الكعبة وأرادوا هدم البيت واقتلاع أسسه، أرادوا إزالة أول بيت وضع للناس ولذا كان هلاكهم أشد.

ومن هذا القسم قولنا: خد كالورد.. فتاة كالبدر.. محمد كالأسد.. الأمير كحاتم في الكرم.. فهذه التشبيهات لا تعدد في طرفيها حيث شبه في كل منها شيء واحد بشيء واحد.

الثاني: أن يشبه شيء واحد بشيئين أو بأكثر أو بمعنى آخر أن يتعدد المشبه به دون المشبه ويسميه البلاغيون تشبيه الجمع؛ لأنه قد جمع للمشبه الواحد عدة أشياء جعل كل واحد منها مشبهًا به... من ذلك قول عمران بن حطان:

أسـدٌ علـيَّ وفي الحروبِ نَعَامَـةٌ ... فَتْخَـاءُ تَنْفِـرُ مـن صَـفِيرِ الصَّـافِرِ

فقد شبه مخاطبه بالأسد ثم بالنعامة فالمشبه واحد والمشبه به متعدد.

وقول البحتري:

كـأَنَّمَا يَبْـسِمُ عـن لؤلـؤٍ ... مُنَـضَّدٍ أو بَـرَدٍ أو أَقَـاحْ(١)

يريد أنه يبسم عن ثغر كلؤلؤ منظوم وكحبات الثلج الخالص البياض وكزهر الأقحوان في شدة بياضه... فالمشبه واحد والمشبه به متعدد.

وقول امرئ القيس:

كـأنَّ الْـمُدَامَ وصـوبَ الغمامِ ... وريـحَ الـخزامَى ونـشرَ القطـرْ
يُعَـلُّ بـهِ بَـرْدُ أَنْيَابِـهَا ... إذا غـرَّدَ الطـائرُ الْمُـسْتَحِرْ

---

(١) المنضد: المنظم، والبرد: حب الغمام، والأقاح: جمع أقحوان، وهو ورد له نور أوراقه في شكلها أشبه شيء بالأسنان.

التشبيه في البيتين من التشبيهات المقلوبة وقد يكون ضمنيًا كما مر بنا والمهم هنا آنه شبه برد أنياب حبيبته بالمدام وصوب الغمام وريح الخزامي ونشر القطر في حسن المذاق والصفاء وطيب الرائحة، فالمشبه واحد والمشبه به متعدد.

وقول الآخر يصف سيره ليلا متخلصًا للهجاء:

قَطَعْتُ دياجِيَهِ بنومٍ مُشَرَّدٍ   كَعَقْلِ سليمانَ بْنِ فَهْدٍ وَدِيْنِهِ(١)

فالمشبه واحد وهو النوم المشرد والمشبه به متعدد وهو: عقل سليمان ودينه.

الثالث: أن يشبه شيئين أو أكثر بشيء واحد بمعنى أن يتعدد المشبه دون المشبه به ويسميه البلاغيون: تشبيه التسوية؛ لأنه قد سوى بين عدة مشبهات في مشبه به واحد.

كقول القائل:

آراؤكُمْ ووجوهُكُمْ وسيوفُكُمْ   في الحادثات إذا دَجَوْنَ نُجُومُ

فالمشبه متعدد وهو الآراء والوجوه والسيوف والمشبه به واحد وهو النجوم.

وقول الآخر:

صُدْغُ الحبيبِ وحالي   كلاهُمَا كاللَّيالي

وثَغْرُهُ في صفاءٍ   وأَدْمُعِي كَاللَّآلي(٢)

فقد شبه هذا المحب صدغ حبيبه وحاله وقد تعثر في حبه بالليالي بجامع السواد فالمشبه متعدد والمشبه به واحد ثم شبه في البيت الثاني ثغر الحبيب ودموع المحب باللآلئ الصافية ووجه الشبه: الصفاء فالمشبه متعدد أيضًا والمشبه به واحد.

الرابع: أن يتعدد كل من المشبه والمشبه به ويقرن كل مشبه بالمشبه به في الذكر ويسمى بالمفروق لأنه قد فرق بين المشبهات والأمور المشبه بها ويسمى أيضًا بغير

---

(١) يهجو سليمان بن فهد فيشبه النوم المشرد بعقله ثم بدينه ووجه الشبه هو عدم الثبات في كل.

(٢) الصدغ: ما بين الأذن والعين ويطلق على الشعر المتدلي من الرأس على هذا الموضع وهو المراد هنا، والثغر: الفم أو مقدم الأسنان والثاني هو المراد هنا، وتشبيه أدمعه باللآلئ يدل على كثرتها وغزارتها لأنه إذا كثر ماء المنبع صفا عما فيه من الكدر، ويؤخذ عليه التعبير بجمع القلة "أدمع" والمقام يقتضي جمع الكثرة "دموع".

الملفوف لأن المشبهات قد فرق بينها فلم تلف وكذلك الأمور المشبه بها قد فرق بينها بالمشبهات فليست ملفوفة... ومن ذلك قول المرقش الأكبر:

النَّشْرُ مِسْكٌ والوُجُوهُ دنا نيرٌ وأطرافُ الأكفِّ عَنَمُ(١)

فقد تعددت التشبيهات في البيت وقرن كل مشبه بالمشبه به.

وقول الآخر:

فالأرضُ ياقوتةٌ والجَوُّ لؤلؤةٌ والنَّبْتُ فَيْرُوزَجٌ والماءُ بلَّوْرُ(٢)

وقول أبي طالب:

بدت قمرًا ومالَتْ خُوطَ بانِ وفاحَتْ عنبرًا ورنتْ غَزالا(٣)

فالتشبيهات في البيتين متعددة، وقد قرن كل مشبه بالمشبه به.

الخامس: أن يتعدد كل من المشبه والمشبه به وتكون المشبهات مجتمعة في طرف والأمور المشبه بها في طرف آخر ويسمى الملفوف أو المقرون لأن المشبهات قد اقترنت ولفت في طرف وكذلك الأمور المشبه بها... من ذلك قول امرئ القيس:

كأنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا ويابسًا لَدَى وَكْرِهَا العُنَّابُ والْحَشَفُ البالي

فالمشبه في البيت متعدد وهو قلوب الطير الرطبة وقلوبها اليابسة والمشبه به كذلك وهو العناب المقابل للقلوب الرطبة والحشف البالي المقابل للقلوب اليابسة، وقد اجتمع المشبهان في طرف والمشبه بهما وجدا في الطرف الآخر.

وقول الآخر:

ليلٌ وبدرٌ وغُصنُ شعرٌ ووجهٌ وقَدُّ

خمرٌ ودرٌّ وورْدُ ريقٌ وثَغْرٌ وخَدُّ

فقد جمع في البيت الأول ثلاثة تشبيهات وكذلك في البيت الثاني ووجدت المشبهات في طرف والأمور المشبه بها في الطرف الآخر فهو من التشبيه المتعدد الملفوف.

---

(١) النشر: الرائحة الطيبة، والعنم: شجرة له ثمرة حمراء يشبه بها البنان المخضوب.

(٢) الفيروزج: ضرب من الأصباغ، والبلور: حجر صاف.

(٣) الخوط: الغصن الناعم، والبان: شجر معتدل القوام لين، ورنت: نظرت.

الفرق بين التشبيه المتعدد والتشبيه المركب

إذا تأملنا ما مر بنا من شواهد للتشبيهات المركبة والتشبيهات المتعددة وجدنا أن هناك اختلافًا بينهما مرجعه إلى أن التشبيهات المركبة تختلط فيها الأمور أو الصفات التي يتكون منها الطرف وتمتزج وتتحد بحيث تصير هيئة مركبة لا يتأتى فيها الفصل بين أجزائها، أما التشبيهات المتعددة فلا اتحاد بينها ولا امتزاج بل كل تشبيه منها يمكن أن يستقل بنفسه... ففي البيت:

كــأنَّ قُلُــوبَ الطَّــيْرِ رَطْبًــا ويابــسًا لَدَى وَكْرِهَا العُنَّابُ والْحَشَفُ البالي

يمكن أن يستقل تشبيه قلوب الطير الرطبة بالعناب دون أن يؤثر هذا الاستقلال في تشبيه القلوب اليابسة بالحشف البالي، ولا يتأتى ذلك في التشبيهات المركبة، وكذلك التشبيهات المتعددة يتأتى فيها التقديم والتأخير وتغيير موطن كل منها بنقله إلى مكان غيره دون أن يؤثر ذلك في دلالة كل تشبيه.

ففي بيت المرقش الأكبر:

النــشرُ مــسكٌ والوجــوهُ دنــا نــيرٌ وأطــرافُ الأكــفِّ عَــنَم

يتأتى أن نقول: الوجوه دنانير والنشر مسك وأطراف الأكف عنم، وليس لهذا التغيير تأثير في دلالة التشبيهات، ولا يتأتى ذلك في التشبيهات المركبة لأنها بنيت على الاتحاد والامتزاج كما قلنا.

وبهذا يتضح لنا أن التشبيهات المتعددة تختلف عن التشبيه المركب من ثلاثة أوجه:

أولها: أن التشبيهات المتعددة لا يجب فيها ترتيب بل يتأتى فيها التقديم والتأخير دون أن يؤثر ذلك في دلالة التشبيه وهذا لا يتأتى في التشبيه المركب لبنائه على الامتزاج والاتحاد.

الثاني: أن المتعددة يجوز حذف بعضها دون أن يؤثر هذا الحذف على ما تبقى من تشبيهات ولا يتأتى هذا في التشبيه المركب.

الثالث: أن التشبيهات المتعددة يعطف بعضها على بعض عطف المستقل على

المستقل، أما التشبيه المركب فإنه في الغالب تذكر فيه بعض أجزائه على وجه التبع للآخر كأن تكون في صلته أو صفته أو حالاً منه أو معطوفة عليه بالفاء أو ثم فإذا توسطته الواو كانت للمعية أو للحال أو عاطفة متضمنة للمعية.

وهذا لا يعني أن التشبيهات المتعددة ليس لها من قيمة فنية بل لها قيمتها الفنية ومزيتها التي ترجع إلى ما فيها من إيجاز في التعبير وحسن التنسيق والجمع بين التشبيهات المتجانسة في تعبير واحد، ولكنها لا تصل إلى مرتبة التشبيهات المركبة التي تبرز سعة الخيال وقوة التصوير وإحكام البناء.

***

مباحث وجه الشبه

وجه الشبه هو المعنى الذي يشترك فيه طرفا التشبيه تحقيقًا أو تخييلاً؛ فمعنى اشتراك الطرفين في الوجه تحقيقًا أن يكون وجوده في كل منهما على جهة التحقيق مثل تشبيه الشعر بالليل والرجل الشجاع بالأسد، فوجه الشبه وهو السواد في التشبيه الأول والشجاعة في الثاني موجود في كل من المشبه والمشبه به على جهة التحقيق، إلا أن وجود السواد في الليل أقوى وأشهر من وجوده في الشعر، وكذا الشجاعة وجودها في الأسد أعرف وأقوى من وجودها في الرجل الشجاع، فالوجه محقق في الطرفين موجود في كل منهما وإنما يقع الفرق بين وصف كل منهما به من جهة الزيادة والنقصان والقوة والضعف، فغالبًا ما يكون الوجه أقوى وأكمل في المشبه وأبرز وأشهر في المشبه به كما سنرى عند حديثنا عن أغراض التشبيه.

وأما وجه الشبه التخييلي فهو الذي يكون وجوده في أحد الطرفين على جهة الحقيقة وفي الآخر على جهة التخييل والتأويل... كما في قول القاضي التنوخي:

وكأنَّ النجومَ بين دُجاهَا ... سُننٌ لاحَ بَيْنَهُنَّ ابْتداعُ(١)

فقد شبه انتشار النجوم في السماء وقد تخللتها قطع من سواد الليل بالسنن

(١) الدجى: الظلام مفرده: دجية وهي الظلمة، ويجوز أن نجعل في أحد الشطرين قلبًا ليتوافق الطرفان في تحقيق الهيئة والمعنى بعد القلب وكأن الدجى بين النجوم... أو سنن لاحت بين ابتداع.

الواضحة وقد اندست بينها البدع، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من وجود أشياء مشرقة مضيئة في جوانب شيء مظلم وهو مركب حسي، وهذا الوجه موجود على جهة التحقيق في المشبه، ولا يوجد في المشبه به إلا عن طريق التخييل؛ لأن السنن والبدع من المعقولات التي لا تتصف بصفة المحسوسات، والتخييل الذي نقصده أن نتأمل أجزاء الصورة في الطرفين حتى نصل إلى إمكان الجمع بينهما في الوجه المذكور، وذلك بأن نقول: هناك وجه شبه بين أجزاء الطرفين خلاف ما هو لون أي: خلاف الإشراق والسواد فالسنة تشبه بالنجم بجامع الاهتداء بكل منهما والبدعة تشبه بالليل بجامع الإضلال وهذا الوجه الآخر جعل جزأي الصورة قد تماثلا وتآخيا عند النفس، ثم إن البدعة والكفر وكل ما هو جهل قد ذاع بين الناس واشتهر وصفه بالظلام والسواد وكذلك السنة والإيمان وكل ما هو علم قد اشتهر وصفه بالإشراق والبياض، قال تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ (١)، وقال عليه الصلاة والسلام: «أتيتكُم بالحَنيفيةِ البيضَاءِ» (٢)، ويقال: شاهدت سواد الكفر في جبين فلان، ونور الإيمان يشرق في وجه فلان.

فلما اشتهر ذلك وذاع وكثر توهمت النفس وتخيلت أن في البدعة ما في الليل من ظلام وسواد وأن في السنة ما في النجم من إشراق وبياض وصح لديها أن تشبه السنن اندست بينها البدع بالنجوم يتخللها الظلام بجامع الهيئة الحاصلة من وجود أشياء مشرقة مضيئة في جوانب شيء مظلم أسود، كما استقام لديها إذا أرادت المبالغة أن تقلب التشبيه فتشبه النجوم بين الدجى بالسنن بين البدع بادعاء أن الوجه المذكور أقوى في السنن بين البدع منه في النجوم بين الدجى، وبهذا التخييل صار ما ليس بمتلون وهو السنة والبدعة متلونًا وصارت السنة بيضاء مشرقة والبدعة سوداء مظلمة.

ومن ذلك قول التنوخي أيضًا:

فانهض بنارٍ إلى فحمٍ كأنَّهُمَا ... في العين ظلمٌ وإنصافٌ قدِ اجْتَمَعَا

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٧.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده رقم ٥/ ٢٦٦، ولفظه "بالحنيفية السمحة".

فشبه الهيئة المكونة من صورة النار المشتعلة في الفحم بالصورة المكونة من الظلم يصاحب الإنصاف في مرأى العين بجامع الصورة الحاصلة من وجوه شيء مشرق بجوار شيء مظلم.

وذلك بناء على ما اشتهر من وصف الظلم بالسواد في مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «**الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ**»(١)، ووصف الإنصاف والعدل بالنور والإشراق في نحو قولهم: عدل واضح كنور الصبح، فوجه الشبه موجود في المشبه به على طريق التخييل وجعل ما ليس بمتلون متلونًا.

ولنا أن نجعل وجه الشبه في البيتين تحقيقيًا وهو زيادة حسن الشيء لمجاورة ضده ويكون هدف الشاعر أن يبرز الدلالة على زيادة حسن السنة في أعين الناس بمجاورتها البدعة القبيحة، وعلى زيادة حسن الإنصاف بمجاورته الظلم ثم قلب التشبيه فشبه المحسوس بالمعقول مبالغة وادعاء فالتشبيه قد خرج عن الأصل من هذه الجهة؛ لأن الأصل أن يشبه المعقول بالمحسوس.. كما في قول البحتري:

وقــدْ زادَهــا إفــراطَ حُسْنِ جوارُهَــا   خلائــقَ أصــفار مــن الــمجد خُيَّــب
وحــسنُ دَرَاريِّ الكواكــبِ أنْ تُــرَى   طوالــعَ في داجٍ مــن الليّــلِ غَيْهَــبِ(٢)

فقد شبه المعقول وهو الهيئة الحاصلة من وجود خلائق لها مجد بجوار خلائق خالية منه بالمحسوس وهو الهيئة الحاصلة من وجود دراري الكواكب في ليل غيهب بجامع زيادة حسن الشيء لمجاورة ضده.

ومن التشبيه التخييلي قول أبي طالب الرقي:

ولقــدْ ذكرتُــكِ والظــلامُ كأنَّــهُ   يــومُ النَّــوَى وفــؤادُ مَــنْ لَــمْ يَعْــشَقِ

فقد شبه الظلام بيوم النوى وبفؤاد من لم يعشق بجامع السواد في كل فالوجه موجود في المشبه على طريق التحقيق وفي المشبه بهما على طريق التخييل بناء على ما

---

(١) رواه مسلم في كتاب البر رقم ٥٦ ولفظه "اتقوا الظُّلْم فإن الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يومَ القِيَامة".

(٢) أصفار: جمع صفر والمعنى: خالية ودراري: جمع دري وهو الكوكب الثاقب المضيء كالدر، والداجي: المظلم.

ذاع واشتهر من قولهم: اسودَّ النهار في عينيه وأظلمت الدنيا أمامه وقلبه أسود كالليل، فقد اشتهر وصف يوم الفراق بالسواد ووصف الذين لم يعشقوا بقسوة القلوب ووصف القلب القاسي بالسواد ولذا صح التشبيه واستقام على طريق التخييل وجعل ما ليس بمتلون وهو يوم النوى وفؤاد من لم يعشق متلونًا مسوذا ثم أكد الشاعر هذا التخييل بجعل السواد في كليهما أشد وأقوى منه في ظلام الليل وذلك بقلب التشبيه وجعل الظلام الذي سواده محسوس محقق مشبهًا ويوم النوى وفؤاد من لم يعشق اللذين سوادهما متخيل مشبهًا بهما.

ومن ذلك قول ابن بابك:

وأرضٍ كـــأخلاقِ الكـــرامِ قطعتُهَـــا وقــدْ كَحَّـــلَ الليـــلُ الـــسِّمَاكَ فأبــصرا

شبه الأرض بأخلاق الكرام بجامع السعة والانبساط فوجه الشبه موجود في المشبه على طريق التحقيق وفي المشبه به على طريق التخييل وجعل ما ليس متصفًا بالسعة متصفًا بها بناء على ما اشتهر من وصفهم الخلق الكريم بالسعة في قولهم: فلان رحب الأخلاق واسع الحلم فسيح المعرفة. ثم بالغ الشاعر في تخييله فقلب التشبيه مدعيًا أن أخلاق الكرام أحق بوصف السعة والانبساط من الأرض المبسوطة الممتدة.

ومنه قول الصاحب بن عباد مخاطبًا أحد القضاة وقد أهدى الصاحب إليه عطرًا وأرفقه بهذين البيتين:

يا أيُهَـــا القـــاضي الـــذي نفـــسي لـــه مـــع قـــربِ عهـــدِ لقائـــهِ مُـــشتاقَةْ

أهـــديتُ عِطـــرًا مثـــلَ طيـــبِ ثنائِـــهِ فكـــأنَّما أُهـــدِي لـــه أخلاقَـــهْ

فقد شبه العطر بالثناء وبالأخلاق بجامع استطابة النفس في كل وذلك على طريق التخييل وجعل ما ليس بمشموم وهو الثناء والأخلاق مشمومًا وذا رائحة طيبة زكية، ثم بالغ في التخييل والتوهم فجعل رائحتهما أطيب من رائحة العطر وذلك بقلب التشبيه ليؤكد تخييله.

وقول ابن طباطبا:

كـأنَّ انتـضاءَ الْبَـدْرِ مِـنْ تحـتِ غيمِـهِ   نَجَـاءٌ مـن البأسـاءِ بعـدَ وقـوعِ (١)

يشبه خروج البدر المنير من تحت السحاب المعتم بخلوص الإنسان من الشدة بعد الوقوع فيها ووجه الشبه هو الانكشاف وزوال الظلام عن الشيء المشرق حتى يبرز ويتضح، وهذا الوجه محقق في المشبه ومتخيل في المشبه به بناء على ما شاع بين الناس من تشبيه الشدائد والمكاره بظلام الليل لمكابدة الإنسان منها ما يكابد الساري في الظلام، ومن تشبيه التخلص منها بالخروج من ظلام الليل إلى ضوء النهار، ولذا استقام التشبيه في البيت على طريق التخييل وجعل ما ليس بمتلون متلونا، ثم بالغ الشاعر في تخييله فجعل ما في الشدائد من سواد وما في الخلاص منها من بياض أشد وأقوى من ضياء البدر وظلام السحاب وذلك بقلب التشبيه وتصوير المحسوس بالمعقول.

وبهذا يتضح لنا أن وجه الشبه لابد أن يكون مشتركًا بين الطرفين موجودًا وملاحظًا في كل منهما إما عند طريق التحقيق وإما عن طريق التخييل والتأول، فإذا لم يكن موجودًا وملاحظًا في كلا الطرفين كان التشبيه فاسدًا ومعيبًا: فإن جعلنا وجه الشبه في قولنا: النحو في الكلام كالملح في الطعام؛ أن كثرة الاستعمال مفسدة وقلتها مصلحة فسد التشبيه لأن الوجه عندئذ يكون محققًا في المشبه به ولا يتأتى تحقيقه في المشبه إذ النحو لا يحتمل القلة والكثرة؛ فالمراد رعاية قواعده واستعمال أحكامه من رفع الفاعل ونصب المفعول وجر المجرور؛ فإن تحققت هذه الأحكام صلح الكلام وإلا فسد، أما استعمال الملح في الطعام فكثيره مفسد وقليله مصلح، ولذا كان الوجه الجامع الموجود في كلا الطرفين أن الاستعمال مصلح والإهمال مفسد بغض النظر عن القلة والكثرة وبناء على ذلك عيب التشبيه في قول ابن شرف:

غـيري جَنَـى وأنـا الـمُعَاقَبُ فـيكُمُ   فكـأنَّني سـبَّابَةُ الـمُتَنَدِّمِ

لأن وجه الشبه وهو معاقبة البريء وترك الجاني محقق في المشبه دون المشبه به؛ إذ السبابة جزء من المتندم يعض عليها عند ندمه فتقع العقوبة عليه؛ لأن سبابته جزء

---

(١) الانتضاء: الانكشاف، نجاء: خلاص، البأساء: الشدة.

منه وعندئذ لا يكون المعاقب غير الجاني، والصواب في مثل هذا التشبيه قول النابغة يعتذر للنعمان بن المنذر:

حَلَفتُ فلمْ أتْرُكْ لنفسِكَ ريبةً ... وهل يَأْتَمَنْ ذُو إمَّةٍ وَهُوَ طائعُ

لكلَّفتَنِي ذنبَ امرئٍ وتَرَكْتَهُ ... كذي الْعُرِّ يُكْوَى غيرُهُ وهو راتعُ(١)

فقد شبه نفسه وقد أخذه النعمان بذنب لم يفعله وترك معاقبة الجاني بحال البعير الأجرب إذا أريد شفاؤه يقوم صاحبه بكي بعير سليم خالٍ من الجرب كي يشفى البعير المصاب الأجرب وذلك بناء على قاعدة سائدة بين العرب في الجاهلية.

فوجه الشبه وهو معاقبة البريء وترك الجاني موجود في كل من المشبه والمشبه به على وجه التحقيق ولذا كان تعبير النابغة جيدًا وتشبيهه صوابًا محققًا، وكان تعبير ابن شرف القيرواني رديئًا وتشبيهًا معيبًا فاسدًا.

***

أحوال وجه الشبه

أحوال وجه الشبه التي تعرض له أو صفاته التي يتصف بها والتي هي محط أنظار البلاغيين تنحصر فيما يلي:

١- ما يتصف به وجه الشبه من حسية أو عقلية فالحسية كالنعومة في تشبيه الجسم بالحرير والإشراق في تشبيه الوجه بالبدر والرائحة في تشبيه الرائحة الطيبة بالمسك أو بالعنبر إلى غير ذلك من الصفات الحسية التي يدركها المرء بحاسة من الحواس الخمس الظاهرة، والعقلية كالشجاعة في تشبيه الرجل بالأسد والكرم في تشبيه رجل بحاتم والذكاء في تشبيه الذكي بإياس والحلم في تشبيه الرجل الحليم بأحنف وعدم القدرة على الحركة في تشبيه المرض الشديد بالموت إلى غير ذلك من الصفات المدركة بالعقل أو الوجدان.

٢- ما يتصف به وجه الشبه من إفراد أو تركيب أو تعدد. فالوجه المفرد

---

(١) الريبة: الشك، والإمة: الدين أو النعمة أسديت إليه، والعر: الجرب، وراتع: اسم فاعل من رتع بالمكان إذا أقام فيه وأكل وشرب.

يكون شيئًا واحدًا لا تركيب فيه ولا تعدد كالحمرة في تشبيه الخد بالورد والجرأة في تشبيه الرجل الجريء بالأسد، والوجه المركب ما تألف من عدة أمور امتزجت واتحدت وكونت هيئة واحدة، وذلك كالهيئة المكونة من سقوط أجرام بيض مستطيلة في جوانب شيء مظلم إذا شبهنا السيوف تتحرك وسط الغبار في المعركة بليل تهاوى كواكبه فهذا الوجه مركب حسي، وكالهيئة العقلية المكونة من حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمل التعب في استصحابه كما في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾(١).

والوجه المتعدد: ما كان مكونًا من شيئين أو عدة أشياء كل واحد منها مستقل بنفسه صالح لأن يكون وجه شبه على حدة، كالسعة والامتداد والطول والعذوبة في تشبيه نهر بآخر، وكقوة الإيمان ومحبة الرسول ﷺ والتفاني في نصرته إذا شبهنا المهاجرين بالأنصار.

ويلاحظ في الوجه المفرد والمركب والمتعدد أنه قد يكون حسيًّا، وقد يكون عقليًّا كما هو واضح في الأمثلة.

٣- ما يكون عليه وجه الشبه من ذكر كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ..﴾(٢)، فوجه الشبه وهو القسوة في تشبيه القلوب بالحجارة مذكور في النظم الكريم، ومن ذلك قولنا: وجهه كالبدر ضياء... أو حذف كقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾(٣)، فوجه الشبه وهو الإحاطة والاشتمال أو الصيانة والستر محذوف في النظم الكريم، ومن ذلك قولنا: هذا الرجل كالأسد، فالوجه محذوف تقديره: شجاعة.

٤- ما يكون عليه وجه الشبه من ظهور ووضوح أو دقة تحوج إلى التأمل والتفكير فمن الأول: تشبيه الوجه بالبدر في الإشراق والشعر بالليل في السواد والخد بالورد في الحمرة والرجل بالأسد في الجرأة وغير ذلك من التشبيهات

---

(١) سورة الجمعة الآية: ٥.

(٢) سورة البقرة الآية: ٧٤.

(٣) سورة البقرة الآية: ١٨٧.

القريبة الواضحة، ومن الثاني تشبيه المرآة في كف الأشل بالشمس في الاستدارة والإشراق والحركة المضطربة وتشبيه البرق بمصحف القارئ في حركتي الانفتاح والانطباق حيث ينشأ عن الأولى ظهور وبروز وعن الثانية اختفاء وزوال إلى غير ذلك من التشبيهات التي يكون الوجه فيها دقيقًا بعيدًا يحتاج في الوقوف عليه وتجليته إلى كثير من التفكير والتأمل.

وقد نظر البلاغيون إلى هذه الصفات التي يتصف بها وجه الشبه والحال التي يوجد عليها وقسموا التشبيه بالنظر إلى كل حال منها إلى أقسام سنقف عليها إن شاء الله فيما يلي وسنقرن كل قسم من تلك الأقسام بالشواهد المحللة الموضحة وذلك حتى تتضح القاعدة من خلال الشاهد والله المستعان.

☆☆☆

أقسام وجه الشبه

ينقسم وجه الشبه باعتبار حسيته وعقليته وإفراده وتركيبه وتعدده إلى سبعة أقسام:

أولها: أن يكون وجه الشبه واحدًا حسيًا كقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ۝٢٤﴾[1]، شبهت السفن الجارية في البحر بالجبال ووجه الشبه: الضخامة... فوجه الشبه واحد حسي، وكذلك طرفا التشبيه حسيان مفردان.

ومن ذلك الحمرة في تشبيه الخد بالورد، والإشراق في تشبيه الوجه بالبدر ولين الملمس في تشبيه البشرة بالحرير ولذة الطعم في تشبيه الريق بالخمرة وطيب الرائحة في تشبيه النكهة بالعنبر... فوجه الشبه في هذه الأمثلة -كما نرى- مفرد حسي... وكذلك طرفا التشبيه.

مما ينتزع وجه الشبه الواحد الحسي؟!

ووجه الشبه المفرد الحسي لا ينتزع إلا من طرفين مفردين. كما في الأمثلة المشار إليها، وذلك لأن تركيب الطرفين يستدعي تركيب وجه الشبه... فيتحتم أن يكون طرفاه مفردين، وكذلك الغالب[2] في هذا الوجه أن يكون طرفاه حسيين، كما في الأمثلة ولا ينتزع من طرف عقلي إلا بتأويل وتخييل كما في قوله ابن بابك:

وأرضٍ كأخلاقِ الْكِرَام قَطَعْتُها   وقد كَحَّلَ اللَّيْلُ السِّمَاك فأبصَرَا

فالمشبه في البيت مفرد حسي وهو الأرض... والمشبه به: مفرد عقلي وهو أخلاق الكرام. وقد جمع بينهما الشاعر في وجه شبه حسي وهو: السعة أو الامتداد والانبساط ولكن هذا الوجه موجود في المشبه الحسي على جهة التحقيق وموجود في المشبه به العقلي على طريق التخييل والتأويل كما مر بنا... وبهذا يتضح لك أن وجه

---

(١) سورة الرحمن الآية: ٢٤.

(٢) أوجب بعض البلاغيين انتزاع هذا الوجه من طرفين حسيين ضرورة امتناع أن يدرك بالحس من غير الحس شيء، انظر الإيضاح ج ٣ ص ٢٣، وقد أوضحنا أن هذا الإدراك عن طريق التخييل والتأويل.

الشبه المفرد الحسي ينتزع في الغالب من طرفين حسيين وقد ينتزع من طرف عقلي على جهة التأويل والتخييل، ويتحتم أن يكون انتزاعه من طرفين مفردين.

القسم الثاني: أن يكون وجه الشبه واحدًا عقليًا... وينتزع هذا الوجه من طرفين حسيين مفردين، كما في قول النبي ﷺ: «**أَصْحَابِي كالنُّجُومِ بأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ**»(١)، فقد انتزع وجه الشبه وهو مطلق الاهتداء من طرفين مفردين حسيين وهما الصحابة ﷺ والنجوم، ومن ذلك انتزاع الشجاعة من الرجل الشجاع والأسد في قولنا: هذا الرجل كالأسد. والوجه في المثالين، وهو: الاهتداء والشجاعة واحد عقلي، كما ينتزع من طرفين مفردين عقليين نحو قولنا: العلم كالحياة فوجه الشبه وهو جهة الإدراك مفرد عقلي، وقد انتزع من طرفين مفردين عقليين، وكذا قولنا: الجهل كالموت في فقدان الإدراك؛ ففقدان الإدراك مفرد عقلي وقد انتزع من مفردين عقليين، وينتزع هذا الوجه أيضًا من طرفين مفردين مختلفين كانتزاع الاغتيال من المنية والسبع عند تشبيهنا المنية بالأسد؛ فالمشبه وهو المنية عقلي والمشبه به وهو الأسد حسي، وقد انتزع منهما وجه الشبه المفرد العقلي وهو الاغتيال، وكذا تشبيه العدل بالقسطاس في تحصيل ما بين الزيادة والنقصان، فالمشبه مفرد عقلي "العدل" والمشبه به مفرد حسي "القسطاس" وقد انتزع منهما وجه الشبه المذكور وهو واحد عقلي... وكانتزاع استطابة النفس من تشبيه العطر بالثناء وبالخلق الكريم في قول الصاحب:

أهـــدَيْتُ عِطْـرًا مِثْـلَ طيـبِ ثَنائِـهِ ... فكـأَنَّما أُهـدِي لَـهُ أخلاقَـهْ

فالمشبه مفرد حسي وهو العطر والمشبه به مفرد عقلي وهو الثناء بالأخلاق الكريمة، وقد انتزع منهما الوجه المفرد العقلي وهو استطابة النفس... وبهذا يتبين لنا أن التشبيه بالوجه المفرد العقلي لا ينتزع إلا من الأطراف المفردة للسبب المذكور في الوجه الواحد الحسي، وهو لا ينتزع من الأطراف الحسية وحدها، ولا من الأطراف العقلية وحدها بل يعمها جميعًا، ولذا يقال إن التشبيه بالوجه العقلي أعم من التشبيه بالوجه الحسي؛ لأن الوجه الحسي -كما بينا- ينتزع من الأطراف الحسية غالبًا ولا

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٢٦٠٠) ولفظه: «إِنَّ مَثَلَ العُلَمَاءِ فِي الأَرْضِ كَمَثَلِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ يُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فَإِذَا انْطَمَسَتِ النُّجُومُ أَوْشَكَ أَنْ تَضِلَّ الهُدَاةُ».

ينتزع من الطرف العقلي إلا بتخييل وتأويل.

القسم الثالث: أن يكون وجه الشبه مركبًا حسيًا، والغالب في هذا الوجه أن ينتزع من طرفين حسيين، ولا يمكن انتزاعه من الأطراف العقلية إلا بتخييل وتأويل -كما مر في وجه الشبه الواحد الحسي- ومن ذلك قول التنوخي:

وكـــأنَّ النجـــومَ بـــين دُجَاهَـــا   سُـــنَنٌ لاحَ بيـــنهنَّ ابتـــداعُ

فوجه الشبه وهو الهيئة الحاصلة من وجود أشياء مشرقة مضيئة في جوانب شيء مظلم، مركب حسي، وقد وجد في المشبه على وجه التحقيق وفي المشبه به عن طريق التخييل والتأويل... ويتأتى انتزاع هذا الوجه من طرفين مفردين كما في قول ذي الرمة:

وَسَقْطٍ كعين الـدِّيكِ عَاوَرْتُ صاحبي   أباهَـا وهَيَّأْنَـا لـموقِعِهَا وَكْـرَا(١)

فوجه الشبه وهو الهيئة المؤلفة من اجتماع الحمرة والشكل الكروي وصغر الحجم مركب حسي وقد انتزع من طرفين مفردين هما: "السقط" وهو ذاك الشرر المنبعث من الزند، و"عين الديك"، ولا تنافي بين إفراد الطرفين وَتَركيب وجه الشبه لأننا نستطيع أن نلاحظ في الطرفين المفردين عدة أوصاف مشتركة بينهما ومجتمعة على هيئة معينة بحيث تحقق وجه الشبه المركب.

ومن ذلك قول أبي قيس بن الأسلت:

وقدْ لاحَ في الصبح الثريَّا -كما ترى-   كَعُنْقُـودِ مُلاَّحيَّـةٍ حـين نَـوَّرَا(٢)

فوجه الشبه وهو الهيئة الحاصلة من تجمع أجسام بيض مستديرة صغيرة الحجم -في مرأى العين وإن كانت كبيرة في الواقع- مجتمعة على كيفية مخصوصة وهي أنها ليست تامة الالتصاق ولا تامة الافتراق هذا الوجه مركب حسي وقد

---

(١) السقط: النار الساقطة من الزند وهي تنزل منه ووسطها أسود وحافتها حمراء كعين الديك، وعاورت: ناوبت وكان من عادتهم عند استخراج النار أن يأتوا بعودين يوضع أحدهما أسفل ويسمى أنثى فيفرض فيه فرضًا ويجر فيه عود آخر يسمى أبًا فإذا طال الزمن ولم تخرج النار تناوبوه حتى تخرج... والوكر: ما تودع فيه النار بعد خروجها.

(٢) الملاحية: عنب أبيض في حبه طول.. ونور أي: تفتح نوره وأدرك نضجه والكاف في قوله: "كما ترى" بمعنى على أي: على نحو ما ترى أما كاف التشبيه فهي التي في قوله: كعنقود ملاحية...

انتزع من طرفين مفردين مقيدين وهما: نجم الثريا مقيدًا بكونه قد لاح في الصباح وعنقود العنب مقيدًا بكونه عنقود ملاحية في حال إخراج النور والتقيد لا ينافي الإفراد كما مر بنا.

ومن طرفين مركبين كما في قول بشار:

كأنَّ مُثارَ النقعِ فوقَ رءوسِنَا وأسْيَافَنا ليلٌ تهَاوَى كواكِبُهُ

فوجه الشبه وهو الهيئة الحاصلة من تهاوي أجرام مشرقة مستطيلة متناسبة المقدار متحركة في جوانب شيء مظلم مركب حسي وقد انتزع من طرفين مركبين حسيين... ومنه قول أبي طالب.

وكأنَّ أجرامَ النُّجُوم لوامِعًا دُرَرٌ نُثِرْنَ على بساطٍ أزرقِ

فوجه الشبه وهو الهيئة الحاصلة من تفرق أجسام متلألئة صغيرة المقدار مستديرة الشكل على سطح جسم أزرق اللون صافي الزرقة، مركب حسي وقد انتزع من طرفين مركبين حسيين.

ومن طرفين مختلفين في الإفراد والتركيب كتشبيه محمر الشقيق بأعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد... فوجه الشبه وهو الهيئة الحاصلة من اجتماع أشياء حمراء متحركة منصوبة على قائم أخضر، مركب حسي وقد انتزع من طرفين مختلفين المشبه مفرد وهو محمر الشقيق والمشبه به من المركبات الخيالية وهو الهيئة المكونة من أعلام ياقوت نشرت على رماح من زبرجد... ومنه تشبيه النيلوفر بدبابيس عسجد قطبها من زبرجد فالوجه وهو الهيئة الحاصلة من اجتماع شيء أحمر كروي منصوب على قائم أخضر، مركب حسي، وقد انتزع من مشبه مفرد ومشبه به مركب خيالي.

ومن ذلك تشبيه ضوء النهارِ المشمس خالط نبات الأرض فقلت حدة ضوئه، بالليل المقمر، فوجه الشبه وهو الهيئة الحاصلة من اجتماع أشعة ضوئية منيرة اختلطت بأجسام خضراء وحمراء فانكسرت حدة ضوئها... مركب حسي انتزع من مشبه مركب ومشبه به مفرد مقيد... وقد مرت بنا هذه التشبيهات.

***

بديع المركب الحسي

تتفاوت التشبيهات التي يكون وجه الشبه فيها مركبًا حسيًا، في الحسن فبعضها يكون حسنًا وبعضها أحسن وبعضها يبلغ حدًا كبيرًا في الحسن والجمال... ويرجع هذا التفاوت إلى مقدرة الأديب ونظرته الثاقبة في الهيئات والحركات التي يتكون منها وجه الشبه وإلى مقدار ما يبذله من جهد فكري في استقصاء صفات الطرفين واستخلاص ما يلائم منها لعقد المشابهة ومراعاة الملاءمة التامة بين اللون واللون والشكل والشكل والحجم والحجم والحركة والحركة... فمن يستطع أن يبرز في وجه الشبه صفات عدة تجمع بين اللون والشكل والمقدار والحجم أو يضيف إلى الشكل واللون حركة معينة أو ينوع في الحركة تنويعًا يضفي عليها جمالاً وروعة... من يستطع أن يصنع ذلك من الأدباء يكون تشبيهه أبدع وأحسن ونظرته أقوى وأثقب من الآخر الذي لا يستطيع أن يلمح من صفات الطرفين إلا اللون والشكل ولا يقدر على أن ينوع ويبدع ويبرز ما في الطرفين من هيئات وحركات متعددة ومتلائمة.

وسنعرض فيما يلي نماذج متعددة لما أبدع فيه الشعراء من هذه التشبيهات.

أولاً: ما كان وجه الشبه فيه مكونًا من هيئة الحركة الموجودة في الطرفين منضمًا إليها بعض الصفات الأخرى المشتركة بينهما كاللون والشكل والمقدار.

فمن ذلك قول ابن المعتز:

والـشَّمْسُ كالـمرآةِ في كـفِّ الأشـلْ ‏ ‏ ‏ لـــما بـــدَتْ طَالِعَـــةً فَـــوْقَ الْـــجَبَلْ

جمع الشاعر في وجه الشبه بين الحركة السريعة وما ينشأ عنها من تموج الضوء واضطرابه وبين الإشراق والاستدارة وذلك أنه نظر إلى الشمس عند طلوعها وإلى المرآة في يد الأشل؛ فرأى فيها إشراقًا واستدارة وحركة سريعة متصلة تتراءى لعين الناظر إلى كل منهما، وهذه الحركة قد أحدثت تموجًا في الضوء واضطرابًا فبينما تراه منبسطًا على سطح كل منهما ويكاد يفيض من جوانبهما إذا به ينقبض ويتجمع في وسطهما... فالشاعر قد استطاع أن يلائم ملاءمة تامة بين ما في الطرفين من لون وشكل وحركة مضطربة متموجة وأن يركب من ذلك وجه الشبه فهو الهيئة

الحاصلة من الإشراق والاستدارة والحركة السريعة وما ينشأ عنها من تموج الضوء واضطرابه، ولو اقتصرنا في بناء وجه الشبه على الإشراق والاستدارة وقدرنا تجرده من هذه الحركة ما بلغ من الدقة والحسن هذا المبلغ.

ومن ذلك قول المهلبي الوزير يصف الشمس أيضًا عند طلوعها:

والشمسُ من مشرِقِها قد بدَتْ   مشرقةً ليس لها حاجبُ
كأنَها بُوتَقَةٌ أُحْمِيَتْ   يجُولُ فيها ذهبٌ ذَائِبُ(١)

فقد جمع الشاعر أيضًا في وجه الشبه بين اللون والاستدارة والحركة وما تحدثه في اللون من تموج واضطراب فإن البوتقة إذا أحميت وذاب فيها الذهب تشكل بشكلها في الاستدارة وأخذ يتحرك فيها بجملته تلك الحركة العجيبة كأنه يهم بأن ينبسط حتى يفيض من جوانبها لما في خواصه من النعومة، ثم يعود فيهبط إلى داخل البوتقة لما بين أجزائه من شدة التلاحم والاتصال فهو لا يقع فيه غليان على الصفة التي تكون في الماء ونحوه مما يتخلله الهواء ولذلك يتجمع لمعان الذهب في مركز دائرته، كما تجمع الضوء في مركز المرآة المستديرة في تشبيه ابن المعتز.. ولولا مراعاة هذه الحركة في تركيب وجه الشبه لما بدا التشبيه بهذه الصورة الرائعة...

وقول الصنوبري يصف غديرًا في حديقة:

كأنَّ في غُدْرَانها   حواجبًا ظلَّتْ تمُطُّ(٢)

فقد جمع في وجه الشبه بين الحركة المتصلة وَالشكل المتقوس الذي تحوله تلك الحركة إلى حالة قريبة من الاستواء وذلك أنه نظر إلى ماء الغدير وقد حركته الريح فأحدثت فيه أشكالاً تبدو كأنصاف الدوائر ثم تتباعد أطرافها ويقل انحناؤها حتى تقارب الاستواء، والتمس الشاعر لهذا شبهًا فوجده في حواجب العين إذا ما حركها أصحابها ومطوها شيئًا فشيئًا حتى ينمحي تقوسها ولذا أضاف إلى الحواجب ما يحقق هذه الحركة وهو قوله: ظلت تمط حتى يتم الشبه وبهذا الصنيع أخرج التشبيه

---

(١) البوتقة: وعاء صغير يذيب فيه الصائغ الذهب والفضة.

(٢) الغدران: الأنهار جمع غدير، وتمط، تمد.

عن دائرة الابتذال وأدخله في دائرة الغريب البديع وصار وجه الشبه مركبًا من الأشكال المتقوسة والحركة المتوالية فهو الهيئة الحاصلة من توالي أقواس متحركة بحركة متصلة تقلل من انحنائها حتى تقترب من الاستواء. فلولا مراعاة هذه الحركة في بناء وجه الشبه لكان التشبيه قريبًا مبتذلاً ولما بدا بتلك الروعة وبهذه الصورة البديعة.

ثانيًا: ما كان وجه الشبه مكونًا فيه من هيئة الحركات الموجودة في الطرفين دون نظر إلى ما عداها من سائر الصفات، من ذلك قول ابن المعتز في وصف البرق:

وكـــأنَّ الـــبرقَ مُـــصْحَفُ قـــارٍ فَانْطِبَاقًـــا مَـــرَّةً وانْفِتَاحَـــا(١)

فقد شبه حركة البرق عندما ينشق عنه السحاب فيظهر ثم يختفي بحركة المصحف يوالي صاحبه فتحه وإغلاقه... فوجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من توالي حركتين في اتجاهين مختلفين ينشأ عن إحداهما ظهور وانفتاح وعن الأخرى خفاء وانطباق... ولم يعتد الشاعر بما في الطرفين من صفات أخرى كلون البرق حين ينشق عنه السحاب ولون المصحف حين يفتحه القارئ لأن شيئًا من ذلك لا يتعلق به غرضه الذي هو وصف البرق بتتابع الحركة وتواليها دون قصد إلى ما يصاحب هذه الحركة من بريق ولمعان...

وقول الأعشى يصف السفينة في البحر تتقاذفها الأمواج:

تَقِـــصُ الـــسَّفِينُ بِجَانِبَيْـــهِ كَـــمَا يَنْـــزُو الرُّيـــاحُ خَـــلاَ لَـــهُ كَـــرَعُ(٢)

شبه حركة السفينة في البحر والموج يعلو بها ويسفل ويميلها من جانب إلى جانب في حركة سريعة مضطربة بحيث لا تكاد تلمحها صاعدة حتى تراها نازلة ولا تراها في اتجاه حتى تراها في اتجاه غيره، بحركة الفصيل استهواه الماء المتجمع من بقايا المطر فأخذ يثب فيه وينزو محدثًا حركات متفاوتة مضطربة وإلى جهات مختلفة على غير نظام ولا ترتيب، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من تجمع حركات سريعة

---

(١) قار: مخفف قارئ قلبت همزته ياء ثم أعل إعلال قاض.

(٢) تقص: تثب، والسفين اسم جنس واحده سفينة، والكرع: ماء السماء، والرياح: الفصيل.

مضطربة وإلى جهات مختلفة على غير نظام، ولم ينظر الأعشى في تشبيهه إلى شيء من صفات الطرفين سوى هذه الحركات.

وقول أحمد بن سليمان بن وهب يصف روضة:

حُفَّتْ بِسَرْوٍ كالقِيَانِ تَلَحَّفَتْ خُضْرَ الْحريرِ على قَوَام مُعْتَدِلْ

فكأنَهَا والرِّيحُ جاءَ يُمِيلُهَا تَبْغِي التعانُقَ ثُمَّ يَمْنَعُهَا الْخَجَلْ (١)

شبه في البيت الأول شجر السرو في اعتداله وطول قامته وخضرة أوراقه بالجواري الحسان ذوات القوام المعتدل وقد تلحفن بالحرير الأخضر ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من وجود أجسام منتصبة معتدلة القامة تحيط بها أشياء ذات لون أخضر وهذا خارج عما نحن فيه لأن الهيئة المركبة خالية من الحركة.

أما في البيت الثاني فقد شبه حركة شجر السرو والريح يميل فروعها بعضها إلى بعض ثم ترتد إلى أصل وضعها.. بحركة عاشقين تقدما في حذر يبغيان المعانقة ثم يفاجآن بأعين الرقباء فيرتدان إلى حيث كانا في سرعة الخائفين المنزعجين. ووجه الشبه هو الهيئة لحاصلة من تحرك جسمين حركتين متغايرتين إلى جهتين مختلفتين تحدث إحداهما تقارب الجسمين وتحدث الأخرى سرعة افتراقهما. وهي هيئة منتزعة من الحركة مجردة عن كل وصف آخر من صفات الطرفين، وقد لاحظ الشاعر أن الحركة الثانية في المشبه أسرع من الحركة الأولى؛ لأن حركة الشجرة المعتدلة في حال رجوعها أسرع لا محالة من حركتها في حال خروجها عن مكانها بتأثير الريح، فحقق ذلك في المشبه به بقوله: ثم يمنعها الخجل؛ لأن الحركة المسببة عن الخجل أسرع من الأخرى إذ إزعاج الخوف أقوى أبدًا من إزعاج الرجاء، ومما يلاحظ أيضًا أن الشاعر لم يصرح بالمشبه به فلم يقل كأن شجر السرو عاشق يبغي التعانق بل طواه في نظم الكلام حتى خيل إلينا أن الشجر نفسه هو الذي أراد أن يتعانق ثم رده الخجل. وهذا كله مما زاد التشبيه حسنًا وإبداعًا وأضفى عليه رونقًا وبهاء.

---

(١) القيان: الجواري جمع قينة وهي الجارية وهن يشبهن بالسرو في اعتدال القد وقد يشبه السرور بهن في ذلك فيكون من التشبيه المقلوب وتلحفت: اتخذت لحافًا، والخجل: الحياء.

وقول امرئ القيس يصف جواده:

مكـــرٍّ مِفَـــرٍّ مُقبِـــلٍ مُـــدْبِرٍ مَعًـــا   كَجُلمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ (١)

شبه الجواد في حركته السريعة ولين قياده وسرعة انحرافه حيث يُرى في لحظة واحدة يكر ويفر ويقبل ويدبر فبينما نرى كفله إذا بنا في نفس الوقت نرى صدره فجانبيه، شبهه في ذلك بجلمود الصخر دفع به السيل من أعلى الجبل فوقع الجلمود تحت تأثير قوتين قوة الجاذبية الأرضية وقوة دفع السيل له، ولهذا فهو يتحرك حركات سريعة متواصلة بحيث نرى جوانبه كلها بنظرة واحدة وفي آن واحد... ووجه الشبه هو حركة الشيء إلى جهات متعددة في سرعة فائقة تكاد ترينا جوانبه كلها في وقت واحد بنظرة واحدة.

ثالثًا: ما كان وجه الشبه فيه مأخوذًا من هيئة السكون الحاصلة في الطرفين أو مكونًا من اجتماع الألوان المجردة عن الحركة فيهما.

من ذلك قول المتنبي يصف إقعاء كلب الصيد:

يُقْعِـى جُلُـوسَ الْبَـدَوِيِّ الْمُـصْطَلِي   بـــأربعٍ مجْدولَـــةٍ لـــمْ تجْـــدَلِ (٢)

شبه هيئة الكلب في إقعاته بهيئة البدوي المستدفئ بالنار فإنه يجلس على إليتيه رافعًا ركبتيه مادًا يديه إلى المدفأة... ووجه الشبه هو الهيئة المركبة الحاصلة من وقوع الأعضاء المختلفة في مواقعها الخاصة... وهذا الوجه منتزع من عدة أوضاع في الطرفين ساكنة لا حركة فيها.

ومن ذلك تصوير الشعراء هيئة المصلوب ووقوع كل عضو من أعضائه في موقع خاص وقد خيم السكون عليها فامتدت هذه الهيئة وطالت بلا حركة تغير من صورتها، وقد اختلفت الصور التي أبرز الشعراء فيها هذه الهيئة... فمنها قول الأخيطل الأهوازي:

---

(١) المكر: سريع الكرّ، والمفر: سريع الفر والجلمود: الحجر الصلد، ومن عل: من فوق.

(٢) يقعى: يجلس على إليتيه ورجليه ناصبًا ذراعيه، والمصطلي: المستدفئ، المجدولة: المحكمة الخلق، ولم تجدل: لم تجمع فهي مفرقة في أوضاعها الخاصة ومواقعها المبينة.

كأنَّــهُ عاشــقٌ قــدْ مــدَّ صــفحتَهُ يــومَ الــوداعِ إلى توديــعِ مُرْتحِــلِ
أو قــائمٌ مــن نُعــاسٍ فيــهِ لوثَتُــهُ مُواصِــلٌ لتمَطِّيــه مــن الكَســلِ (١)

شبه المصلوب في البيت الأول وهو قائم في الجذع وقد مالت عنقه إلى جانب كتفه وفي وجهه صفرة الموت بعاشق تجمدت حواسه في موقف الوداع وقد مالت عنقه وفي وجهه صفرة العشق... ووجه الشبه هو هيئة السكون الحاصلة من القامة المنتصبة، والأذرع الممتدة والأعناق المائلة والوجوه المصفرة وقد طالت هذه الهيئة بلا حركة تغير من أوضاعها... وفي البيت الثاني شبهه بقائم من نعاس لم ينشط بعد من لوثة النوم واسترخاء العضلات فأخذ يتمطى مادًا ذراعيه إلى جانبيه وعنقه إلى جهة صدره، وقد واصل تمطيه من شدة كسله فاستمرت هذه الهيئة، فوجه الشبه هو هيئة السكون الحاصلة من القامة المنتصبة والأعناق المائلة والأذرع الممتدة مدًا متواصلاً.

ومنها قول دعبل الخزاعي:

لــمْ أرَ صــفًّا مثــلَ صــفِّ الــزُّطِّ تــسعين مِــنْهُمْ صُــلِبُوا في خَــطِّ
مــن كــلِّ عــالٍ جذعُــهُ بالــشطِّ كأنَّــــهُ في جذعــــهِ الْمُــــشْتَطِّ
أخُــو نُعَــاسٍ جــدَّ في التمطِّــي قــدْ خــامَرَ النَّــوْمَ ولَمْ يَغِــطِّ (٢)

فقد شبه هيئة المصلوب بهيئة المتمطي حين خامره النوم ثم بالغ في تمطيه فوصفه بالجد ليدل على طول بقائه على هذه الهيئة الساكنة.

ومنها قول ابن الرومي:

كــأنَّ لــهُ في الــجوِّ حَــبْلاً يَبُوعُــهُ إذا مَــا انْقَــضَى حَبْــلٌ أُتــيحَ لــه حَبْــلُ (٣)

شبه المصلوب بصورة من يقيس الحبال بذراعه فهو يمدهما إلى جانبي كتفيه ما

---

(١) الصفحة: باطن الكف، واللوثة: استرخاء العضلات، والنعاس النوم.

(٢) الزط: طائفة من الهند خرجوا على المعتصم ويعرفون بالنور أو بالغجر فشردهم المعتصم وصلب منهم هذا العدد في خط مؤلف من أشجار عالية الجذوع، والمشتط: الخارج في طوله عن الحد، وخامر: خالطه النوم، ولم يغط: لم ينخر ويتردد نفسه صاعدًا إلى حلقه حتى يسمعه من حوله.

(٣) يبوعه: يقيسه بالباع. وأتيح: هيئ له.

دام يبوع أي: يقيس بالباع وقد حقق الشاعر في المشبه به هيئة السكون الدائم التي رآها في المشبه، وذلك بقوله: إذا ما انقضى حبل أتيح له حبل، فالذي يبوع لا يحرك يديه ليمرر الحبل بينهما بل الحبل يتاح ويمر بين يديه؛ فاليدان في حالة مد دائم بلا حركة... ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من القامة المنتصبة والأذرع الممتدة مدًا متواصلاً.

موازنة بين هذه التشبيهات:

بتأمل هذه التشبيهات نجد اختلافًا دقيقًا بين إبراز كل صورة منها لهيئة المصلوب وأعضائه الساكنة سكونًا متواصلاً. فالأخيطل في بيته الأول قد حقق الصفرة التي رآها في وجه المصلوب، وهي صفرة الموت بأن جعله كالعاشق الذي اصفر وجهه من أثر العشق وحقق أيضًا دوام السكون بأن جعل مدَّ الصفحة في يوم وداع ورحيل فهو قد سكن وتحجر في مكانه لرحيل عشيقه عنه، ولكن فاته إتمام أعضاء الهيئة؛ فالمصلوب مدت يداه والعاشق قد مد يدًا واحدة... وفي بيته الثاني حقق هيئة المصلوب في القائم من النعاس، بأن جعله متمطيًا مادا ذراعيه ثم حقق دوام السكون بجعله التمطي متواصلاً وبذكر سبب المواصلة وهو اللوثة والكسل، ولكن فاته تحقيق صفرة الموت الموجودة في المصلوب.

ودعبل في تشبيهه قد حقق هيئة المصلوب في هيئة الداخل في النوم المشرف عليه بأن جعله متمطيًا، ولكنه أخطأ في تحقيق دوام السكون لأعضاء المتمطي إذا لم يجعله مواصلاً لتمطيه بل جعله مبالغًا فيه "جد في التمطي" والمبالغة في فعل الشيء لا تقتضي استدامته؛ لأن الذي يبالغ في الفعل لا يستطيع مواصلته، ثم لم يذكر سبب جده في التمطي كما ذكر الأخيطل سبب مواصلته وقد فات دعبل ما فات الأخيطل من تحقيق صفرة الموت الموجودة في المصلوب في هيئة المشبه به.

وابن الرومي في تشبيهه قد حقق هيئة المصلوب في هيئة من يبوع الحبال وحقق أيضًا دوام سكون الأعضاء واستقرارها على هيئتها بقوله: إذا ما انقضى حبل أتيح له حبل؛ وذكر كذلك السبب في إطالة مد الذراعين وهو بوع الحبال الكثيرة فهي حبال في الجو كثيرة، وكلما انقضى حبل أتيح له آخر... ولكن فاته ما فات الأخيطل في بيته الثاني وما فات دعبل من تحقيق صفرة الموت في الوجوه والموجودة

في وجه المصلوب؛ فلم يحققها في المشبه به وفاته شيء آخر وهو إتمام أعضاء الهيئة فقد مد الذراعين ولكنه لم يمل العنق، وقد تحققت هذه الإمالة في العاشق الذي مد صفحته وفي المتمطي الذي واصل تمطيه والذي جد فيه... فالعاشق مالت عنقه إلى جانب كتفه والمتمطي قد مد عنقه إلى جهة صدره... ولا نرى هذه الإمالة في من يبوع الحبال(١).

***

ومن التشبيهات التي جاء وجه الشبه فيها مكونًا من اختلاط الألوان المجردة من الحركة قول ابن المعتزل يصف زهر النرجس:

كأنَّ عيونَ النَّرْجِسِ الغضِّ حولَنَا ... مَدَاهِنُ دُرٍّ حشوُهُنَّ عَقِيقُ(٢)

فقد شبه زهر النرجس بمداهن در حشوهن عقيق ووجه الشبه: الهيئة المكونة من بياض قد التف حول سواد أو حمرة.

وقوله يصف الثريا وسط الظلام:

وَأَرَى الثُّرَيَّا في السماءِ كأنَّهَا ... قدمٌ تبدَّتْ من ثيابِ حدادِ(٣)

شبه الثريا في السماء وسط ظلام الليل بقدم بدت من ثياب سوداء ووجه الشبه: الهيئة المكونة من بياض ظهر في صورة خاصة –صورة القدم– في وسط سواد...

وقول أبي طالب الرقي:

وكأنَّ أجْرامَ النُّجُومِ لوامعًا ... دُرَرٌ نُثِرْنَ على بساطٍ أزرقِ

فوجه الشبه في البيت هو الهيئة المكونة من أجرام بيضاء مضيئة صغيرة نثرت على صفحة شيء أزرق صافي الزرقة.

---

(١) وقيل: إن أخا النعاس الذي قد خامر النوم والقائم من النعاس يرى في وجهيهما الصفرة صفرة التعب والإرهاق والتكاسل، فتكون هذه الصفة محققة في التشبيهين.

(٢) النرجس: نوع من الزهر أبيض اللون وفي وسطه نكتة يخالف لونها لون بقية الزهرة وتكون غالبًا سوداء ويشبه النرجس بالعيون كما في البيت وتشبه العيون أيضًا بالنرجس لذلك. والمدهن علبة يوضع بها الدهن. العقيق: أحمر اللون.

(٣) ثياب الحداد: ثياب تلبسها المرأة حزنًا على زوجها وتكون غالبًا سوداء.

وقد يحرك الشاعر أحد اللونين كقول بشار:

كــأنَّ مُثـــارَ النَّقــعِ فــوقَ رُءُوسِـــنَا وأَسْـــيَافَنا ليــلٌ تهــاوىَ كواكِبُـــهُ

وقول البحتري يصف فرسًا:

تَـــرى أحجالَـــهُ يَـــصْعَدْنَ فيـــهِ صُـــعُودَ الْـــبَرْقِ في الغَـــيْمِ الجهَـــامِ

والتشبيه في هذه الأبيات قد أوضحناه فيما سبق.

القسم الرابع: أن يكون وجه الشبه مركبًا عقليًا كقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾(١)، شبهت حال اليهود الذين حملوا التوراة وحفظوها في صدورهم ثم لم يعملوا بما فيها، ولم يفهموا حقيقة مرماها بحال الحمار يحمل كتب العلم النافعة ويتعب في حملها وهو جاهل بحقيقة ما فيها.

ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمل التعب في استصحابه... وهو مركب عقلي انتزع من عدة أمور روعيت في الطرفين فقد روعي... حمل أشياء... وهذه الأشياء ينتفع بها أكمل نفع... والحامل لها يتحمل التعب والمشقة في استصحابها ولا يجني من وراء تعبه فائدة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾(٢)، شبهت حال الكفرة في جمعهم بين الكفر وأعمال البر التي يعملونها في الدنيا ويحسبونها نافعة ومقبولة عند الله ثم يرونها خاسرة محبطة يوم القيامة؛ لأنها لم تقترن بالإيمان الذي هو شرط قبولها... بحال الظمآن يرى السراب من بعيد فيحسبه ماء سيروي ظمأه فإذا بلغه لم يجد شيئًا... ووجه الشبه هو الهيئة العقلية الحاصلة من المنظر المطمع مع المخبر المؤيس... وقد انتزع هذا الوجه من عدة أمور روعيت في طرفي التشبيه وهي: حال الكافرين وقد عملوا أعمال بر لم تقترن بالإيمان فلم تنفعهم في الآخرة لفقدان شرط

---

(١) سورة الجمعة الآية: ٥.

(٢) سورة النور الآية: ٣٩.

قبولها ولذا فهم يؤخذون بأشد العذاب... وحال الظمآن مع السراب الذي ظهر له فحسبه ماء نافعًا فجد في الوصول إليه والحصول عليه ثم خاب أمله عندما وصله وأدرك أنه خيال واشتد ألمه وعذابه حيث بقي على حال ظمئه التي كان عليها... ومنه قول ابن المعتز:

اصبرْ على مضض الحسو دِ فإنَّ صبرَكَ قاتلُهُ
فالنارُ تأكلُ بعضَهَا إنْ لمْ تجدْ ما تأكلُهُ

فقد شبه حال الحاسد يهمله المحسود بالإعراض عنه حتى يموت غيظًا بحال النار لا تمد بالحطب الذي يديم بقاءها فيأكل بعضها بعضًا حتى تصير رمادًا... ووجه الشبه هو الهيئة العقلية الحاصلة من سرعة الفناء لعدم الإمداد بما يسبب البقاء والحياة... وقول أبي تمام:

وإذا أرادَ اللهُ نشرَ فضيلةٍ طُوِيَتْ أتاحَ لها لسانَ حَسُودِ
لولا اشتعالُ النَّارِ فيما جاورتْ ما كان يُعْرَفُ طيبُ عَرْف العودِ (١)

شبه حال الفضيلة يتعرض لها الحاسد ليسترها ويغض من قيمتها ويؤذي صاحبها فيكون ذلك سببًا في ظهورها وشيوع أمرها بحال العود مع النار فإنها تظهر طيب رائحته وتسبب انتشارها فيعم النفع بها، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من ظهور فضل الشيء باتصاله بآخر شديد الضرر له.

القسم الخامس: أن يكون وجه الشبه متعددًا حسيًا كتشبيه نهر دجلة بنهر النيل في طوله واتساعه وعذوبة مائه، وكتشبيه فاكهة بأخرى في اللون والطعم والرائحة.

السادس: أن يكون وجه الشبه متعددًا عقليًا كتشبيه الأنصار بالمهاجرين في قوة إيمانهم بالله ومحبتهم للرسول ﷺ والتفاني في نصرة الحق، وكتشبيه الصقر بالغراب في حدة النظر وكمال الحذر وإخفاء السفاد (٢).

---

(١) العرف: الرائحة، والعود: ضرب من الطيب يتبخر به.

(٢) السفاد: نزو الذكر على الأنثى.

السابع: أن يكون وجه الشبه متعددًا مختلفًا بعضه حسي وبعضه عقلي كتشبيه الرجل بالشمس في إشراق الوجه ونباهة الشأن.

***

مقارنة بين وجه الشبه المركب ووجه الشبه المتعدد:

وجه الشبه المركب لابد أن ينتزع من عدة أمور معتبرة في كل من الطرفين بحيث إذا ترك بعضها لا يتم وجه الشبه بل ويضيع الغرض الذي يقصده المتكلم من التشبيه؛ لأنه يهدف إلى مزج هذه الأمور وخلطها واستخلاص هيئة تركيبية منها... أما الوجه المتعدد؛ فإن الأمور المعتبرة في الطرفين لا تمزج بل يظل كل أمر منها مستقلا بحيث يمكن الاستغناء عن بعض هذه الأمور دون أن يفسد التشبيه فقولنا: المهاجرون كالأنصار في قوة الإيمان ومحبة الرسول ﷺ والتفاني في نصرة الحق يمكن الاستغناء عن صفة أو صفتين من الصفات الثلاث ويظل التشبيه بين الطرفين صحيحًا في الصفة المتبقية... وبناء على هذا الفرق بين الوجهين لا يجوز لنا أن نعتبر وجه الشبه في قول كُثيرٍّ:

لقد أطمَعتْني بالوِصَالِ تَبَسُّمًا وبعدَ رجائي أعرضَتْ وتَولَّتِ
كما أبرقَتْ قَوْمًا عِطاشًا غَمَامةٌ فلمَّا رَأَوْهَا أقْشَعَتْ وتجلَّتِ[1]

هو ظهور بوادر الأمل في حصول شيء مرغوب فيه لمن هو شديد الحاجة إليه... على أن يكون المشبه حاله مع حبيبته وقد لاحت له مبتسمة فطمع في وصالها... والمشبه به: حال قوم عطاش شديدي الحاجة إلى الماء لاحت لهم غمامة مطمعة، لأننا بهذا الصنيع نكون قد فصلنا أجزاء التشبيه المركب وعقدنا المشابهة بين جزء في المشبه ونظيره في المشبه به بوجه شبه مستقل فيفوت بهذا الغرض الذي يرمي إليه الشاعر من التركيب إذ إن غرضه أن يصور حاله مع حبيبته، وقد بدت له مبتسمة فطمع في وصالها وتمكن رجاء الوصل في نفسه وعندئذ أعرضت عنه وتولت... بحال قوم عطاش لاحت لهم غمامة مطمعة ما برحت حين تمكن في أنفسهم رجاء أمطارها أن أقشعت وانجلت... وهو يعبر بهذا التصوير عن وقوع

(١) الغمامة: السحابة: أقشعت وتجلت: تفرقت وانكشفت. وأبرقت بمعنى تحسنت وتعرضت لهم.

اليأس في نفسه إثر تمكن الرجاء فيها ووجه الشبه بين الطرفين هو اتصال ابتداء مطمع بانتهاء مؤيس وهذا الوجه منتزع من الأمور المجتمعة في البيتين بحيث لا يمكن الاستغناء عن بعضها.

وخلاصة القول في هذا أن وجه الشبه المركب من عدة أمور لا يمكن تجريده من بعض هذه الأمور؛ لأنه مبني على اتحاد الأجزاء ومزجها وتلاحمها وأن وجه الشبه المتعدد يمكن الاستغناء عن بعضه؛ لأنه ليس مبنيًا على اتحاد الأمور المحققة له وتلاحمها... فإذا قلنا: فلان كالماء يصفو ويكدر، كان وجه الشبه متعددًا وهو الصفاء والكدارة لأن واو العطف تفيد مطلق الجمع ولهذا يجوز الاستغناء عن الكدر ويبقى تشبيهه بالماء في الصفاء سليمًا صحيحًا فيقال: هو كالماء يصفو، أما إذا قلنا: فلان كالماء يصفو ثم يكدر أو يصفو فيكدر كان التشبيه مركبًا؛ لأن الفاء وثم تفيدان معنى زائدًا على مجرد الجمع وهو الترتيب... وبهذا المعنى الزائد امتزج الصفاء والكدر والتحما وتحقق تركيب وجه الشبه... وكذا إذا اعتبرت الواو للمعية أو للحال وليست لمجرد العطف كان الوجه مركبًا ويمتنع عندئذ الاستغناء عند إحدى الصفتين.

كيف يكتسب وجه الشبه؟

وجه الشبه –كما علمنا– هو الصفة الجامعة بين الطرفين: المشبه والمشبه به. فإذا أراد المتكلم أن يعقد تشبيهًا بين أمرين كان عليه أن يحضر في ذهنه ويحدد الصفة التي استرعت انتباهه في شيء آخر يكون مشبهًا به... ويجب أن تكون هذه الصفة بارزة في المشبه به... ويتحتم على المتكلم أن يغض النظر عما في المشبه به من صفات أخرى غير هذه الصفة وعما بين الطرفين من تباين أو تباعد... فمثلا إذا استرعى انتباه المتكلم شجاعة رجل فطلب لها نظيرًا في الأسد وجب عليه أن يصرف نظره عما في الرجل والأسد من صفات أخرى غير الشجاعة، وأن يغض بصره عما بينهما من تباين في الجنس... وإذا أعجبه منظر السفينة يتلاعب بها الموج في حركات مختلفة فوجد شبهًا لها في حركات فصيل رأى كرعًا (١)... صرف نظره عما بينهما من

(١) الكرع: ماء المطر يتجمع في الأرض فيراه الفصيل وقد تجمع هنا وهناك وههنا فيصدر تلك الحركات المضطربة التي شبهت بها حركات سفينة تقاذفتها الأمواج.

تفاوت في الحجم واللون ومن تباين في الجنس... وإذا لفت نظره هيئة المصلوب فوجد نظيرًا لها في قائم من نعاس يتمطى... أعرض عما بينهما من اختلاف الحياة والموت... ولذا كان لزامًا على الناقد أن يقف على وجهة نظر الأديب وأن يتحقق من غرضه فلا يقول كيف يشبه الرجل الشريف الإنسان بحيوان مفترس... وكيف تشبه السفينة الضخمة بحيوان صغير الحجم، وكيف شبه المصلوب بقائم يتمطى من نعاس والحياة ما تزال تدب في جسم المتمطى.

انتزاع وجه الشبه من التضاد:

قد يلجأ المتكلم إلى أن يشبه الجبان بالشجاع أو البخيل بالكريم لغرض يهدف إليه، وقد علمنا أن وجه الشبه وصف مشترك بين الطرفين تنعقد به المشابهة كالشجاعة الموجودة في كل من الرجل الشجاع والأسد. فكيف يتم تشبيه الجبان بالشجاع، أو البخيل بالكريم والصفة الموجودة في المشبه تضاد الصفة الموجودة في المشبه به؟ والجواب: أن هذا التشبيه يتم عن طريق التنزيل أي: تنزيل التضاد بين الوصفين منزلة التناسب، ثم ينتزع وجه الشبه من التضاد المنزل منزلة التناسب لتحقيق الغرض الذي يرمي إليه المتكلم.

فمثلاً إذا أراد المتكلم أن يسخر من الجبان أو أن يتهكم بالبخيل قال: أنت أسد شجاعة، وأنت كحاتم في الكرم... ونزل التضاد الحاصل بين الجبن والشجاعة وبين البخل والكرم منزلة التناسب فصار الجبن شجاعة والبخل كرمًا تنزيلاً، وأصبح الكرم وصفًا مشتركًا بين البخيل وحاتم تحقيقًا في المشبه به وتنزيلاً في المشبه... وكذلك أصبحت الشجاعة وصفًا مشتركًا بين الطرفين تحقيقًا في الأسد وتنزيلاً في الجبان، وعندئذ ينتزعان وجهي شبه فيقال: هذا البخيل كحاتم في الكرم، وذاك الجبان كالأسد في الشجاعة ولا يقال في التضاد لأن اشتراكهما في التضاد لا يفيد السخرية والتهكم.

وكذا إذا أراد المتحدث أن يمازح صديقًا بخيلاً أو يفاكه صديقًا جبانًا قال له: أنفق علينا فأنت حاتم ودافع عنا العدو فأنت الأسد تنزيلا للبخل والجبن اللذين فيه منزلة الكرم والشجاعة ويصبح الصديق البخيل الجبان موصوفًا بالكرم وبالشجاعة تنزيلاً كما يتصف حاتم بالكرم والأسد بالشجاعة تحقيقًا، ويكون وجه

الشبه هو الشجاعة والكرم، ولا يصح أن يقال إن وجه الشبه هو التضاد؛ لأن اشتراك الطرفين في التضاد لا يفيد المزاح والمفاكهة اللذين يهدف إليهما المتكلم بهذا التشبيه.

وبهذا يتضح لنا أن انتزاع وجه الشبه من التضاد يكون لغرض المفاكهة والمزاح أو السخرية والتهكم... ويتم هذا الانتزاع عن طريق التنزيل بأن ينزل التضاد بين الوصفين منزلة التناسب اعتمادًا على ما يريد المتكلم من سخرية وتهكم أو مزاح ومفاكهة ثم ينتزع وجه الشبه من التضاد المنزل منزلة التناسب لتحقيق الغرض المشار إليه.

☆☆☆

التشبيه التمثيلي وغير التمثيلي

ينقسم التشبيه باعتبار إفراد وجه الشبه أو تركيبه وحسيته أو عقليته إلى تشبيه تمثيلي وتشبيه غير تمثيلي وتختلف آراء البلاغيين في التفرقة بين هذين النوعين وتحديد معنى كل منهما على النحو التالي:

أولاً: رأي الإمام عبد القاهر الجرجاني

فرق عبد القاهر بين التشبيه التمثيلي والتشبيه غير التمثيلي، فرأى أن التشبيه غير التمثيلي ما كان وجه الشبه فيه أمرًا بينا لا يحتاج إلى تأويل وإعمال فكر وصرف عن الظاهر؛ لأن المشبه فيه يشارك المشبه به في صفته؛ ومثاله تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل نحو: أن يشبه الشيء إذا استدار بالكرة في وجه وبالحلقة في وجه آخر، وكالتشبيه من جهة اللون كتشبيه الخد بالورد والشعر بالليل والوجه بالنهار والسقط بعين الديك... أو جمع الصورة واللون كتشبيه الثريا بعنقود الكرم المنور والنرجس بمداهن در حشوهن عقيق، وكذلك التشبيه من جهة الهيئة كتشبيه القامة بالرمح في الاستواء والطول وتشبيه القد اللطيف بالغصن في التثني والليونة، ويدخل في الهيئة حال الحركات في أجسامها كتشبيه الذاهب على الاستقامة بالسهم السديد ومن تأخذه الأريحية فيهتز بالغصن تحت البارح[1]، وكذلك كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس كتشبيه أطيط[2] الرحل بأصوات الفراريج في قول ذي الرمة:

كأنَّ أصواتَ من إيغَالِهِنَّ بِنَا ... أواخِرِ الْمَيْسِ إنقاضُ الفَرَاريجِ

وكتشبيه صريف أنياب البعير بصياح البوازي كقول ذي الرمة أيضًا:

كأنَّ على أَنْيَابِهَا كلَّ سُحْرَةٍ ... صياحَ الْبَوازِي منْ صَرِيفِ اللَّوائِك[3]

وأشباه ذلك من الأصوات المشبهة له... وكتشبيه بعض الفواكه الحلوة

(١) البارح: الريح الشديدة.

(٢) أطيط الرحل: صوته.

(٣) السحرة: السحر الأعلى أي أول السحر وهو ما قبل الفجر، والصريف: صوت الناب، واللوائك: جمع لائكة وهي المضغ من لاك الطعام إذا مضغه.

بالعسل والسكر وتشبيه الناعم بالحرير والخشن بالمسح[١]، ورائحة بعض الرياحين برائحة الكافور، وكذا التشبيه من جهة الغريزة والطباع كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة وبالثعلب في المكر، والأخلاق كلها تدخل في الغريزة نحو السخاء والكرم والوفاء واللؤم والغدر... فالشبه في هذا كله بين لا يجري فيه التأويل ولا يفتقر إليه في تحصيله، وأي تأويل يجري في مشابهة الخد للورد في الحمرة وأنت تراها ههنا كما تراها هناك وكذلك تعلم الشجاعة في الأسد كما تعلمها في الرجل.

ويسمى عبد القاهر هذا النوع: التشبيه غير التمثيلي أو التشبيه الظاهر أو التشبيه الصريح أو التشبيه الأصلي الحقيقي وهو أعم عنده من التشبيه التمثيلي.

الضرب الثاني: التشبيه التمثيلي وهو عند عبد القاهر ما لا يكون الوجه فيه أمرًا بينًا بنفسه بل يحتاج في تحصيله إلى ضرب من التأويل والصرف عن الظاهر لأن المشبه لم يشارك المشبه به في صفته الحقيقية، ويتحقق ذلك فيما إذا كان وجه الشبه ليس حسيًا ولا من الأخلاق والغرائز والطباع العقلية الحقيقية ولكنه يكون عقليًا غير حقيقي أي غير مقرر في ذات الموصوف.

ومثاله قولنا: هذه حجة كالشمس في الظهور، فقد شبهت الحجة بالشمس من جهة ظهورها، ولكن هذا التشبيه لا يتم إلا بتأول وذلك أن نقول حقيقة ظهور الشمس أو غيرها من الأجسام ألا يكون دونها حجاب ونحوه مما يحول بين العين ورؤيتها والشبهة نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول لأنها تمنع القلب رؤية ما هي شبهة فيه. ولذا توصف الشبهة بأنها اعترضت دون الذي يروم القلب إدراكه ويصرف فكره للوصول إليه من صحة حكم أو فساده، فإذا ارتفعت الشبهة قيل: هذا ظاهر كالشمس، فقد احتجنا في تحصيل الشبه بين الحجة والشمس وهو إزالة الحجاب في كل، إلى مثل هذا التأويل والصرف عن الظاهر.

ثم إن ما طريقه التأويل يتفاوت تفاوتًا شديدًا فمنه ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول إليه، ومنه ما يحتاج إلى قدر من التأول ومنه ما يدق ويغمض حتى يحتاج في

---

(١) المسح: كساء غليظ من الشعر.

استخراجه إلى فضل روية ولطف فكرة؛ فمن الأول ما مر من تشبيه الحجة بالشمس، ومن الثاني قولنا: كلام ألفاظه كالماء في السلاسة وكالنسيم في الرقة وكالعسل في الحلاوة، فالمراد أن اللفظ لا يستغلق ولا يشتبه معناه، ولا يصعب الوقوف عليه فليس بغريب وحشي وليس في حروفه تكرير وتنافر يكد اللسان فصار لذلك كالماء الذي يسوغ في الحلق والنسيم الذي يسري في البدن ويتخلل المسالك اللطيفة منه ويهدي إلى القلب روحًا ونشاطًا وكالعسل الذي يلذ طعمه وتهش النفس له ويميل الطبع إليه؛ فوجه الشبه إذًا هو الاستحسان وميل النفس الذي هو لازم من لوازم الحلاوة، وقد احتجنا في إدراكه إلى مثل هذا التأول؛ وهو أدخل قليلاً في حقيقة التأول وأقوى حالاً في الحاجة إليه من تشبيه الحجة بالشمس.

ومن الثالث قولهم: هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها، فوجه الشبه في هذا التشبيه يحتاج إلى فضل روية ولطف فكرة، وإلى كثير من التأول والصرف عن الظاهر حتى يمكن استخراجه والوقوف عليه وذلك لغموضه ودقته، وقد سمى عبد القاهر هذا النوع: التشبيه التمثيلي أو التمثيل وهو عنده أخص من التشبيه -كما بينا- ثم يسوق شواهد كثيرة لكل نوع من النوعين فمن شواهد التشبيه قول قيس ابن الخطيم:

وقَدْ لاحَ في الصبحِ الثُّرَيَّا لمنْ رأى ... كعُنْقُودِ مُلاَّحِيَّةٍ حين نَوَّرَا

وقول ابن المعتز:

كأنَّ عيونَ النَّرْجسِ الغضِّ حولَنا ... مَداهِنُ دُرٍّ حَشْوُهُنَّ عَقِيقُ

وقوله:

وتَرومُ الثُّرَيَّا في الْغُرُوبِ مَرَامَا ... كَانْكِبَابِ طِمِرٍّ كادَ يُلقي اللِّجَامَا[1]

وقوله:

وأرى الثُّرَيَّا في السماءِ كأنَّها ... قدمٌ تَبَدَّتْ منْ ثِيَابِ حِدادِ

---

(١) الطمر: الفرس الجواد، والمراد به هنا أن يكون ذا لون أسود، واللجام: مفضض فهو كالثريا، والطمر كالليل، ووجه الشبه: ظهور شيء أبيض مستطيل في جوانب شيء مظلم.

وقوله:

قَدِ انْقَضَتْ دولةُ الصِّيام وقد بَشَّرَ سُقْمُ الهلال بالعيدِ

يَتلُو الثُّريَّا كفاغرٍ شرِهٍ يَفْتحُ فاهُ لأكْلِ عُنْقُودِ(١)

فوجه الشبه في هذه الأبيات ظاهر بين لا يحتاج إلى تأول؛ لأنه من المركبات الحسية ولذا كانت من قبيل التشبيه غير التمثيلي عند عبد القاهر... وقد مرت بنا هذه التشبيهات.

ومن شواهد التمثيل قول ابن المعتز أيضًا:

اصبرْ على مضضِ الحسو دِ فإنَّ صبرَكَ قاتلُهُ

فالنَّارُ تأكلُ بعضَهَا إنْ لمْ تجدْ ما تأكُلُهُ

وقول صالح بن عبد القدوس:

وإنَّ مَنْ أَدَّبْتَهُ في الصِّبَا كالعودِ يُسقَى الماءَ في غرسِهِ

حتى تراهُ مُورقًا ناضرًا بعد الذي أَبْصَرْتَ مِنْ يُبسِهِ(٢)

فوجه الشبه في هذه الأبيات من المركبات العقلية التي تحتاج إلى فضل روية وإعمال فكر ولذا كانت من قبيل التشبيه التمثيل عند عبد القاهر... وخلاصة رأي عبد القاهر أن التشبيه غير التمثيلي ما كان وجه الشبه فيه حسيًا أي مدركًا بإحدى الحواس الخمس الظاهرة وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس، سواء كان هذا الوجه الحسي مفردًا أم مركبًا.. وكذلك ما كان الوجه فيه عقليًا حقيقيًا أي: ثابتًا ومقررًا في ذات الطرفين كالأخلاق والغرائز والطباع... والتمثيل أو التشبيه التمثيلي ما كان وجه الشبه فيه ليس حسيًا ولا من الأخلاق والغرائز والطباع العقلية

---

(١) سقم الهلال: أراد صغره وأخذه في الذهاب، ويتلو: يتبع، والفاغر، الذي يفتح فمه، والشره: شديد النهم والرغبة في الأكل، فالمشبه: الهلال والمشبه به: الرجل الفاغر فمه لأكل عنقود، ووجه الشبه: هيئة أجرام بيضاء يحيط بها شيء مقوس.

(٢) المراد: تشبيه المؤدب في صباه بالعود المسقي أوان غرسه، ووجه الشبه: التحول من حال النقص إلى حال الكمال بسبب التعهد بالعلاج في الوقت الذي يجدي فيه العلاج.

الحقيقية، بل يكون عقليًا غير حقيقي أي: غير متقرر في ذات الطرفين فلا يكون بينًا ظاهرًا بنفسه بل يحتاج في تحصيله إلى تأول؛ لأن المشبه لم يشارك المشبه به في صفته الحقيقية... سواء أكان هذا الوجه العقلي مفردًا أم مركبًا.

ثانيًا: رأي السكاكي

يرى السكاكي أن التشبيه غير التمثيلي ما كان وجه الشبه فيه مفردًا بنوعيه حسيًا أو عقليًا، أو كان مركبًا حسيًا... فمثال ما كان الوجه فيه مفردًا وحسيًا تشبيه الخد بالورد في الحمرة والشعر بالليل في السواد والريق بالخمر في طيب المذاق... إلخ.

ومثال المفرد العقلي: تشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة وبالبحر في الكرم وبالذئب في المكر والدهاء... وتشبيه الحجة بالشمس في إزالة الحجاب والكلام بالعسل في ميل النفس... إلخ. ومثال المركب الحسي:

كأن مُثَارَ النَّقْع فوق رءوسِنا وأسيافَنا ليلٌ تهاوَىَ كواكِبُهُ

إلى آخر ما مر بنا من المركبات الحسية... أما التمثيل عنده فهو ما كان وجه الشبه فيه مركبًا عقليًا كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ (١)، فوجه الشبه في الآية الكريمة أن كلاً من المنافقين ومستوقد النار تعاطي الأسباب المقربة لتحقيق آماله وحين ظهرت دلائل النجاح انقلب الأمر على عكس ما أملوا. وهو هيئة عقلية انتزعت من أمور متعددة. وقوله عز وجل: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ (٢)، فوجه الشبه وهو حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمل التعب في استصحابه، هيئة عقلية مركبة لانتزاعها من أمور متعددة... وعدم إدراكها بالحواس.

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٧.

(٢) سورة الجمعة الآية: ٥.

ثالثًا: رأي الخطيب وجمهور البلاغيين

يرون أن التشبيه غير التمثيلي ما كان وجه الشبه فيه مفردًا حسيًا أو عقليًا، والتشبيه التمثيلي ما كان الوجه فيه مركبًا سواء أكان حسيًا أم عقليًا... فمدار التفرقة عندهم بين التشبيه والتمثيل تركيب الوجه وإفراده بغض النظر عن كونه حسيًا أو عقليًا. فإذا كان وجه الشبه هيئة منتزعة من شيئين أو عدة أشياء كان التشبيه تمثيلاً سواء أكانت هذه الهيئة حسية أم عقلية... وإذا كان وجه الشبه مفردًا بنوعيه أي حسيًا أو عقليًا كان التشبيه غير تمثيلي.

وخلاصة هذه الآراء في التفرقة بين التشبيه والتمثيل والتي هي مبنية على إفراد وجه الشبه أو تركيبه وحسيته أو عقليته، أنه إذا كان وجه الشبه مركبًا عقليًا غير حقيقي، كما في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾(١)، وقوله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ ﴾(٢)، وكقول ابن المعتز: اصبر على مضض الحسود... وقول صالح: "وإن من أدبته في الصبا" وقول أبي تمام: "وإذا أراد الله نشر فضيلة" كان التشبيه تمثيليًا بإجماع الآراء.

وإذا كان الوجه مركبًا حسيًا كما في قول بشار: "كأن مثار النقع" وقول أبي طالب: "وكأن أجرام النجوم..." وقول ذي الرمة: "وسقط كعين الديك" كان التشبيه تمثيليًا عند الخطيب وجمهور البلاغيين وغير تمثيلي عند عبد القاهر والسكاكي لكونه حسيًا.

وإذا كان وجه الشبه واحدًا عقليًا غير حقيقي أي غير متقرر في ذات الطرفين... كما في قولنا: كلام كالعسل، وحجة كالشمس وهم كالحلقة المفرغة، كان التشبيه تمثيليًا عند عبد القاهر فقط وليس تمثيليًا عند السكاكي والخطيب والجمهور لفقده التركيب الذي يشترطونه في التشبيه التمثيلي... وعبد القاهر يغض النظر عن هذا التركيب.

---

(١) سورة الجمعة الآية: ٥.

(٢) سورة النور الآية: ٣٩.

وإن كان يرى أن الأولى بأن يُسمى تمثيلاً ما كان وجهه من المركبات العقلية[١].

وإذا كان الوجه واحدًا حسيًّا كما في قولنا: خد كالورد وشعر كالليل وريق كالخمر وبشر كالحرير. أو واحدًا عقليًا حقيقيًا لكونه من الأخلاق والغرائز والطباع الحقيقية كما في قولنا: هذا الرجل كحاتم كرمًا، وكأحنف حلمًا وكإياس ذكاء وكالأسد شجاعة وكالكلب وفاء، كان التشبيه غير تمثيلي بإجماع الآراء لفقده التركيب الذي يشترطه السكاكي والخطيب وجمهرة البلاغيين. ولكونه حقيقيًا أي: متقررًا في ذات الطرفين وعبد القاهر يشترط في التمثيل أن يكون وجهه عقليًا غير حقيقي.

☆☆☆

(١) انظر أسرار البلاغة ص (١٠٨).

التشبيه المجمل والتشبيه المفصل

ينقسم التشبيه باعتبار حذف وجه الشبه أو ذكره إلى قسمين تشبيه مجمل وتشبيه مفصل.

فالتشبيه المجمل:

ما حذف فيه وجه الشبه كقولنا: هذا الرجل كالأسد والعلماء كالنجوم... ووجه الشبه المحذوف قد يكون واضحًا ظاهرًا يعرفه الخاصة والعامة على حد سواء كقولنا: وجه كالبدر، وشعر كالليل وخد كالورد ورجل كالأسد... وقد يكون دقيقًا خفيًا يحتاج في إدراكه إلى فكر وتأمل وعندئذ يجب أن يذكر في العبارة ما يومئ إلى وجه الشبه المحذوف ويدل عليه.

ما يدل على وجه الشبه عند حذفه إذا كان خفيًا:

والذي يومئ إلى الوجه المحذوف ويدل عليه إذا لم يكن ظاهرًا واضحًا إما وصف المشبه به بصفة يفهم منها هذا الوجه المحذوف، كقول كعب الأشقري في وصف بني المهلب للحجاج لما سأله عنهم: «هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها» فقد وصف المشبه به وهو الحلقة المفرغة بأنها ليست معلومة الأطراف، وهذا الوصف أومأ إلى وجه الشبه ودل على أنه: التناسب الكلي الخالي من التفاوت، ولا شك أن الانتقال من تناسب أجزاء الحلقة إلى تناسبهم في الشرف غاية في الدقة؛ لأن العامة يتبادر إلى ذهنهم تناسبهم في الصورة والشكل ولا يدرك التناسب الكلي إلا الخاصة ولذا احتاج التشبيه إلى وصف المشبه به بهذا الوصف الذي أومأ إلى وجه الشبه ودل على أنه: التناسب الكلي الخالي من التفاوت.

ومن ذلك قول زياد الأعجم:

وإنَّا وما تُلْقِي لنا إنْ هَجَوْتَنَا ... لَكَالْبَحْرِ مَهْمَا تُلقِ في البحرِ يَغْرَقِ

فوجه الشبه هو عدم ظهور الأثر في كل منهما، يريد أن هجاءه لهم لا يؤثر فيهم لأصالتهم في الشرف وعراقتهم في المجد كما لا يؤثر في البحر ما يلقى فيه من أوساخ وأقذار وقد أومأت الجملة الحالية وهي: مهما تلق في البحر يغرق والتي

وقعت وصفا للمشبه به: البحر... أومأت إلى وجه الشبه ودلت عليه:

وقول النابغة الذبياني:

فإنَّـكَ شـمسٌ والـملوكُ كواكِـبُ إذا طلعـتْ لـمْ يبـدُ مـنهنَّ كوكَـبُ

شبه الممدوح والملوك بالشمس والكواكب وجملة: إذا طلعت لم يبد منهن كوكب وقعت وصفًا للمشبه بهما فأنبأت عن وجه الشبه المحذوف ودلت عليه وهو: القوة الكبرى التي تستر ما عداها... فالشاعر يريد أن عزة الممدوح وسلطانه وفضائله تخفي ما لسائر الملوك من قوة وعزة ومكارم كما تخفي الشمس إذا طلعت أضواء الكواكب.

وإما أن يكون الدال على وجه الشبه المحذوف وصفًا للمشبه والمشبه به كليهما كما في قول أبي تمام:

صـدَفْتُ عنـهُ ولمْ تـصدُف مواهبُـهُ عنِّـي وعَـاوَدَهُ ظنِّـي فلـمْ يخِـبِ
كَالغَيْـثِ إنْ جئتَـهُ وافَـاكَ رَيِّقُـهُ وإنْ تَرَحَّلْـتَ عنـهُ لـجَّ في الطَّلَـبِ(١)

شبه الممدوح بالغيث ووجه الشبه هو الإفاضة والإحسان في حال الإقبال وفي حال الإعراض وقد أنبأ بهذا الوجه ودل عليه وصف المشبه بأن عطاياه لا تنقطع في حال الغيبة وحال الحضور ووصف المشبه به وهو الغيث بأنه يوافيك بمائه الصافي إن طلبته، وإن ترحلت عنه اجتهد في إمدادك به، ولو لم يوصف الطرفان بهذين الوصفين لتبادر إلى ذهن العامة أن المقصود مجرد تشبيه الممدوح بالغيث في كثرة العطاء.

والتشبيه المفصل:

ما ذكر فيه وجه الشبه كقولنا: وجهه كالبدر حسنًا، وخده كالورد حمرة، وشعره كالليل سوادًا، وريقه كالخمر مذاقًا، وبشره كالحرير نعومة... وهذا الرجل كالأسد شجاعة... سواء أكان المذكور هو نفس الوجه كالأمثلة المذكورة، وكما في قول ابن الرومي:

---

(١) صدفت: أعرضت، والمواهب: الهبات... وريقه أوله وأفضله... ولج: ألح.

يـا شـبيهَ البـدرِ في الحسنِ وفي بُعـد   جُـدْ فقـد تنفجـرُ الصخرةُ بالـماء

وقول أبي بكر الخالدي:

يـا شـبيهً البـدرِ حسنًا   وضيـاءً ومنـالاَ

وشـبيهَ الغصـنِ لينًا   وقوامًا واعتـدالاَ

أنـت مثـلُ الـوردِ لونًا   ونسيمًا وبَـلالاَ(٢)

زارَنَـا حتَّـى إذا مـا   سَرَّنَـا بـالقُربِ زالاَ

أو كان المذكر وصفًا يستلزم وجه الشبه كقولنا: كلام كالعسل في الحلاوة؛ فليست الحلاوة هي وجه الشبه الحقيقي، ولكن الوجه الحقيقي هو: ميل النفس وشعورها باللذة وهو لازم من لوازم الوصف المذكور "الحلاوة" فاستغنى بذكر الملزوم عن اللازم مجازًا، ومنه قولهم: حجة كالشمس في الظهور فالوجه الحقيقي هو إزالة مطلق حجاب فيشمل حجاب الليل الذي يمنع إدراك المبصرات وحجاب الشبهة التي تمنع إدراك المعقولات، وهذا الوجه من لوازم الوصف المذكور "الظهور" فاستغنى به عنه تسامحًا أو مجازًا.

☆☆☆

---

(١) جد: يعني بالوصال، الزلال: العذب الصافي.

(٢) البلال: النديُّ، ويروى: ملالاً بمعنى سرعة الزوال والمفارقة من إطلاق الملزوم وإرادة اللازم.

التشبيه البعيد والتشبيه المبتذل

ينقسم التشبيه باعتبار ما يتصف به وجه الشبه من وضوح أو دقة تحوج إلى التفكير إلى قسمين: تشبيه قريب مبتذل وتشبيه بعيد غريب.

القريب المبتذل:

هو ما ينقل فيه الذهن من المشبه إلى المشبه به دون حاجة إلى إعمال فكر وتدقيق نظر، ويرجع ذلك إلى وضوح وجه الشبه وظهوره، كتشبيه الوجه الحسن بالبدر والرجل الشجاع بالأسد، فإن الذهن لا يجد صعوبة في إدراك هذا الحسن وتلك الشجاعة في البدر والأسد، وكتشبيه الرجل الكريم بالغيث والخد الجميل بالورد، فالذهن لا يجد عناء في إدراك الكرم والجمال في الغيث والورد.

ولا يعني وصف هذه التشبيهات بالقرب والابتذال أنها رديئة مستنكرة ولكن المراد أنها قريبة التناول سهلة المأخذ يستوي فيها الخاصة والعامة وكثيرًا ما يحتاج إليها الأديب لتوضيح معانيه وتأكيدها.

العوامل الموجبة لابتذال التشبيه:

يعد التشبيه قريبًا مبتذلاً إذا اتصف وجه الشبه فيه بصفة أو أكثر من الصفات الآتية:

١. كونه أمرًا مجملاً لا تفصيل فيه كتشبيه الخد بالورد في الحمرة والمصابيح بالنجوم في الإضاءة والرجل بالأسد في الشجاعة فالحمرة والإضاءة والشجاعة أمور مجملة لا تفصيل فيها والجملة أسبق إلى النفس من التفصيل دائمًا.

٢. أن يشتمل وجه الشبه على قليل من التفصيل ويكون المشبه به من الأمور التي تتكرر على الحس فيستدعي هذا التكرار سرعة حضورها في الذهن عند إرادة التشبيه وبذلك يزول أثر التفصيل القليل الموجود في وجه الشبه ويصبح التشبيه قريبًا مبتذلاً. مثال ذلك: تشبيه الشمس بالمرآة المجلوة في الاستدارة والإشراق، وتشبيه الثياب ذات النقوش بأزهار الروض في اجتماع الألوان، وتشبيه العيون بالنرجس في اجتماع البياض والسواد وتشبيه السيوف بالبرق في الإشراق واللمعان؛ فوجه الشبه في هذه التشبيهات به قليل من التفصيل لملاحظته في شيئين،

ولكن تكرار رؤية الأمور المشبه بها أزال أثر هذا التفصيل القليل الملاحظ في وجه الشبه وجعل إدراكه سهل التناول قريب الـمأخذ وظل التشبيه لذلك قريبًا مبتذلاً لاقتضاء تكرار المشبه به على الحس سرعة انتقال الذهن.

٣. أن يشتمل وجه الشبه على قليل من التفصيل ويكون المشبه به قريب الحضور في الذهن عند حضور المشبه فيه لا لتكرر المشبه به على الـحس ولكن لقرب المناسبة بين الطرفين وتقاربهما في الجنس، فالمعاني تتداعى دائمًا في الذهن إذا قربت المناسبة بينها ومثال ذلك: تشبيه جرة الماء الصغيرة بالكوز وتشبيه العنبة الكبيرة السوداء بالإجاصة(١) في الشكل والمقدار وتشبيه برج القاهرة بمنارة القلعة، فالمشبه به في هذه التشبيهات يتبادر إلى الذهن عند حضور المشبه فيه لقرب المناسبة بينهما ولهذا زال أثر التفصيل القليل المشتمل عليه وجه الشبه لملاحظته في شيئين: الشكل والمقدار، وبقي التشبيه قريبًا مبتذلاً، لاقتضاء قرب المناسبة بين الطرفين وسرعة انتقال الذهن من المشبه إلى المشبه به.

والتشبيه البعيد الغريب:

ما لا ينتقل فيه الذهن من المشبه إلى المشبه به إلا بعد فكر وإطالة نظر وروية، وذلك لخفاء وجه الشبه في بادئ الأمر ودقته. كقول ابن المعتز في وصف ظهور البرق وخفائه:

وكأنَّ البرقَ مُصْحَفُ قارٍ فانطباقًا مرةً وانفِتَاحَا

فوجه الشبه وهو هيئة توالي حركتين في اتجاهين مختلفين ينشأ عن إحداهما ظهور وانفتاح وعن الأخرى خفاء وانطباق، لا ينتقل الذهن في إدراكه والوقوف عليه من المشبه إلى المشبه به إلا بإطالة النظر وإعمال الفكر لدقته وخفائه، فهو حركة خاصة تحتاج من الأديب أو القارئ إلى أن يغض النظر عما عداهما مما في البرق من إشراق وما في المصحف من لون حين يفتحه القارئ.

---

(١) الإجاصة جمعها: إجاص وهو شجر له ثمر لذيذ الطعم.

العوامل الموجبة لغرابة التشبيه

يعد التشبيه غريبًا بعيدًا إذا اتصف بواحد أو أكثر من الأمور الآتية:

الأول: أن يكون المشبه به نادر الحضور في الذهن لكونه من الأمور الوهمية كما في تشبيه السنان بأنياب الأغوال والطلع برءوس الشياطين، أو من المركبات الخيالية كتشبيه محمر الشقيق بأعلام ياقوت نشرت على رماح من زبرجد فالأمور الوهمية والمركبات الخيالية لا تحقق لوجودها فهي نادرة الحضور في الذهن.

وقد يكون المشبه به له وجود محقق إلا أنه لا يتكرر على الحس ولا يخطر بالبال إلا بعد تفكير طويل كتشبيه الشمس بالمرآة في كف الأشل؛ فالمرآة في يد الأشل من الأمور التي لا يقع عليها البصر إلا نادرًا فربما قضى الإنسان دهره ولا يتفق له أن يرى مرآة في يد الأشل، ومن ذلك تشبيه حال الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها بحال الحمار يحمل كتب العلم في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾ [سورة الجمعة الآية: ٥]، فصورة الحمار يحمل أسفارا من الصور التي لا تتكرر على الحس... ووجه الشبه من المركبات العقلية التي يتعذر استخراجها من الطرفين على غير الخاصة وما من شك في أن ندرة حضور المشبه به في الذهن تقتضي خفاء وجه الشبه وندرة إدراكه لأن الوجه وصف منتزع من الطرفين فإذا خفي أحد الطرفين وندر حضوره بالذهن خفي وجه الشبه وندر إدراكه وتعذر على العامة.

الثاني: أن يكون المشبه به نادر الحضور في الذهن عند ذكر المشبه لبعد الصلة بينهما...

من ذلك قول ابن المعتز يصف زهر البنفسج:

ولا زَوَرْدِيَّـــةٌ تزهُـــو بزُرْقَتِهَـــا   بـين الريـاضِ عـلى حُـمْرِ اليواقيـتِ

كأنَّهَـا فــوقَ قامَـاتٍ ضَـعُفْنَ بِهَـا   أوائـلُ النَّـار في أطـراف كِبْرِيـتِ[1]

---

(١) اللازوردية: البنفسج وهي نسبة تشبيهية إلى حجر يسمى اللازورد والمراد تشبيه أزهار البنفسج، وتزهو: تتكبر، وحمر اليواقيت من إضافة الصفة إلى الموصوف وإنما جعل المشبه به أوائل النار في أطراف الكبريت؛ لأنها تكون حمراء صافية لا زرقاء.

فقد شبه زهر البنفسج بأوائل النار في أطراف كبريت ولا مناسبة بين الطرفين فالمشبه زهر ندي يفوح عطرًا والمشبه به نار يابسة محرقة فهما جنسان متباعدان يندر أن يحضر المشبه به في الذهن عند حضور المشبه فيه، وقد جمع الشاعر بينهما على الرغم من هذا التنافر فاكتسب التشبيه غرابة وبعدًا... ومن ذلك تشبيه الشيب بالنار والبرق بمصحف القارئ وإبرة روق الأغن بقلم أصاب من الدواة مدادًا.

فالبون شاسع بين الطرفين في هذه التشبيهات كما لا يخفي ولذا كانت تشبيهات غريبة بعيدة.

الثالث: أن يكون وجه الشبه كثير التفصيل، من ذلك ما مر من تشبيه الشمس بالمرآة في كف الأشل حيث رُوعِي في وجه الشبه الشكل واللون والحركة المضطربة المستمرة التي ينشأ عنها تموج الضوء.

ومعنى التفصيل في وجه الشبه: إطالة النظر والتأمل في صفات كل من الطرفين لمعرفة ما تقع به المشاركة بينهما وما تقع به المخالفة، ثم تأمل الصفات المشتركة بين الطرفين، هل هي موجودة في كلا الطرفين بدرجة واحدة أم بينهما تفاوت؟ وهل هذا التفاوت يفسد الغرض من التشبيه؟ إن كان يفسده فعلى الأديب أن يجمع ويفرق ويثبت ويحذف في صفات كل طرف حتى يستقيم التشبيه ويحقق الغرض الذي يرمي إليه، فالمراد بالتفصيل إذًا ألا ننظر في صفات الطرفين نظرة إجمالية بل نظرة تفصيلية دقيقة، ويتضح لنا ذلك في هذه الشواهد.

يقول امرؤ القيس:

حملْتُ رُدَيْنِيًّا كأنَّ سِنَانَهُ ... سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصِلْ بدُخَانِ(١)

شبه سنان الرمح بسنا اللهب في الإشراق ولكنه لاحظ أن السنا يحوي الدخان الذي يؤثر في وجه الشبه فحذف هذا الدخان وانتزعه من السنا بقوله: "لم يتصل بدخان" فزاد السنا بهذا تألقًا وضياء، وتم تحقق الشبه بين الطرفين.

---

(١) ردينيا: الرديني: رمح منسوب إلى ردينة وهي امرأة كانت تصقل الرماح، وسنا اللهب: ضوؤه.

وقال أبو قيس بن الأسلت:

وقدْ لاحَ في الصبحِ الثُّرَيَّا كما ترَى ... كعُنقُودِ مُلاَّحِيَّةٍ حين نَوَّرَا

شبه الثريا بالعنقود في الهيئة المكونة من: الشكل والمقدار واللون والمسافة المتقاربة بين الأجزاء، ولكي يتم هذا الوجه في جانب المشبه به جعله عنقود ملاحية وقيده بهذا القيد "حين نورا" وبهذا التفصيل تم تحقق الوجه بين الطرفين.

وقال ابن المعتز يصف طلوع الفجر.

كأنَّا وضَوْءُ الصُّبْحِ يَستعجِلُ الدُّجَى ... نُطيرُ غُرابًا ذا قَوادِمَ جُونِ(١)

شبه سواد الليل وقد بدت في جوانبه لمح مضيئة من نور الفجر بغراب أسود في أطراف جناحيه ريشات بيض تظهر لامعة في سواده، ووجه الشبه هو الهيئة المكونة من اجتماع البياض والسواد وأن السواد أخذ يتبدد في عجلة أمام البياض الذي انتشر في حواشيه وجوانبه، وقد تخيل الشاعر أن ضوء الصبح يسوق ظلام الليل ويستعجله ولما لم يجد نظير ذلك في الغراب أضاف إلى صفته أنه كان حبيسًا في يد قانص ثم أطير فهو يتابع طيرانه ويجد فيه... وحقق ابن المعتز بهذه الإضافة الشبه كاملاً بين الطرفين. ولو أنه اكتفى بذكر الغراب وبياض قوادمه ولم يجعله طائرًا أو جعله طائرًا من تلقاء نفسه لا عن إزعاج لاختل التشبيه ولما كان لقوله: "يستعجل الدجى" نظير في المشبه به.

وقال أبو نواس يصف البازي:

كأنَّ عَيْنَيْهِ إذا ما أَثْأَرَا ... فَصَّانَ قيضَا من عَقِيق أحمرَا

في هامةٍ غَلْبَاءَ تَهْدِي مِنْسَرَا ... كَعَطْفَةِ الجيمِ بِكَفٍّ أعْسَرَا(٢)

---

(١) الدجى: جمع دجية وهي الظلمة، والقوادم: أوائل ريش الطائر، والجون: جمع جَوْن وهو الأبيض أو الأسود والمراد هنا الأبيض.

(٢) أثأر: أدرك ثأره، وقيضا: شقا، والهامة: رأس كل شيء وتطلق على الجثة، والغلباء: القوية، تهدي: تتقدم، والمنسر: منقار الطير الجارح، وعطفة الجيم: خطها الأعلى، والأعسر: الذي يكتب بشماله.

شبه الجزء العلوي الذي يرى من منقار البازي بالعطفة العليا لحرف الجيم وهي التي تبتدئ من اليسار إلى اليمين، وقد فصل الشاعر تفصيلا دقيقًا في مراعاة وجه الشبه فقال: "كعطفة الجيم" ولم يقل كالجيم؛ لأن الجزء الأسفل من المنقار الذي يشبه العطفة السفلى للجيم لا تقع عليه العين وجعل عطفة الجيم مكتوبة بكف أعسر لأن الأعسر يزيد من انحنائها محدثا في طرفها الأيمن تعريجًا إلى أسفل يشبه التعريج الذي ينتهي به منقار البازي... ثم أراد أن يؤكد أن الشبه في الصورتين قد رُوعِيَ فيه الخط الأعلى فقط من الجيم فقال:

يقولُ مَنْ فيهَا بِعَقْلٍ فَكَّرَا لو زادَهَا عَيْنًا إلى فاءٍ وراَ

فَاتَّصَلَتْ بالجيمِ صارتْ جعْفَرَا

نبه بقوله: "فاتصلت بالجيم" إلى أن المراد العطفة الأولى فقط ونفي إرادة العطفتين: الثالثة التي تكون في الجيم المنفصلة والثانية التي تجيء من اليمين إلى اليسار لتصل عطفة الجيم الأولى ببقية حروف الكلمة؛ لأنها وسيلة للوصل ولا يلتفت إليها عند عدم إرادة الوصل، ولدقة هذا التفصيل قال: "يقول من فيها بعقل فكرا" فنبه إلى أن المشبه به في حاجة إلى فضل روية وإعمال فكر ليتم تحقيق الشبه بين الطرفين.

هذا وتختلف مرتبة التفصيل في وجه الشبه باختلاف الأمور المرعية والصفات المعتبرة في الطرفين... فأدنى مراتبه ما روعي فيه وصف واحد كتشبيه البنفسج بأوائل النار في أطراف كبريت بجامع الحمرة الصافية التي لا يشوبها لون آخر. وأعلى من هذا ما روعي فيه أمران كاجتماع البياض والسواد في تشبيه غرة الفرس وسط وجهه الأسود بإشراق الصبح في جوانب الليل، وما روعي فيه ثلاثة أمور أعلى مما روعي فيه أمران وهكذا حتى نبلغ الغاية في نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤].

فقد اجتمعت عشر جمل في جانب المشبه به كل جملة منها تفيد وصفًا لا تفيده الأخرى وهذه الأوصاف قد تضامت والتحمت لأداء وجه الشبه بين الطرفين وصارت كأنها جملة واحدة بحيث لو حذف منها شيء لأخل ذلك الحذف بالمغزى من التشبيه، ومما يلاحظ في الآية الكريمة أن هذه الجمل المتتابعة قد وقعت صفة لاسم نكرة "ماء" ولي أداة التشبيه، ومنه قول النبي ﷺ: "النَّاسُ كَإِبلٍ مائةٌ لا تَجِدُ فِيهَا رَاحِلةٌ»[١]، فجملة "مائة لا تجد فيها راحلة": وقعت صفة لإبل، والمراد: أن الكامل في الناس قليل فكل مائة لا تجد فيهم واحدًا يوصف بالكمال.

وقد يلي: أداة التشبيه اسم موصول فتقع الجملة بعده صلة له كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [البقرة: ١٧]، أو اسم معرفة غير موصول فتكون الجملة بعده مستأنفة جوابًا لسؤال مقدر كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت: ٤١]؛ فجملة "اتخذت بيتًا" وقعت جوابًا لسؤال مثار تقديره: ما حالها؟ .. فجاء الجواب: «اتخذت بيتًا».

وسواء ولي الأداة اسم نكرة أو معرفة موصول أو غير موصول فإن وجه الشبه هيئة تركيبية منتزعة من مجموع الجمل الواقعة بعد الاسم ولا يمكن أن يكون هذا الاسم هو المشبه به لاستحالة استقلاله بالدلالة على المقصود من التشبيه بدون الجمل المذكورة بعده وإنما احتيج إليه ليكون ركيزة تعتمد عليها تلك الجمل المتتالية التي يتكون منها المشبه به.

موازنات

وبناء على ما تقدم من العوامل الموجبة لغرابة التشبيه وبعده يكون قول امرئ القيس في صفة سنان الرمح:

حَمَلْتُ رُدَيْنِيًّا كأَنَّ سِنانَهُ ... سَنا لَهَبٍ لم يَتَّصِلْ بدُخانِ

---

(١) رواه البخاري في الرقاق رقم (٦٤٩٨) ومسلم في فضائل الصحابة رقم (٢٣٢/ ٢٥٤٧).

أعلى طبقة وأكثر غرابة من قول عنترة العبسي في وصف السيف:

يُتَــــابِعُ لاَ يَبْتَغِـــــي غَـــــيْرَهُ ‏ ‏ ‏ ‏ بـــأبيضَ كــالقَبَسِ الْــمُلْتَهِبِ(١)

وذلك أن كلا من الشاعرين لاحظ عدة أمور في الطرفين يتكون منها وجه الشبه وهي: اللون المخصوص وما فيه من بريق ثم الاهتزاز والاضطراب ولكن امرأ القيس زاد في التفصيل وأنعم في النظر والتأمل فوجد في المشبه به صفة لا يتم بها التشبيه وهي الدخان الذي يعلو رأس الشعلة فنفاه وجرد السنا منه وأكسب تشبيهه زيادة في الغرابة والبعد.

ومعلوم أن هذا لا يقع في خاطر الشاعر لأول وهلة بل لابد له من أن ينعم النظر والتأمل في أحوال الطرفين فيثبت ويحذف ويجمع ويفرق حتى يستقيم له التشبيه ويكتمل وجه الشبه... فبيت بشار:

كــأنَّ مُثَــار النَّقْــعِ فــوقَ رءوسِــنَا ‏ ‏ ‏ ‏ وأَسْــيَافَنَا لَيْــلٌ تهــاوَى كواكِبُــهُ

أعلى طبقة وأبعد غرابة من بيت المتنبي:

يــزورُ الأعــادِي في ســماءِ عَجَاجَــةٍ ‏ ‏ ‏ ‏ أَسِــنَّتُهُ في جانِبَيْهَــا الكَوَاكِــبُ(٢)

ومن قول كلثوم بن عمرو العتابي:

تبنــي ســنابِكُهَا مــن فــوقِ أَرْؤُسِــهِمْ ‏ ‏ ‏ ‏ سَــقْفًا كواكِبُــه البِيضُ الــمباتيرُ(٣)

وذلك أن أبا "الطيب والعتابي اقتصرا في التفصيل على أن أريانا صورة أشياء مشرقة لامعة وسط سواد قاتم وظلام حالك، ولكن بشارا زاد في التفصيل وأنعم النظر والتأمل إذ وجد السيوف في المعركة تتحرك حركات سريعة مضطربة إلى

---

(١) القبس الملتهب: النار الموقدة، والضمير في قوله: يتابع لورد بن حابس، وفي قوله: غيره لنضلة الأسدي، وكان لورد ثأر عنده، والأبيض: السيف.

(٢) العجاجة: الغبار والأسنة جمع سنان وهو نصل الرمح، والضمير في قوله: يزور يعود إلى الممدوح.

(٣) السنابك: جمع سنبك وهو طرف الحافر، وسقفا: أي غبارًا مثارًا كالسقف فهو استعارة، والبيض المباتير: السيوف القواطع جمع مبتار.

جهات مختلفة فهي تعلو وترسب وتستقيم وتعوج وتتلاقى فيصدم بعضها بعضًا ثم تتفرق، وهي ذات أشكال مستطيلة... فعبر عن هذه الدقائق بكلمة واحدة وهي قوله "تهاوى" لأن الكواكب إذ تهاوت اختلفت جهات حركاتها وكان لها في التهاوي استطالة أشكال وتواقع وتداخل وبهذا اكتمل وجه الشبه وكان تشبيه بشار آية في الإبداع والغرابة.

وكذلك يكون قول ابن المعتز في وصف الآذريون وهو زهرة عباد الشمس.

سَـــقْيا لروضـــاتٍ لنَـــا   مـــن كـــل نَـــوْرٍ حَالِيَـــهْ
عيـــونُ آذَرْيُونِـــها   للـــشمس فيهـــا كَالِيَـــهْ
مـــداهنُ مـــن ذهـــبٍ   فيهَـــا بقايَـــا غَالِيَـــهْ (١)

أوفى تفصيلا وأكثر غرابة من قوله في صفة الآذريون أيضًا:

وطـــافَ بهـــا ســـاق أديـــبٌ بِمِبْـــزَلٍ   كخِنْجَـــرِ عَيَّـــارٍ صِـــناعَتُه الْفَتْـــكُ
وَحمَّـــل آذَرْيُونَـــةً فـــوقَ أُذْنِـــهِ   ككـأسِ عقيـقٍ في قرارتَهـا مِسْكُ (٢)

فقد شبه في الأبيات الأولى عيون الآذريون أي: أزهاره التي تتجه إلى الشمس دائرة معها كأنها ترعاها، شبه هذه الأزهار بأوعية صغيرة من الذهب الأصفر فيها بقايا من دهن أسود مصنوع من جملة أطياب يسمى بالغالية، وشبه في البيتين الآخرين: نفس الزهر وقد تزين به الساقي حاملاً إياه فوق أذنه بكأس من العقيق الأحمر في قراراتها مسك أسود.

وكان التشبيه الأول أفضل وأغرب؛ لأن زهر الآذريون: جسم مستدير يحيط

---

(١) النور: الزهر، والآذريون: ورد له أوراق حمراء وفي وسطه نبو وارتفاع وقد تكون أوراقه صفراء، وكالية: تدور مع الشمس حيث دارت، اسم فاعل من كلأ، ومداهن: جمع مدهن وهو حق الدهن، والغالية: أخلاط من الطيب.

(٢) المبزل: ما يصفي به الشراب وهو شبه حلمة الضرع في الدن ونحوه يسيل الشراب منه، والعيار: الكثير التحول والطواف أو الذي يتردد بلا عمل ووجه الشبه بين المبزل والخنجر: الاعوجاج فيهما، وحمل آذريونة فوق أذنه: هذه عادة الفرس يحملون هذا الورد فوق آذانهم، والعقيق: خرز أحمر.

بجوانبه أوراق متجاورة صفراء في بعض أنواعه وحمراء في بعضها الآخر، وفي وسطه قرص أسود اللون يرتفع سواده متناقصًا شيئًا فشيئًا إلى جوانب الأوراق وهو لا يملأ جوف الزهرة بل يكون منخفضًا عن مستوى الأوراق كأنه في قعرها. وبتأمل التشبيهين نجد أن ابن المعتز قد راعى اللون فحيث رأى بعض الزهور صفراء جعلها كالذهب وعندما رأى بعضها الآخر حمراء جعلها كالعقيق، ولاحظ الشكل المستدير فجعل الزهرة مرة كالمدهن ومرة كالكأس... وراعى اللون الأسود في وسط الزهرة فجعله مرة غالية ومرة مسكًا... ولاحظ أن هذا السواد لا يملأ جوف الزهرة فجعله مرة بقايا غالية ومرة مسكًا في قرارة الكأس.

أما ارتفاع السواد في تناقص تدريجي إلى جوانب الأوراق فقد لاحظه في التشبيه الأول إذ دل عليه بقوله: "بقايا غالية" وبقايا الغالية يكون سوادها إلى جانب القاع أشد ثم يخف تدريجيًا كلما ارتفعنا بالاستعمال إلى الحافة.

وهذا التدريج يساعد عليه ما في دهن الغالية من مرونة ونعومة وتلك ملاحظة دقيقة لم يراعها في التشبيه الثاني إذ دل على السواد فيه بقوله: "في قرارتها مسك" والمسك جامد لا لين فيه فإذا استقر في القاع ثبت ولم يمتد إلى جوانب الكأس كما هو شأن الغالية، ولذا كان التشبيه الأول أكثر غرابة وأكمل في استيفاء وجه الشبه بين الطرفين...

وكذا يكون قول أبي طالب الرقي:

وكـأنَّ أجـرامَ النجـومِ لوامعًـا دُرَرٌ نُثِـرْنَ عـلى بسـاطٍ أزرقِ

أعلى طبقة وأكثر غرابة من قول ذي الرمة:

كحـلاءُ في بَـرَجٍ صـفراءُ في نَعَـجٍ كأنَّهَـا فـضةٌ قـد مـسَّها ذهـبُ (١)

وترجع الغرابة هنا إلى ندرة وجود المشبه به في البيت الأول إذ لا يكاد يرى المرء دررًا منثورة على بساط أزرق ولكنه كثيرًا ما يرى في سوق الصاغة الفضة ممزوجة بالذهب إما على طريق الخلط وإما على طريق التحلية والطلاء، فالبيت

---

(١) البرج: أن يكون بياض العين محدقًا بالسواد كله لا يغيب من سوادها شيء... والنعج: البياض الخالص والمراد: أن صفرتها يشوبها بياض خالص وهو محمود فيهن.

الأول أجود لهذا من البيت الثاني وليس مرجع الغرابة والجودة إلى كثرة التفصيل والاستقصاء كما في الموازنات السابقة بل إلى ندرة وجود المشبه به.

القيمة الفنية للتشبيهات الغريبة

تعد التشبيهات البعيدة الغريبة من أبلغ التشبيهات وألطفها وأكثرها تأثيرًا في النفس لأنها تحتاج -كما قلنا- إلى إعمال الفكر وإطالة النظر في أحوال الطرفين والتفتيش في صفاتهما للوقوف على وجه الشبه بينهما والشيء إذ نيل بعد طلب وتفكير طويل يكون أوقع في النفس وأشد تأثيرًا وأرسخ في الذهن وأثبت.

وفرق بين إعمال الفكر وإطالة النظر الذي يحتاجه التشبيه البعيد وبين إطالة التفكير في التعقيد الذي يخل بفصاحة الكلام؛ لأن إطالة التفكير وإنعام النظر في التشبيه الغريب إنما هو غوص وراء المعاني اللطيفة والأسرار الدقيقة وذلك أن عدم ظهور وجه الشبه عند النظرة الأولى لا ينشأ عن خلل في بناء التشبيه وإنما ينشأ من دقة المعنى وغرابته مما يحوج إلى إطالة النظر فيما صنع الشاعر، هل استقصى الصفات الجامعة بين الطرفين أم لا؟ وإذا اشترط هنا شرطًا فهل اشترطه هناك؟ وهل لهذا الشرط مدخل في التشبيه؟ وإذا بالغ في صفة في جانب المشبه فهل راعى هذه المبالغة في الجانب الآخر، وهكذا ندور في تفتيشنا حول استقصاء جوانب الشبه واستخراج دقائق التشبيه التي لا تظهر لنا عند النظرة الأولى.

فمثلا قول البحتري في المديح:

دانٍ على أيدي العُفَاة وشاسِعٌ عن كُلِّ نِدٍّ في النَّدَى وضَريبِ

كالبدر أفرطَ في العُلُوِّ وضوؤُهُ للعُصْبَةِ السارينَ جِدُّ قريبِ

يحتاج منا إلى إطالة النظر والتأمل لندرك أنه أراد بالشسوع في جانب المشبه بعد المنزلة والمكانة لا بعد المكان، ونعرف السر في أنه قال في جانب المشبه به "أفرط في العلو" ليقابل ما أثبته في جانب المشبه من شدة البعد المعنوي عن الأنداد، ونقف على هدفه من المبالغة في قوله: "جد قريب" ليشاكل بين حالتي القرب والبعد في بلوغ كل منها حد النهاية، فإطالة النظر إذًا إنما هي للوقوف على دقة الصنع وإبراز الحسن وجمال التعبير، أما إطالة التفكير لعدم ظهور المعنى في التعقيد اللفظي

فالسبب في ذلك يُرَجح إلى خلل واقع في تركيب الكلام بعدم جريانه على قوانين النحو المشهورة في نظام بناء الجملة وترتيب أجزائها بالتقديم والتأخير ونحو ذلك، وفي التعقيد المعنوي يرجع إلى خلل في استعمال الأساليب المجازية على غير شروطها المرعية كاستعمال الاستعارة بقرينة خفية لا ينكشف بها المعنى المراد، ولذا كان التعقيد مذمومًا معيبًا لأننا نطيل النظر فيه حتى نصل إلى المراد بدون فائدة وبلا ثمرة تجنى.

وسائل التصرف في التشبيه القريب بما يجعله غريبًا:

يستطيع الأديب المتمكن أن يتصرف في التشبيه القريب المبتذل فيخرجه عن ابتذاله ويحوله إلى تشبيه غريب بعيد بإحدى الوسائل الآتية:

١-أن يثبت للمشبه به صفة لا يتأتى وصفه بها ثم ينتزعها منه ويبني على انتزاعها تفضيل المشبه على المشبه به. كقول المتنبي مادحًا:

لمْ تلقَ هذا الوجهَ شمسُ نهارِنَا إلا بوجهٍ ليس فيه حياءُ

في البيت تشبيه ضمني لوجه الممدوح بالشمس، وتشبيه الوجه بالشمس تشبيه قريب مبتذل ولكن المتنبي تصرف فيه بجعله الحياء صفة من صفات الشمس ثم انتزعها منها وجعل الشمس تفقد حياءها بجرأتها على الظهور أمام الممدوح، وهذا التصرف أكسب التشبيه غرابة وأزال عنه صفة الابتذال والقرب.

وقد يثبت الأديب الصفة ولا ينتزعها كقول أبي نواس مادحًا أيضًا:

إنَّ السحابَ لَتَستَحِيي إذا نَظَرَتْ إلى نَدَاك فقاسَتْهُ بما فِيهَا[(١)]

التشبيه في البيت ضمني كذلك وهو تشبيه للممدوح بالسحاب في الكرم والإغاثة، وتشبيه الممدوح بالسحاب تشبيه قريب مبتذل، ولكن تصرف أبي نواس وإضافته صفة الاستحياء للسحاب أزال ابتذاله وحوله إلى غريب بعيد والفرق بين هذا التشبيه وبين التشبيه في بيت المتنبي أن الصفة هنا باقية وهناك مسلوبة.

٢-أن يضيف إلى التشبيه ما يفيد تساوي الطرفين في وجه الشبه بحيث لا نستطيع أن نحدد أيهما مشبه وأيهما مشبه به.

---

(١) الندى: الكرم، وما في السحاب: هو المطر.

كقول أبي تمام:

فَرُدَّتْ علينَا الشَّمْسُ والليلُ راغمٌ بشمس لهم من جانب الخِدْر تَطْلُعُ

فوالله ما أدري: أأحلامُ نائمٍ ألَمَّتْ بنَا أم كان في الركبِ يُوشَعُ[١]

استعار لفظ "الشمس" لحبيبته الحسناء فهي استعارة مبنية على تشبيه الحسناء بالشمس وتشبيه الحسان أو وجوههن بالشمس تشبيه قريب مبتذل فصيره أبو تمام بعيدًا غريبًا بما أضافه إليه من تساؤلات تسوي بين الطرفين مبالغة في إضاءة وجه الحبيبة التي بدت من جانب الخدر فبددت ظلام الليل وبدت جوانب الأفق مضيئة ساطعة وعندئذ تعجب وتساءل في حيرة: أهذا الذي أرى حلمًا؟ أم وجه الحبيبة أزاح ظلمة الليل؟ أم كان يوشع عليه السلام في ركب القوم فردت بدعائه الشمس بعد مغيبها؟ هذا التشكك وتلك التساؤلات سوت بين الطرفين وحولت التشبيه من قريب مبتذل إلى بعيد غريب.

٣-التشبيه المشروط: وهو أن يقيد المشبه أو المشبه به بقيد يبرز فضل المشبه على المشبه به... وذلك كالتقييد بأسلوب الشرط أو الاستثناء أو الاستدراك...

ومما جاء بأسلوب الشرط قول رشيد الدين الوطواط:

عزماتُه مِثْلُ النُّجومِ ثواقبًا لو لم يكُنْ للثاقبات أُفُولُ

شبه عزائم الممدوح التي تخترق المصاعب بالنجوم التي تثقب الظلام وتبدده... وتشبيه العزائم بالنجوم قريب مبتذل فصيره الشاعر بهذا الشرط بعيدًا غريبًا إذ جعل العزائم تفوق النجوم وتفضلها؛ لأنها نافذة الأثر على الدوام والنجوم أثرها مقصور على وقت طلوعها دون وقت أفولها.

---

(١) راغم: اسم فاعل من رغم بمعنى: ذل وإنما حصل هذا لليل لزواله بطلوعها... والخدر: الستر الذي يمد للجارية أو كل ما يتوارى به... ألمت: نزلت... أم كان في الركب يوشع: يشير إلى قصة يوشع بن نون فتى موسى -عليهما السلام- واستيقافه الشمس فقد روي أنه قاتل الجبارين يوم الجمعة؛ فلما أدبرت الشمس خاف أن تغيب قبل أن يفرغ من قتالهم ويدخل في السبت فلا يحل له القتال فدعا الله فرد الشمس حتى فرغ من قتالهم.

ومن ذلك قول بديع الزمان الـهمذاني:

يكـادُ يَـحكيكَ صـوبُ الغيـثِ مُنسكبًا ... لـو كـان طَلْـقَ الْـمُحَيَّا يُمْطِـرُ الـذَّهَبا

والبدرُ لو لـمْ يِغبْ والـشمسُ لـو نطقَـتْ ... والأُسْدُ لو لـمْ تُصَدْ وَالْبَحْـر لـو عَـذُبَا (١)

فهذه التشبيهات قريبة مبتذلة ولكن الشاعر أزال ابتذالها وحولها إلى تشبيهات بعيدة بإضافة أساليب الشرط المذكورة.

ومما جاء بأسلوب الاستثناء قول أبي تمام:

مهَــا الــوحشِ إلا أنَّ هاتَــا أوانــسُ ... قنَــا الــخطِّ إلا أن تلــكَ ذوابــلُ (٢)

فتشبه النساء ببقر الوحش في جمال العيون وحسنها تشبيه قريب مبتذل وكذلك تشبيههن بالرماح الخطية في اعتدال القامة ولكن إضافة هذا الشرط "الاستثناء" حولت التشبيهين من الابتذال إلى الغرابة، فالنسوة يفضلن البقر الوحشي بالأنس والملاطفة ويفضلن الرماح بالنضارة والنعومة.

ومما جاء بأسلوب الاستدراك قول ابن بابك:

ألا يا ريـاضَ الـحزْنِ مـن أبـرقِ الـحِمَى ... نـسيمُك مـسروقٌ ووصـفُكَ مُنْتَحَـلْ

حكيــت أبــا ســعدٍ فنــشْرُكَ نــشْرُهُ ... ولكنْ لهُ صِدْقُ الـهوَى ولـك الـمْلَلْ (٣)

شبه في البيت الأول رقة نسيم الروض برقة طبع الممدوح وطيب خلقه تشبيهًا ضمنيًا مقلوبًا، ثم شبه في البيت الثاني رقة النسيم أيضًا برقة طباع الممدوح تشبيهًا صريحًا مقلوبًا: فنشرك نشره، واستدرك فجعل الممدوح أفضل من النسيم لما له من دوام المحبة وتعلق القلوب به، ولما للنسيم من الملل والسأم إذا لم تحتمله الأجساد... فالتشبيه في البيتين قد تحول من الابتذال والقرب إلى البعد والغرابة بسببين: ما شرط فيه بالاستدراك ومجيئه مقلوبًا.

---

(١) الغيث: المطر، وصوبه: عطاؤه، والمحيا: الوجه، وطلق الوجه: ضاحكه.

(٢) المها: بقر الوحشي، واحده: مهاة، والقنا: الرماح واحده قناة، والخط: اسم بلد تصنع فيها، والذوابل: الجافة.

(٣) الحزن: الأرض الغليظة المرتفعة، وأبرق الحمى: موضع، والنسيم: الرائحة، والوصف: النضارة والبهجة، ومنتحل: مدعى... والنشر: الرائحة... وصدق الهوى: ثباته، والملل: السأم.

٤-قلب التشبيه: وقد يخرج التشبيه عن الابتذال إلى الغرابة بالقلب وادعاء أن المشبه أتم من المشبه به في وجه الشبه كقول البحتري:

في طَلْعَـةِ الْبَـدْرِ شيءٌ مـن محاسـنِهَا وللقـضيبِ نَـصِيبٌ مـن تَثَنِّيهَـا (١)

شبه طلعة البدر بمحاسن المرأة، وتثني القضيب بتثنيها تشبيهًا ضمنيًا مقلوبًا، والتشبيه المقلوب يفيد المبالغة بجعل الأصل في وجه الشبه فرعًا والفرع أصلا، وقد ازدادت هذه المبالغة بقوله: "شيء من محاسنها" و"نصيب من تثنيها" وكأن الشبه بينهما لا يتحقق إلا بقليل من الحسن وشيء يسير من التثني وبهذا تحول التشبيه من الابتذال إلى الغرابة.

ومنه قول ابن وهيب:

وبـدَا الـصَّبَاحُ كـأنَّ غُرَّتَـهُ وَجْـهُ الـخليفةِ حـينَ يُمتـدَحُ (٢)

فتشبيه وجه الخليفة بغرة الصباح تشبيه قريب مبتذل ولكن الشاعر حوله إلى تشبيه غريب عن طريق القلب بادعاء أن وجه الخليفة أصل في الإشراق والضياء.

٥-الجمع بين عدة تشبيهات: وكذلك يخرج التشبيه عن الابتذال بجمع عدة تشبيهات تدور كلها في نطاق واحد... كقول البحتري:

كـأنَّما يَبْـسِمُ عـن لُؤْلُـؤٍ مُنَـضَّدٍ أوْ بَـرَدٍ أوْ أقَـاحْ

شبه ثغر المرأة المبتسم باللؤلؤ المنظوم والبرد والأقاح وبهذا الجمع تحول التشبيه إلى الغرابة والبعد..

وكقول امرئ القيس:

لـه أيطـلاَ ظَبْـيٍ وسـاقا نعامـةٍ وإرخـاءُ سِرْحـانٍ وتقريـبُ تَتْفُـلِ (٣)

---

(١) المحاسن: جمع حسن على غير قياس؛ لأنه لا واحد له من لفظه، والقضيب: الغصن، وتثنيها تمايلها وتبخترها.

(٢) الغرة في الأصل: البياض في جبهة الفرس وقد استعيرت هنا لبياض الصبح.

(٣) أيطلا الظبي: خاصرتاه، والسرحان: الذئب، وإرخاؤه: جريه في سهولة، والتتفل: ولد الثعلب، وتقريبه: عدوه بأن يرفع يديه معا وينزلهما معا عند جريه أو عدوه.

شبه خاصرتي جواده بخاصرتي الظبي في الضمور وساقيه بساقي النعامة في الصلابة والمتانة، وجريه بإرخاء السرحان في السهولة واللين وعدوه في سرعة بتقريب ولد الثعلب وكلها تشبيهات تدور حول الفرس فصارت بهذا الجمع بعيدة غريبة وازدادت لطفًا وحسنًا.

☆☆☆

مبحث أدوات التشبيه

أدوات التشبيه: ألفاظ تدل على المماثلة والاشتراك بين أمرين وهي حروف وأسماء وأفعال، فالحروف هي: الكاف وكأن: أما الكاف: فهي الأصل لبساطتها وتفيد المشابهة في جميع استعمالاتها، والأصل فيها أن يليها المشبه به كقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾(١)، وكقول المعري:

أنتَ كالشمسِ في الضياءِ وإن جاوزْ ... تَ كِيوانَ في عُلُوِّ المكانِ(٢)

فلفظ: "الأعلام" في الآية الكريمة ولفظ "الشمس" في البيت قد وليا الكاف وهما مشبه بهما، فإن وليها غير المشبه به كان مقدرًا بعدها كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾(٣)، فالمشبه به في الآية محذوف تقديره: أو كمثل ذوي صيب بدليل قوله في الآية: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ وقوله في الآية قبلها ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾(٤)، فالآيات مسوقة لبيان حال المنافقين فيما يكابدونه من حيرة وشدة بسبب ظهور نفاقهم بعد أن توهموا أنهم قد أمنوا على حياتهم بإظهار الإسلام وقد مثلوا أولا بحال من هو في أشد الحاجة إلى النار فاستوقدها فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون، ثم مثلوا ثانيا بحال قوم أصابهم مطر شديد فيه ظلمات ورعد وبرق وصواعق مهلكة تهدد حياتهم بالموت، وكانوا يتوقعون فيه النفع والرخاء.

ونظير ذلك في دخول الكاف على مشبه به مقدر قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ﴾(٥)، إذ لا شبه بين كون المسلمين أنصار الله وقول عيسى، وإنما الشبه بين كونهم أنصارًا للنبي ﷺ وكون الحواريين أنصارًا لعيسى، فوجب أن يكون التقدير:

---

(١) سورة الرحمن: ٢٤.

(٢) كيوان: زحل وهو أعلى الكواكب السيارة.

(٣) سورة البقرة: ١٩.

(٤) سورة البقرة: ١٧.

(٥) سورة الصف: ١٤.

كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصاره حين قال لهم عيسى ابن مريم: من أنصاري إلى الله.

وقد يليها مفرد لا يتأتى التشبيه به وذلك إذا كان المشبه به مركبًا ويكون هذا المفرد له اتصال وثيق بالمشبه به المركب، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ (١).

فليس المراد تشبيه حال الدنيا بالماء، بل المراد تشبيه حالها في نضرتها وبهجتها وما يعقبها من الهلاك والفناء بالهيئة الحاصلة من كون النبات بعد نزول الماء شديد النضرة والاخضرار ثم بعد ذلك تراه قد يبس فتطيره الرياح كأن لم يكن، ووجه الشبه: التلف والهلاك عقب الإعجاب والاستحسان، فالكاف هنا لم تدخل على المشبه به وهو النبات، وإنما دخلت على لفظ الماء باعتباره عنصرًا مهمًا في تكوين النبات وأوراقه وفروعه وثماره.

وأما كأن فإنها تفيد المشابهة غالبًا وذلك إذا كان خبرها جامدًا، ويليها المشبه نحو قوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ (٢).

وقولنا: كأن النجوم مصابيح، يقول امرؤ القيس:

نظرتُ إليهَا والنجومُ كأنَّهَا مصابيحُ رهبانٍ تُشَبَّ لِقُفَّالِ

شبه النجوم بمصابيح رهبان لفرط ضيائها وتعهد الرهبان لمصابيحهم وقيامهم عليها لتزهر حتى الصباح فكذلك النجوم زاهرة طوال الليل وتتضاءل للصباح كتضاؤل المصابيح له.

فإذا كان خبرها مشتقًا فالأرجح أنها لا تفيد المشابهة، وإنما تفيد الظن بوقوع الخبر الذي بعدها نحو قولنا: كأن زيدًا قائم وكأن السماء ممطرة، فالمعنى أننا نظن قيام زيد ونظن إمطار السماء لأن قائمًا صادق على زيد وممطرة صادقة على السماء ولا معنى لتشبيه الشيء بنفسه.

---

(١) سورة الكهف: ٤٥.

(٢) سورة القمر: ٧.

والأسماء التي تفيد التشبيه هي: مثل وشبه ومماثل ومحاك ومشابه ومضاهٍ ونحوها مما يؤدي معنى المشابهة، فإن كان الاسم جامدًا وليه المشبه به نحو: هذا الرجل مثل الأسد وشبه البدر وإن كان مشتقًا وليه المشبه نحو: أنت مماثل الأسد ومحاك البدر ومشابه عمرًا ومضاه حاتمًا، فقد ولي الاسم في هذه الأمثلة الضمير العائد على المشبه.

والأفعال التي تفيد التشبيه هي: شابه وحاكى ويشابه ويضاهي ونحوها من الأفعال المتعدية الدالة على معنى المشابهة، فإن كانت الأفعال لازمة كتشابه وتماثل فإنها لا تدل على التشبيه لأن التشبيه يقتضي إلحاق الأدنى في وجه الشبه بالأعلى حقيقة أو ادعاء وهذه الأفعال اللازمة إنما تدل على وجود التشابه بين الشيئين المقتضى مساواة كل واحد منهما للآخر في وجه الشبه، فقولنا تشابه عمرو وبكر في الوفاء، المعنى أنهما تساويا فيه وليس أحدهما أعلى منزلة من الآخر، والأمر ليس كذلك إذا قلنا: عمرو يشبه بكرًا لأنه يفيد أن بكرًا أعلى مرتبة في وجه الشبه من عمرو، ولذا شبه به.

وقد يذكر فعل ينبئ عن التشبه نحو علم وتيقن إن قرب وجه الشبه وحقق وحسب وخال وظن إن بعد وجه الشبه عن التحقيق وخفي عن الإدراك فيقال: علمت محمدًا بحرًا وتيقنت أنه حاتم وحسبت عمرًا أسدًا، وخلته حاتمًا وظننته إياسًا، وإنمـا قلنا: إن هذه الأفعال تبنئ عن التشبيه لأن التشبيه في الواقع مستفاد من الأداة المقدرة فيه كما في نحو: محمد أسد وعمرو بحر.

هذا وتختلف أدوات التشبيه في الدلالة عليه فما كان من التشبيه صادقًا قلت في وصفه: كأنه كذا أو هو ككذا أو يشبه أو يماثل أو شبه كذا أو علمته بحرًا، ورأيته غيثًا، وتيقنت أنه حاتم، ونحو ذلك من الأفعال التي تنبئ بالتشبيه وتدل على اليقين... وما قارب الصدق قلت فيه: تراه أو تخاله أو تحسبه أو يكاد ونحوها من الأفعال التي ترشد إلى التشبيه وتدل على الظن والرجحان أو المقاربة، وقد علمت أن التشبيه لم يفد بهذه الأفعال وإنما أفيد بأداة مقدرة(١).

---

(١) انظر: عيار الشعر، ص ٢٤.

التشبيه المرسل والتشبيه المؤكد

ينقسم التشبيه باعتبار ذكر أداته وحذفها إلى قسمين: تشبيه مرسل وتشبيه مؤكد.

فالتشبيه المرسل: ما ذكرت فيه أداة التشبيه نحو: أنت كالأسد ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾(١).

وقوله عز وجل: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾(٢)، وكقول امرئ القيس:

وتَعطُــو بِــرَخْصٍ غــير شَــثْنٍ كأنَّــه   أســاريعُ ظَبْــيٍ أو مسَاويكُ إسْـحِلِ(٣)

والتشبيه المؤكد: ما حذفت منه أداة التشبيه كقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾(٤)، أي: تمر مرًا كمر السحاب.

كيف تبنى جملة التشبيه المؤكد؟

يختلف بناء جمل التشبيه المؤكد باختلاف الصيغ التعبيرية التي تدل على التشبيه وهي كثيرة أبرزها ما يلي:

١ -أن يقع المشبه به خبرًا للمشبه سواء كان المشبه مذكورًا في الكلام كقول الحماسي:

هُــمُ البحــورُ عطــاءً حــينَ تــسألُهُم   وفي اللقــاءِ إذا تلقَــى بِهِــم بُهَــمُ(٥)

وقول امرئ القيس:

فعينــاكَ غربَــا جَــدْوَلٍ في مفاضَــةٍ   كمــرِّ الــخليجِ في صــفيحٍ مُــصَوَّبِ(٦)

---

(١) سورة الفيل الآية: ٥.

(٢) سورة الحديد الآية: ٢١.

(٣) تعطو: تتناول: والرخص: اللين وصف لأصبعها، والشثن: الغليظ، والأساريع: جمع أسروع وهو دود يكون في البقل والأماكن الرطبة أبيض اللون معتدل الطول ناعم الملمس محمر الرأس تشبه به أنامل النساء، وظبي: اسم موضع، والإسحل: شجر له غصون يستاك بها.

(٤) سورة النمل الآية: ٨٨.

(٥) البهم: واحده بهمة، وهو الشحاح الذي لا يدري كيف يؤتى لاستبهام شأنه.

(٦) الغربان: الدلوان، والمفاضة: الأرض الواسعة، والجدول: النهر الصغير وأراد به هنا: البئر، الخليج: النهر الصغير الذي يتفرع من النهر الأعظم والمراد به هنا: مجرى الماء إلى الروضة، والصفيح: حجارة كبيرة على جانبي الجدول لئلا يتهدم، والمصوب: المنحدر، وهو أسرع لجري الـمـاء.

شبه سيلان الدموع من العينين بسيلان الماء من غربي الجدول وأداة التشبيه محذوفة وقد وقع المشبه به خبرًا للمشبه كما في البيت السابق: "هم البحور" فهما تشبيهان مؤكدان ثم شبه سرعة جريان الدموع من العينين بسرعة مر الماء في الخليج المنحدر تشبيهًا مرسلاً لأن الأداة مذكورة كما ترى...

أو كان المشبه مقدرًا كما في قوله تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[١]، وكقول عمران بن حطان:

أسدٌ عليَّ وفي الحروبِ نَعَامَةٌ فَتْخَاءُ تَنْفِرُ من صَفِيرِ الصَّافِرِ

فالمشبه مبتدأ محذوف تقديره: هم صم: وهو أسد... ونعامة وقد وقع المشبه به خبرًا له.

٢-أن يقع المشبه به حالاً صاحبها هو المشبه كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾[٢]، فقد شبه النبي -عليه الصلاة والسلام- بالسراج المنير والمشبه به حال وصاحب الحال هو الضمير المنصوب في قوله تعالى: "أرسلناك" العائد على النبي -عليه الصلاة والسلام.

٣-أن يقع المشبه به مضافًا إلى المشبه كقول ابن خفاجة الأندلسي:

والريحُ تعبثُ بالغصونِ وقدْ جرَى ذهبُ الأَصِيلِ علَى لُجَينِ الماءِ[٣]

شبه الماء باللجين وقد وقع المشبه به "اللجين" مضافًا إلى المشبه "الماء" أما ذهب الأصيل؛ فإن أريد بالأصيل أشعة الشمس قبيل الغروب فهي مشبه والذهب مشبه به ويكون من إضافة المشبه به إلى المشبه وإن أريد بالأصيل: الوقت: كانت الجملة من قبيل الاستعارة، ويكون هدف الشاعر أن يعبر عن صفرة شعاع الشمس في هذا الوقت فشبهه بالذهب واستعار له لفظ الذهب على سبيل الاستعارة التصريحية...

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨.

(٢) سورة الأحزاب الآيات: ٤٥-٤٦.

(٣) الأصيل: المراد بها إما أشعة الشمس قبيل الغروب وإما الوقت ما بين العصر والمغرب. واللجين: الفضة الذائبة.

ومنه قول ابن حمديس الصقلي يصف تقوس الهلال:

كـأنَّما أدهـمُ الإظـلامِ حـينَ نَجَـا   من أشهبِ الصبحِ أَلقَى نعلَ حافرِهِ(١)

شبه ظلام الليل بالفرس الأدهم والصبح بالفرس الأشهب وقد وقع المشبه به مضافًا إلى المشبه في التشبيهين ثم استعار نعل الحافر للهلال، وفي البيت تخييل حسن بديع حيث صور الشاعر لنا معركة بين الليل والصبح انتصر فيها الصبح وفر الليل منزعجًا من مطاردة الصبح له واستعان الليل على سرعة الفرار والهرب بإلقاء نعله ليكون ذلك عونًا له على سرعة الفرار والنجاة، وقد أخذ الشاعر من مخلفات المعركة نعل حافر الفرس فشبه به الهلال وبنى على التشبيه استعارته الغريبة.

ومثله قول الشريف الرضي يدعو الله أن يرطب قبور أحبابه:

أرسَـى النـسيمُ بـواديكُم ولا برحـتْ   حوامـلُ الـمزنِ في أجـداثكُم تـضعُ
ولا يـزال جنـينُ النَّبْـتِ تُرضِـعُهُ   عـلى قبـورِكُم العرَّاضـةُ الْـهَمِعُ(٢)

شبه المزن بالحوامل والنبت بالجنين وقد وقع المشبه به وهو "الحوامل والجنين" مضافا إلى المشبه، وهو "المزن" و "النبت".

والمعنى: ما زال السحاب الممتلئ بالماء الشبيه بالحوامل الممتلئة بطونها بالأجنة يسقط على قبوركم، ولا يزال النبات الأخضر المورق الشبيه بالأجنة الصغيرة يرويه على قبوركم السحاب الممطر.

أما الوضع والإرضاع فهما ترشيح للتشبيه ويجوز أن نجعل كلا منهما استعارة مستقلة بأن نشبه سقوط الأمطار من السحاب بوضع المرأة جنينها، وتغذية الماء النازل من السحاب للنبات بإرضاع الأم ولدها باللبن ثم حذف المشبه واشتق من المشبه به "الوضع والإرضاع" تضع وترضع على سبيل الاستعارة التبعية.

---

(١) الأدهم: الفرس الأسود، والأشهب: الفرس الأبيض، والمراد تشبيه الليل بالفرس الأدهم والصبح بالفرس الأشهب، وقد استعير النعل الذي يكون في رجل الفرس للهلال لمشابهته له في الدقة والانعطاف.

(٢) أرسى: ثبت، وهي جملة دعائية، والمزن: السحاب ذو الماء، والأجداث: القبور، والعراضة: السحاب العريض، والهمع: الممطر.

ومنه قول البحتري:

غَمَامُ سَمَاحٍ مَا يَغُبُّ لَهُ حَيًا ومُسعِرُ حرب مَا يَضِيعُ لَهُ وِتْرُ[١]

شبه السماح بالغمام، وقد جاء المشبه به "الغمام" مضافًا إلى المشبه وهو "السماح".

٤-أن يقع المشبه والمشبه به مفعولين لفعل من الأفعال التي تنصب مفعولين مثل: علم ورأى وحسب وظن وخال ونحوها، فهذه الأفعال تنبئ بالتشبيه وترشد إليه وليست أدوات تشبيه بل الأداة تكون مقدرة، من ذلك قولنا: علمت محمدًا بحرًا ورأيته أسدًا وحسبت الرجل شمسًا وخلته بدرًا وظننته كوكبًا، فقد وقع كل من المشبه والمشبه به مفعولين للأفعال المذكورة وهذه الأفعال قد أنبأت بالتشبيه، أما الأداة فهي مقدرة والتقدير: علمت محمدًا كالبحر... وكالأسد... إلخ.

ومن ذلك قول البحتري:

وإذا الأَسِنَّةُ خالطَتْهَا خِلْتَهَا فيهَا خَيَالَ كَوَاكِبٍ في السماءِ[٢]

شبه الأسنة إذا خالطت الدروع بخيال الكواكب تبدو في الماء بجامع الصفاء واللمعان فالمشبه هو الضمير المنصوب في "خلتها" العائد على الأسنة مع الجار والمجزور "فيها" والضمير في "فيها" يعود إلى الدروع، والمشبه به: "خيال كواكب في الماء" ولا يخفي أن المشبه والمشبه به قد وقعا مفعولين للفعل "خال" الذي أرشد إلى التشبيه وأن أداة التشبيه هي الكاف المقدرة والتقدير: خلتها فيها كخيال كواكب في السماء.

---

(١) السماح: الجود والكرم، ومسعر الحرب: مشعلها، والوتر: الثأر. والحيا: المطر، ويغب: يجيء يومًا وينقطع يومًا.

(٢) الأسنة: الرماح، والضمير في خالطتها يعود إلى الدروع وفي خلتها للأسنة، يريد تشبيه الرماح إذا خالطت الدروع بخيال الكواكب حين يبدو في الماء؛ لأن الأسنة تكون لامعة كالكواكب والدروع تكون صافية كالماء.

مبحث أغراض التشبيه

هنالك مزايا يقصد إلى تحقيقها بالتشبيه، وتعرف تلك المزايا بالغرض منه أو الأسباب والدواعي التي تحمل الأديب على عقد التشبيه أو الغاية التي يرمي إليها البليغ بتشبيهه ويقصد إلى تحقيقها أو الفائدة التي يريد المتكلم أن يوصلها إلى السامع باستخدام الأسلوب التشبيهي، وهذه الأغراض تعود في الغالب إلى المشبه وقد يرجع بعضها إلى المشبه به.

الأغراض العائدة على المشبه:

١ -بيان إمكان وجوده، وذلك إذا كان المشبه من الأمور الغريبة التي يستبعد حصولها ويدعي استحالتها، كما في قول المتنبي:

فإنْ تَفُقِ الأنامَ وأنتَ مِنْهُمْ ... فإنَّ المسكَ بعضُ دم الغزَالِ

ادعى المتنبي أن ممدوحه قد تناهى في الصفات الفاضلة إلى حد صار به جنسًا منفردًا بذاته أشرف من جنس الإنسان وهو في الواقع منهم، وهذه دعوى بعيدة غريبة تحتاج إلى بيان إمكانها وإثبات أن لها نظيرًا في الموجودات الثابتة... ولذا قال: "فإن المسك بعض دم الغزال" وعلى الرغم من أنه من جنس الدماء؛ إلا أنه تناهى في الصفات الشريفة إلى حد يتوهم لأجله أنه نوع آخر غير الدم لتفوقه بشرف رائحته، والتشبيه في البيت ضمني، المشبه: حال الممدوح في تفوقه على أهل زمانه تفوقًا صار به كأنه جنس منفصل عنهم، والمشبه به: حال المسك في تفوقه بشرف رائحته على الدماء حتى صار كأنه جنس آخر.

ووجه الشبه: خروج بعض أفراد الجنس بفضائله عن جنسه مع ملاحظة الأصل في بقائه داخل الجنس بالانتساب إليه.

والغرض من التشبيه: بيان إمكان المشبه بإثبات نظير له كما بينا.

ومن ذلك قول البحتري:

دانٍ على أيدي العُفاة وشاسعٌ ... عن كلِّ نِدٍّ في النَّدى وضريبِ

كالبدر أفرطَ في العُلُوِّ وضوْؤه ... للعُصْبَةِ السارينَ جِدُّ قريبِ

وصف الممدوح بصفتين متناقضتين في الظاهر ثم زال هذا التناقض الظاهري بالمشبه به الذي بين أنَّ لما ادعاه الشاعر نظيرًا في الوجود.

وقول ابن الرومي:

قالوا: أبو الصقرِ من شيبانَ قلتُ لهم ... كَلاَّ لعَمري ولكن منه شَيْبَانُ

كَمْ من أبٍ قد عَلا بابنٍ ذُرَا شرفٍ ... كمَا علا برسولِ الله عدنانُ

فالمشبه: أبو الصقر وقد شرفت به قبيلته وتلك دعوى غريبة؛ لأن العادة أن يشرف الفرع بالأصل لا العكس ولكن المشبه به وهو رسول الله ﷺ وقد شرفت به عدنان أي العرب قاطبة قد أزال هذه الغرابة إذ بين أن لها نظيرًا في الوجود.

٢-بيان حال المشبه بمعنى إيضاح صفته وذلك إذا كانت صفة المشبه مجهولة وحاله غير معلومة للمخاطب فيقصد المتكلم إلى بيان هذه الصفة وإيضاح تلك الحال... من ذلك قول الأعشى:

كأنَّ مِشْيَتَها من بيتِ جارتِهَا ... مرُّ السحابةِ لا ريثٌ ولا عَجَلُ

شبه مشية المرأة من بيت الجارة حين تزورها بمرور السحابة التي تحمل المطر والغرض بيان حال المشبه... وقول الآخر:

كأنَّ سُهَيْلاً والنُّجُومُ وراءَهُ ... صفوفُ صلاةٍ قامَ فيهَا إمامُهَا

شبه هيئة سهيل وقد تقدم النجوم بهيئة الإمام يتقدم الصفوف في الصلاة والغرض بيان حال المشبه وإبراز هيئته.

ومن ذلك تشبيه الشعر بالليل في السواد والوجه بالبدر في الإشراق والخد بالورد في الحمرة، فهذه التشبيهات أفادت المخاطب لون الشعر وإشراق الوجه وحمرة الخد فاتضح لديه حال المشبه وبانت عنده صفته.

٣-بيان مقدار الحال وذلك إذا كانت صفته معلومة للمخاطب والمجهول مقدارها من القوة والضعف أو الزيادة والنقصان.

من ذلك قولنا: سواد هذا الشعر كسواد الليل وحمرة هذا الوجه كحمرة الورد

فالمخاطب يدرك من التشبيه هنا مقدار السواد والحمرة لا نفس الصفة، ومنه قول الحسن بن وهب:

مِـدَادٌ مثـلُ خَافِيـةِ الْغُـرَابِ   وأَقْـلامٌ كمُرْهَفَـةِ الْـحِدادِ[١]

فسواد المداد معلوم والتشبيه أفاد شدته، ورهافة الأقلام معروفة والتشبيه أفاد عظم دقتها، وقول الآخر:

أصبحتُ من ليلى الغداةَ كقابضٍ   على الماءِ خانتْهُ فروجُ الأصابعِ

أفاد التشبيه مقدار حاله في علاقته بفتاته وأنه بلغ أقصى غاية في الحرمان وخيبة الأمل.

٤-تأكيد حال المشبه وتقريرها في نفس السامع، وذلك إذا كان كل من الحال ومقدارها معلومًا وأريد بالتشبيه تأكيد اتصاف المشبه بالصفة كتشبيه من لا يحصل من سعيه على طائل بالراقم على الماء وبالقابض عليه، وتشبيه الحائر الذي يتخبط في أمره بالتائه في صحراء مظلمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾[٢]، بين التشبيه في الآية ما لم تجر به العادة وهو رفع جبل الطور فوق رءوس اليهود بما جرت به العادة وهو الغمامة أو المظلة لتأكيد وتقرير هذا الأمر الحاصل.

وقول ابن الرومي:

بَذَلَ الوعدَ للأخلاَّءِ سمحًا   وأبى بعدَ ذلك بَذْلَ العطاءِ

فغَدَا كالْخِلافِ يُورقُ للعيـ   ـنِ ويأبىَ الإثمارَ كلَّ الإباءِ[٣]

فالشاعر بين في البيت الأول صفة المشبه ومقدارها من بذل الوعود وعدم الوفاء بها ثم جاء بالمشبه به في البيت الثاني ليقرر ذلك ويؤكده.

٥-تزيين المشبه وتجميله، وذلك عند إرادة مدحه والترغيب فيه.

---

(١) الخافية: إحدى ريشات عشر في مقدم الجناح يقال لها خواف. والمرهفة: المدقة، والحداد جمع حديد وهو القاطع يعني السيوف القواطع.

(٢) سورة الأعراف: ١٧١.

(٣) الخلاف: صنف من الصفصاف وليس به، وهو يورق ولا يثمر سمي خلافًا لأن السيل يأتي به سبيًا فينبت من خلاف أصله.

كقول النابغة مادحًا:

فإنَّك شمسٌ والملوكُ كواكِبٌ ... إذا طلعتْ لمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وقول الآخر يصف جارية سوداء:

أَكْسَبَهَا الحبُّ أنهَا صُبِغَتْ ... صِبْغَةَ حبِّ القلوبِ وَالْحَدَقِ

قصد من التشبيه في البيتين تزيين المشبه للترغيب فيه.

٦-تشويه المشبه وتقبيحه وذلك عند إرادة الذم والتنفير منه كقول الشاعر:

وإذا أشَارَ محَدِّثًا فكأنَّهُ ... قردٌ يقهقِهُ أو عجوزٌ تَلْطِمُ

وقول الآخر في وصف مغن مقبحًا صوته:

وإنْ شَدَا فصوتُهُ ... صوتُ دجاجٍ يُمسَكُ

وكقوله في تشويه الأنامل وتقبيحها:

وترىَ أنامِلَهَا دَبَّتْ على مِزمَارِهَا ... كخنافسٍ دبَّتْ علىَ أَوْتَارِ

فهذه التشبيهات قد أبرزت المشبه في صورة مشوهة قبيحة، وقد أشار ابن الرومي إلى الغرضين السابقين بقوله:

تقول هذا مجُاجُ النحلِ تمدحُهُ ... وإنْ تعبْ قلتَ ذا قَيْءُ الزَّنَابيرِ (١)

فعند إرادة تزيين الريق وتجميله تصفه بمجاج النحل وعند إرادة تقبيحه والتنفير منه تشبهه بقيء الزنبور.

٧-إثارة الشعور باستحسان المشبه واستطرافه: وذلك بأن يكون المشبه به ممتنعًا يندر خطوره بالبال لكونه لا وجود له في الواقع أو للبعد بين المشبه والمشبه به في الجنس، فيظهر المشبه عندئذ في صورة الشيء العجيب الذي يثير في النفس كوامن الاستحسان والإعجاب.

من ذلك تشبيه فحم فيه جمر متقد ببحر من المسك موجه الذهب، وتشبيه

---

(١) المحاج: الريق ترمي به من فمك، ومجاج النحل: عسله، والزنابير جمع زنبور وهو: ذباب أليم اللسع من النحل وغيره.

محمر الشقيق بأعلام من ياقوت منشورة على رماح من زبرجد، وتشبيه النيلوفر بدبابيس عسجد قطبها من زبرجد، وتشبيه النجوم في أديم السماء بدرر نُثِرن على بساط أزرق، ففي هذه التشبيهات نجد المشبه به من المركبات الخيالية التي يندر خطورها بالذهن ولذا برز المشبه في صورة عجيبة ممتنعة تثير في النفس كوامن الاستحسان والإعجاب والاستطراف.

ومن التشبيهات التي جمع فيها الشاعر بين طرفين متباعدين في الجنس فأثار بهذا الجمع استحسان النفس واستطرافها للمشبه، تشبيه الثريا بعنقود العنب المنور، وتشبيه البرق بمصحف القارئ، وتشبيه زهر البنفسج بأوائل النار في أطراف كبريت وتشبيه الفرس بجلمود الصخر(١).

فمجيء المشبه به في هذه التشبيهات من جنس بعيد عن جنس المشبه يجعل حضور المشبه به وخطوره بالبال نادرًا عند حضور المشبه فيه، الأمر الذي يحتاج من الأديب إلى إطالة النظر ليجمع بين الطرفين المتباعدين ومن هنا كان استحسان المشبه واستطرافه.

ومما جاء من ذلك أيضًا قول عدي بن الرقاع:

تُزْجِي أَغَنَّ كأن إِبْرَةَ رَوْقِهِ قَلَمٌ أصابَ من الدواةِ مِدَادَها(٢)

شبه الشاعر طرف قرن الظبية بقلم أصاب من الدواة مدادًا ولا يخطر ببال أحد وبخاصة إذا كان بدويًا أميًا لم يمارس الكتابة والقلم، لا يخطر بباله عندما يرى قرن الظبية أقلام ومداد الدواة ولذلك نجد جريرًا قد أشفق على عدي حين سمع الشطر الأول من البيت، وقال: ماذا يقول هذا الأعرابي الجلف بعد ذلك وبم يشبه؟ فلما قال: "قلم أصاب من الدواة مدادها" فجاء بالمشبه به من مكان أبعد ما يكون صلة بالمشبه مع إحكام وجه الشبه بين الطرفين تحولت شفقة جرير على عدي إلى حسد له لأنه أحس بفطنته وبمقدرته على الإتيان بما لا يستطيع هو أن يأتي به(٣).

---

(١) قد مرت بك هذه التشبيهات فارجع إليها.

(٢) تزجي: تسوق والضمير للظبية، والأغن: الذي في صوته غنة وهو ولدها، والروق: القرن، وإبرته: طرفه.

(٣) انظر الإيضاح جـ ٣ ص ٤٣.

وهكذا كلما تباعد الطرفان في الجنس أثار التشبيه في النفس كوامن الاستحسان والاستطراف لأنه يرينا الشيئين مثلين متباينين ومختلفين مؤتلفين ويرينا الصورة الواحدة في السماء والأرض وفي خلقة الإنسان وخلال الروض، ومبنى الطباع على أن الشيء إذا برز من مكان لم يعهد ظهوره منه وخرج من موضع ليس بمعدن له، كانت النفس به أشغف وأعجب.

وأعجب من هذا إذا شبه الشيء الواحد بضدين في آن واحد كما يقال في المدح: هو حياة لأوليائه موت لأعدائه وكقول أبي علي محمد بن الحسين:

أنَا نارٌ في مُرتَقَى نظرِ الحا سدِ ماءٌ جارٍ مع الإخوانِ

وقول أبي تمام في صفة الشيب:

لَهُ منظرٌ في العين أبيضُ ناصعٌ ولكنَّهُ في القلب أسودُ أَسْفَعُ[١]

وتشبيه الشيء الواحد بضدين يبرز المشبه في صورة عجيبة غريبة ويثير في النفس كوامن الاستحسان والتعجب والاستطراف[٢].

ما الذي يشترط في وجه الشبه لتحقيق تلك الأغراض؟

يرى بعض البلاغيين أن تحقيق تلك الأغراض وإفادتها إفادة تامة يقتضي أن يكون وجود وجه الشبه في المشبه به أقوى وأتم وأشهر وأعرف من وجوده في المشبه، فإذا قلنا: هذا الرجل كالأسد شجاعة، وجب أن يكون وجود الشجاعة في الأسد أقوى وأكمل من وجودها في الرجل الشجاع، وكذا يشترط أن يكون اتصاف الأسد بها أشهر وأعرف عند الناس وأظهر وأوضح لديهم من اتصاف الرجل الشجاع بها[٣].

ولكن الأرجح وما عليه أكثر البلاغيين أن هذا الحكم ليس على إطلاقه فالذي يشترط في وجه الشبه كي تتحقق هذه الأغراض أن يكون وجوده في المشبه به

---

(١) الأسفع: الأسود المشرب بحمرة والاسم منه: السفعة.

(٢) انظر أسرار البلاغة، ج ١ ص ٢٤٦ - ٢٤٨.

(٣) انظر الإيضاح ج٣ ص ٤٠.

أشهر وأعرف وأظهر وأوضح لأننا نلحق الغامض بالواضح كي يتضح الغامض فإذا كان الوجه في المشبه به أقل وضوحًا منه في المشبه ما صلح أن يكون بيانًا له، أما من حيث القوة والكمال فالأمر يختلف حسب الغرض المراد من التشبيه فإذا كان الغرض تقدير وتأكيد ثبوت الصفة فلابد أن يكون وجه الشبه أقوى وأتم في المشبه به من المشبه؛ لأن الضعيف لا يصلح أن يكون مؤكدًا ومقررًا لما هو أكمل منه وأقوى، وإذا كان الغرض بيان المقدار فهو يحتاج إلى تساوي الطرفين في وجه الشبه كي يتضح المقدار ولذا ينبغي أن يكون المشبه والمشبه به على قدر سواء في الاتصاف بوجه الشبه، وإذا كان الغرض بيان إمكان المشبه فيكفي لإثبات إمكانه أن يوجد المشبه به وأن يحصل في الخارج قويًا كان أو ضعيفًا، أما إذا كان الغرض تزيين المشبه أو تقبيحه أو استطرافه أو بيان حاله فيكفي لتحقيق هذه الأغراض وضوح وجه الشبه في المشبه به دون حاجة إلى زيادته وقوته، بل قد يكون وجه الشبه في المشبه أقوى وأكمل منه في المشبه به كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾(١)، إذ لا يتأتى أن يكون نور المصباح في المشكاة أقوى وأكمل من نور الله –جل جلاله– ولا مساويا له بل هو أضعف منه وأنقص كما لا يخفى.

ومن ذلك قول أبي تمام في مدح أحمد بن المعتصم:

إقدامُ عمرٍو في سماحةِ حاتمٍ ... في حلمِ أحنفَ في ذكاءِ إياسِ

فالمقام يقتضي أن يكون اتصاف الأمير أحمد بوجه الشبه أقوى وأتم من اتصاف هؤلاء المذكورين به ولذا لما أخذ على أبي تمام أن الأمير أكبر من أن يشبه في ذلك بهؤلاء أنشد مرتجلاً.

لا تُنْكِرُوا ضربي لَهُ مَنْ دُونَهُ ... مَثَلاً شَرُودا في النَّدَى والْباسِ

فاللهُ قَدْ ضربَ الأقلَّ لِنُورِهِ ... مَثلاً من المشكاةِ والنِّبْرَاسِ

وخلاصة القول في هذا أن وجه الشبه من حيث الشهرة والوضوح يجب أن

---

(١) سورة النور: ٣٥.

يكون في المشبه به أشهر وأعرف وأظهر وأوضح حتى يتحقق الغرض من التشبيه أيا كان هذا الغرض ومن حيث القوة والكمال يختلف وجوده حسب الغرض المراد من التشبيه كما بينا.

نقد وموازنة:

وبناء على ما اشترط في وجه الشبه ضعف النقاد قول البحتري في وصف ظلام الليل وبيان مقدار سواده:

عـلى بـابِ قِنَّسْرِينَ والليـلُ لاطـخٌ ... جوانبَـهُ مـن ظلمـةٍ بمـدادِ[١]

أراد أنه سهر مع إخوانه على باب هذه المدينة بعد أن نام الناس وغابت أعين الرقباء واسودت جوانب الأفق؛ ثم أراد أن يعبر عن شدة سواد الليل ومقدار حلوكه فشبهه بالمداد الأسود والمداد أقل شهرة في صفة السواد من الليل كما أنه أقل منه في شدة السواد وبهذا لا يكون التشبيه محققًا للغرض منه وهو بيان مقدار الصفة في المشبه... واستحسنوا في ذلك قول ابن الرومي:

حِبْرُ أبي حَفْصٍ لُعَابُ اللَّيْلِ ... كأنَّهُ ألوانُ دُهْمِ الْخَيْلِ

يَسِيلُ للإخْوانِ أيَّ سَيْلِ ... بغيرِ وزنٍ وبغيرِ كَيْلِ[٢]

حيث شبه الحبر بظلمة الليل فحقق بذلك الغرض من التشبيه وهو بيان مقدار سواد الحبر واستوفى الشرط الذي يقتضيه بيان المقدار من كون وجه الشبه في المشبه به أشهر وأظهر إذ الليل أشهر في الظلام من الحبر، ومن وجوده على التساوي في الشدة في كل منهما، لأن الشاعر أراد المبالغة في وصف الحبر بالسواد، فسواد الحبر يساوي في مقداره سواد الليل بناء على ما أراده الشاعر من المبالغة وإلا فإن سواد الليل أشد.

الأغراض العائدة على المشبه به:

يعود الغرض من التشبيه على المشبه به عند قلب التشبيه، والتشبيه المقلوب

(١) قنسرين: مدينة مشهورة بالشام قرب حلب.

(٢) لعاب الليل: المراد: ظلمة الليل، وجعلها لعابا ليجانس بينها وبين ما في الحبر من سيولة، ودهم الخيل: سودها.

هو الذي يجعل فيه ما هو الأصل في وجه الشبه مشبهًا وما هو الفرع مشبهًا به، فهو يقوم أساسًا على الفرض والتخييل والادعاء بجعل ما هو فرع في وجه الشبه أصلاً فيه وما هو أصل فرعًا قصدا إلى المبالغة في ثبوت وجه الشبه للفرع الذي صار أصلا، ولذا فإن الفرض العائد على المشبه به في التشبيه المقلوب هو في الواقع عائد على المشبه، لأن المشبه به كان في الأصل مشبهًا قبل أن يقلب التشبيه.

وأهم هذه الأغراض ما يلي:

١-المبالغة في اتصاف المشبه به بوجه الشبه وإيهام أن الوجه في المشبه به أشهر وأقوى منه في المشبه.

من ذلك قول ابن وهيب في مدح الخليفة المأمون:

وبدا الصباحُ كأنَّ غُرَّتَهُ ... وجهُ الخليفةِ حينَ يُمْتَدَحُ

جعل ما هو أصل في الضياء وهو الصباح مشبهًا وما هو فرع فيه وهو وجه الخليفة مشبهًا به قصدا إلى المبالغة في إعلاء شأن المأمون وتأكيد مدحه بإشراق الوجه... وقول البحتري:

في طلعة البدرِ شيءٌ من محَاسِنِهَا ... وللقضيبِ نصيبٌ من تَثَنِّيهَا

جعل ما هو الأصل في وجه الشبه وهو: طلعة البدر والقضيب مشبهًا وما هو الفرع فيه وهو محاسن الفتاة وتثنيها مشبهًا به بهدف المبالغة في إثبات الوجه للمشبه به ثم ازدادت هذه المبالغة بشيء خارج عن إفادة التشبيه وهو جعل ما في البدر وما في القضيب شيئًا قليلاً ونزرًا يسيرًا مما يوجد في الفتاة. "شيء من محاسنها، نصيب من تثنيها"... ومنه قول الآخر:

رُبَّ ليلٍ قَطَعْتُه كصدودٍ ... وفراقٍ ما كانَ فيهِ وداعٌ

جعل الصدود أصلاً في السواد والليل فرعًا فيه، وإن كان وجود السواد في الصدود والفراق على طريق التخييل وفي الليل على جهة الحقيقة... ومنه قول الله – عز وجل- ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾[(١)]، جعل مستحلو الربا البيع فرعا في الإباحة والحل، والربا أصلا فيهما وذلك قصدًا إلى المبالغة في إثبات إباحة الربا واستجابة

(١) سورة البقرة: الآية ٢٧٥.

لأطماع نفوسهم وشدة حرصهم على جمع المال من أي طريق كان... وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ (١)، جعلهم الله لتماديهم في عبادة غير الله وتسميتهم لهذه المعبودات آلهة بمنزلة من يعتقد أن من لا يخلق أحق بالعبادة ممن يخلق، ولذلك جعل من لا يخلق أصلاً في استحقاق العبادة فشبه به، وجعل من يخلق مشبهًا على طريق التشبيه المقلوب مبالغة في تصوير جهلهم وتماديهم في الشرك، وكان الأصل أن ينكر عليهم جعلهم غير الخالق شبيهًا بالخالق في استحقاق العبادة.

٢-بيان شدة الحاجة إلى المشبه به كتشبيه الجائع "البدر" في إشراقه واستدارته بالرغيف، وتشبيهه المسك في طيب رائحته بالشواء، وذلك تنبيهًا إلى شدة حاجته للرغيف والشواء ويسمى هذا الغرض بإظهار المطلوب، وهو لا يحسن إلا في مقام الطمع في حصول الشيء الذي جعل مشبهًا به.

موازنة:

وردت تعبيرات التشبيه فيها ضمني وتفيد هذه التعبيرات المبالغة في المديح بإشراق الوجه وإضاءته كقولهم: لا أدري أوجهه أنور أم الصبح، وغرته أضوأ أم البدر، ونحو ذلك مما يفيد المساواة في الإشراق والإضاءة بين الطرفين حتى أصبح من الصعب التفريق بينهما بالزيادة أو النقصان، كما ورد قولهم إذا أرادوا الإفراط في المبالغة: نور الصباح يخفي في ضوء جبينه ونور الشمس مسروق من نور وجهه ونحو ذلك مما يفيد أن نور الوجه والجبين تجاوزا في الإضاءة والإشراق نور الصباح ونور الشمس، وعندما نقارن بين المبالغة في هذه الأساليب والمبالغة في بيت ابن وهيب.

وبـدَا الـصَّبَاحُ كـأنَّ غُرَّتَـهُ ... وجـهُ الـخليفةِ حـينَ يُمْتَـدَحُ

نجد أن المبالغة في البيت قد فاقت المبالغة في هذه الأساليب وذلك أنه في المثالين الأولين وقفت المبالغة عند حد المساواة بين وجه الممدوح والصبح وبين غرته والبدر في الإشراق والإضاءة فلم يصلا إلى مرتبة التشبيه في البيت الذي أفاد

---

(١) سورة النحل: الآية ١٧.

أصالة وجه الخليفة في الإشراق وجعل نور الصباح مقيسًا عليه، وفي القولين الآخرين جاءت المبالغة على نفس القدر الذي جاءت عليه في البيت مع فارق دقيق له اعتباره وهو أن المبالغة في المثالين مبالغة صريحة مكشوفة ليست مبنية على أصل مسلم في عقول الناس لأنها سيقت بأسلوب الخبر العام المتعرض للصدق والكذب، أما المبالغة في البيت فهي مبالغة مستترة خفية حيث بنيت على أصل ثابت في عقول الناس وهو أن المشبه به في كل تشبيه أصل في وجه الشبه والمشبه مقيس عليه. فمجيء المبالغة عن طريق التشبيه تجعل السامع يتلقاها بالقبول والاستحسان لبنائها على أصل معتبر وطريق متبعة.

☆☆☆

التشابه

بتأمل التشبيهات المتقدمة في أغراض التشبيه نجد أن الناقص من وجه الشبه قد ألحق بالزائد فيه بناء على ما تقرر من أن وجه الشبه يجب أن يكون أكثر وضوحًا وظهورًا في المشبه به منه في المشبه، وفي بعض الأغراض يجب أن يكون أقوى وأتم سواء كان وضوحه وتمامه حقيقيًا كما في الأغراض العائدة على المشبه أو ادعائيا كما في الأغراض العائد على المشبه به... فإذا لم يقصد بالتشبيه إلحاق الناقص بالكامل، بل قصد تساوي الطرفين في وجه الشبه، بحيث يصلح كل واحد منهما لأن يكون مشبهًا ومشبهًا به دون ترجيح لأحدهما على الآخر... فالأحسن عندئذ العدول عن صيغة التشبيه إلى صيغة التشابه، كما في قول أبي إسحاق الصابي:

تـــشابَهَ دمعِـــي إذ جـــرَى ومُـــدَامَتِي ... فمِـنْ مثلِ ما في الكـأسِ عينِـي تـسكُبُ

فــوالله مــا أدرِي أبــا لــخمرِ أَسْــبَلَتْ ... جفونِي أم مِـن عَبْرتـِي كُنـتُ أشرَبُ(١)

أراد أن الدمع والمدامة تساويا في الحمرة أو في الصفاء مساواة جعلته لا يستطيع أن يميز بينهما ولذا عدل عن التشبيه واستخدم صيغة التشابه وقد أكد هذه المساواة بالبيت الثاني الذي أفاد وقوعه في الحيرة وعدم التمييز بين الدمع المسكوب والخمر المشروبة.

ومنه قول الصاحب بن عباد في الخمر أيضًا:

رقَّ الزجــــاجَ وراقَـــتِ الـــخمرُ ... فتــــشابَهَا فتـــــشاكَلَ الأمــــرُ

فكــــأنَّما خمـــــرٌ ولا قـــــدَحُ ... وكــــأنَّما قـــدحٌ ولا خمـــــرُ(٢)

ادعى المساواة بين الخمر والكأس في الصفاء فعدل عن التشبيه إلى التشابه ثم أكد هذه المساواة بالبيت الثاني الذي أفاد أنهما أشكلا عليه فلم يستطع أن يميز أحدهما من الآخر...

---

(١) المدامة: الخمر سميت بذلك؛ لأنه لا شراب يستطاع إدامة شربه غيرها... والعبرة: الدمع، والتشابه بين الخمر والدمع إما في الحمرة فيكون ادعائيا وإما في الصفاء فيكون حقيقيًا.

(٢) القدح للكأس... وكأن في البيت الثاني للشك لا للتشبيه.

ويجوز عند إرادة التساوي بين الطرفين في الصفة استخدام صيغة التشبيه؛ لأن العدول عنها إلى التشابه -كما قلنا- على جهة الأفضلية والاستحسان، ولذا جاز استخدام صيغة التشبيه عند إرادة التساوي بين الطرفين بغض النظر عن زيادة وجه الشبه في أحدهما عن الآخر... كتشبيه غرة الفرس بالصبح بقصد المساواة بينهما في وجه الشبه وهو "ظهور منير في مظلم" وغض النظر عما يوجد من تفاوت بين قوة الإشراق وسعة مداه في الطرفين... وكذا تشبيه الصبح بغرة الفرس دون أن نعد ذلك من التشبيه المقلوب الذي يقتضي زيادة المبالغة، وكتشبيه الشمس بالمرآة المجلوة والمرآة المجلوة بالشمس لمجرد اجتماعهما في الاستدارة والتلألؤ دون نظر إلى ما بين نور الشمس ونور المرآة من تفاوت... وكتشبيه الشمس بالدينار الخارج من السكة في قول ابن المعتز:

وكأنَّ الشمسَ المنيرةَ دينا ... رٌ جَلَتْهُ حدائدُ الضَّرَّابِ(١)

وتشبيه الدينار بالشمس دون نظر إلى ما بينهما من تفاوت في الحجم ومقدار التَّلَأْلُؤ... وكذا تشبيه ظهور ضوء الصبح بين ظلام الليل بعلم أبيض على ديباج أسود في قول ابن المعتز:

والليلُ كالحُلَّةِ السوداءِ لاحَ بهِ ... من الصَّباحِ طِرازٌ غيرُ مرقومِ(٢)

فقد نظر إلى مجرد حصول بياض في سواد أكثر منه ولم ينظر إلى التفاوت بين مقدار البياض في الصبح ومقداره في العلم الأبيض... وربما سأل سائل: إذا كان الطرفان متساويين في وجه الشبه بغض النظر عما بينهما من زيادة أو نقصان فما الذي اقتضى جعل غرة الفرس مشبهًا والصبح مشبهًا به ثم العكس أو جعل الشمس مشبهًا والمرآة مشبهًا به، ثم قلب التشبيه ما دامت المبالغة بالقلب غير مقصودة...؟

والجواب: أن الذي اقتضى ذلك ليس ملاحظة ما بين الطرفين من زيادة أو نقصان وإنما ملاحظة أخرى ترجع إلى مقام الكلام ومدار الحديث فإذا كان الحديث

---

(١) حدائد الضَّراب، المراد بها آلات الصكّ.

(٢) الحلة كل ثوب جديد أو الثوب مطلقًا، والطراز: علم الثوب... والمرقوم: المخطط.

يدور حول الفرس جعلت غرته مشبهًا، وإذا كان يدور حول الصباح جعل هو المشبه؛ لأن الحديث عنه والغرض من التشبيه متوجه إليه... وكذا القول في الشمس والمرآة أو الشمس والدينار فإن كان الحديث يدور حول الشمس قدمت وجعلت هي المشبه لأن العناية منصبة عليها والحديث إنما هو عنها، وإن دار الحديث حول الدينار أو حول المرآة قُدِّم ما يدور حوله الحديث وجُعِلَ مشبهًا؛ لأنه موضع الاهتمام والغرض من التشبيه متوجه إليه...

التشبيه الحسن والتشبيه القبيح

ينقسم التشبيه باعتبار الغرض منه إلى قسمين: تشبيه حسن مقبول وتشبيه قبيح مردود، **فالحسن المقبول**: ما كان محققًا للغرض الذي عقد التشبيه من أجله وافيا به بأن يكون وجه الشبه أشهر وأعرف في المشبه به وذلك في كل غرض من أغراضه، وأتم وأكمل إذا أريد تأكيد الصفة وتقريرها في المشبه كتشبيه السفن بالجبال والرجل الضخم بالفيل، وإذا كان الغرض بيان المقدار فيجب أن يكون الوجه على درجة واحدة في الطرفين. وإن كان الهدف بيان الإمكان وجب أن يكون وجه الشبه مسلما به في المشبه به حاصلا فيه معترفا به من المخاطب، وإن كان الغرض من التشبيه عائدًا على المشبه به فإن صفتي الوضوح والكمال تكونان أكثر في المشبه به على طريق التخييل والادعاء، إلى آخر ما وقفنا عليه من حديثنا عن أغراض التشبيه.

أما القبيح المردود: فهو ما أخل بالغرض المقصود من التشبيه ولم يف به، إما لعدم وجود شبه بين الطرفين، أو لكون الوجه بعيدًا أو غير واضح في المشبه به، وإما لتنافي التشبيه مع الذوق السليم ومجافاته للطبع القويم.

فمن ذلك قول الكميت:

كَـــأَنَّ الغُطَـــامِطَ مِـــنْ غَلْيِهَـــا أراجيـــزُ أســـلمَ تهجُـــو غِفـــارَا(١)

---

(١) الغطامط: صوت غليان القدر، وفي لسان العرب مادة غطمط، أسلم وغفار: قبيلتان كانت بينهما مهاجاة، وبهذا يكون الكميت قد شبه بشيء واقع معروف؛ فلا عيب في البيت.

فقد عابه نصيب وقال له: "أخطأت ما هجت أسلم غفارًا قط" ومراده أن الواجب أن يكون التشبيه بشيء واقع معروف...

وقول الفرزدق:

يمشُونَ في حُلَقِ الحديدِ كما مَشتْ ... جُربُ الجِمَال بها الكُحَيْل[1]

شبه الرجال في حلق الحديد بالجمال الجرب وهو تشبيه بعيد لأنه إن أراد السواد فلا مقاربة بينهما في اللون، إذ الحديد أبيض وإن أراد شيئًا آخر فهو غير واضح... ومع ما فيه من البعد ففيه أيضًا سخف وغثاثة لتنافيه مع الذوق والطباع السليمة...

وقول المرار:

وخالٍ على خَدَّيْكِ يبدُو كأنَّهُ ... سنَا البدرِ في دعجاءَ بادٍ دُجُونُهَا[2]

ورداءة هذا التشبيه ترجع إلى أن الخدود بيض والمتعارف عليه أن يكون الخال أسود فتشبيه الخدود بالليل والخال بسنا البدر تشبيه ناقض للعادة ومخالف لما تعارف عليه الناس...

وقول أيمن بن خريم في مدح بشر بن مروان:

فإنَّا قدْ وجدنَا أمَّ بشرٍ ... كأمِّ الأسدِ مذكارًا ولودًا

فوجه الشبه "مذكارًا ولودًا" غير محقق في المشبه به؛ لأن أم الأسد ليست كذلك.

وقول أعرابي في صفة الشيب:

ومـا زلتَ ترجُو نيلَ سلمَى وَوُدَّهَا ... وتبعدُ حتى ابْيَضَّ منكَ الْمَسَايِحُ

مَلاَ حاجِبَيْكَ الشيبُ حتى كأنَّه ... ظِباءٌ جرَى منهَا سُنَيْحٌ وبارحُ[3]

---

(١) الكحيل: القطران تطلى به الإبل وأشعل إبله بالقطران كثره عليها.

(٢) الدعجاء: السوداء صفة لموصوف محذوف والتقدير: ليلة دعجاء، ودجونها: سوادها.

(٣) المسايح: جوانب الرأس، مفرده: مسيحة وهي من رأس الإنسان ما بين الأذن إلى الحاجب، والسنيح والسانح: ما ولاك ميامنه، والبارح: ما ولاه مياسره، يتفاءل بالأول ويتطير من الثاني.

شبه الشعر الأبيض في حاجبيه بظباء سوانح وبوارح وليس هنالك وجه شبه واضح بين المشبه والمشبه به.

وقول آخر في وصف روض:

كـــأنَّ شـــقائقَ الـــنُّعْمَانِ فيـــهِ ثِيَـــابٌ قـــدْ رُويـــنَ مـــن الـــدِّمَاءِ

فالتشبيه مصيب والوجه محقق، ولكن العيب أتاه من بشاعة ذكر الدماء، وهو بصدد وصف زهر جميل في روض أنيق.

وقول بعض الأعراب يصف شدة غيرته:

فلـــو رَأَتْنـــي أخـــتُ جيرانِنَـــا إذ أنـــا في الـــدَّارِ كـــأنيِّ حِمـــارُ

شبه نفسه بالحمار في شدة الغيرة، فهم يقولون: "أغير من حمار" وهذا التشبيه وإن كان صحيحًا؛ فإنه لا يحسن بالإنسان أن يشبه نفسه بالحمار لا سيما بلفظ الإطلاق كما في البيت... لأن هذا يتنافى مع الذوق السليم.

وقول أبي عوان الكاتب في صفة الخمر تهتز في زجاجتها وقد علاها زبد:

تُلاعبُهَـــا كـــفُّ الـــمزاجِ محَبَّـــةً لهَـــا وليجـــرِي ذاتَ بيـــنهمَا الأُنْـــسُ

فتزيـــدُ مـــن تيـــهٍ عليـــهِ كأنهَّـــا غَرِيـــرةُ خِـــدْرٍ قـــد تخَبَّطَهَـــا الـــمَسُّ

فلو أن في هذا كل بديع لكان مقيتًا بشعًا... ومن ذا يطيب له أن يشرب شيئًا يشبه زبد المصروع وقد تخبطه الشيطان من المس...؟

وقول الشنفري يصف حركة السيوف في القتال:

تَراهَـــا كأذنَـــاب الحـــسيلِ صـــوادِرًا وقـــدْ نهَلَـــتْ مـــن الـــدِّمَاءِ وعَلَّـــتِ(١)

شبه حركة السيوف وقد ارتوت بدماء القتلى بحركة أذناب الحسيل عندما تلتقي بأمهاتها فهي تحرك أذنابها فرحة باللقاء، ووجه الشبه وإن كان صحيحًا

(١) الحسيل: ولد البقرة ويطلق على الواحد والجمع، صوادرًا: رواجعًا يقال: صدر عن المال وعن البلاد: رجع... والصدر نقيض الورد.. نهلت: النهل أول الشرب... وعلت: العلل: الشربة الثانية، والشرب بعد الشرب تباعًا... يقال علل بعد نهل... والمراد: ارتواء السيوف بدماء القتلى.

وبخاصة إذا اعتبرنا أن لون الدماء قد قرب بين لون الأذناب ولون السيوف... إلا أن الذوق السليم ينفر من مثل هذا التشبيه.

ومن تلك التشبيهات المعيبة ما مر بنا في قول ابن شرف القيرواني في معاقبة البريء وترك الجاني:

غيري جنَى وأنا المُعَاقبُ فيكُمُ … فكأنّني سبَّابَةُ الْمُتَنَدِّمِ

لعدم تحقق وجه الشبه في المشبه به...

وقول البحتري في وصف مقدار سواد الليل:

على بابِ قِنَّسْرِينَ والليلُ لاطخٌ … جوانبَهُ من ظُلمةٍ بمدادِ

لأن المشبه به وهو: "المداد" أقل شهرة واكتمالا في صفة السواد من المشبه وهو الليل...

هذا وقد عاب خصوم المتنبي قوله:

بُليتُ بِلىَ الأَطْلاَلِ إنْ لَمْ أَقِفْ بهَا … وُقُوفَ شحيحٍ ضَاعَ في التُّرْبِ خاتَمُهُ

إذا قالوا: أراد التناهي في إطالة الوقوف فبالغ في تقصيره فكم عسى هذا الشحيح أن يقف على خاتمه مهما بلغ شحه والخاتم مما لا يخفى في التراب إذا طلب، ولا يصعب الحصول عليه إذا فتش عنه، وقد رُدَّ هذا القول بأن المتنبي أراد بالتشبيه: الصورة والصفة والهيئة التي يقف عليها بهذه الأطلال أي: لأقفن بها ذليلا خاضعًا، خاشعًا متأملاً، كهيئة الشحيح في وقوفه بحثًا عن خاتمه فإنه يقف ذليلاً خاضعًا متأملاً... أو أنه لم يرد التسوية بين الوقوفين، في القدر والزمان والصورة، وإنما أراد لأقفن وقوفًا زائدًا على القدر المعتاد، خارجًا عن حد الاعتدال، كما أن وقوف الشحيح يزيد على ما يُعرَف في أمثاله.

ونظيره قول الآخر:

رُبَّ ليلٍ أَمَدَّ مِنْ نَفَسِ الْعَا … شِقِ طُولاً قَطَعْتُهُ بِانْتِحَابِ

فنفس العاشق مهما بلغ من الطول لا يمتد امتداد أقصر أجزاء الليل، والشاعر إنما أراد أن الليل زائد في الطول على مقادير الليالي كزيادة نفس العاشق على الأنفاس.

التشبيه الضمني

هو التشبيه الذي يفهم من المعنى ويتضمنه سياق الكلام... والفرق بينه وبين التشبيه الصريح أن التشبيه الصريح يوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة من صور التشبيه المعروفة، أما التشبيه الضمني فيلمح فيه الطرفان من المعنى ولا تبنى جملته على إحدى صور التشبيه التي عرفناها، وغالبًا ما يكون المشبه به في التشبيه الضمني برهانًا وتعليلاً للمشبه.

انظر إلى قول أبي تمام:

لا تُنْكِري عُطْلَ الكريمِ من الغِنَى   فالسَّيْلُ حربٌ للمكانِ الْعَالي

شبه حال الرجل الكريم المحروم من الغنى بقمم الجبال لا يستقر عليها ماء السيل، ولم يأت التشبيه صريحًا في صورة من صور التشبيه بل جاء ضمنيًا مفهومًا من معنى الكلام، وقد وقع فيه المشبه به تعليلاً للمشبه، كما ترى.

ومثله قول أبي الطيب:

مَنْ يهُنْ يَسْهُلِ الْهَوانُ عليهِ   مَا لِجُرْحٍ بميِّتٍ إيلامُ

شبه حال من اعتاد الهوان فسهل عليه تحمله بحال الميت لا يتألم إذا جرح، وقد فهم التشبيه من المعنى فهو تشبيه ضمني...

ومن ذلك قول الفرزدق يهجو جريرًا:

مَا ضَرَّ تَغْلِبَ وَائِلٍ أَهَجوْتَهَا   أَمْ بُلْتَ حِينَ تَنَاطَحَ البَحْرانِ

شبه هجاء جرير "تغلب وائل" ببوله في مجمع البحرين فكما أن بوله في مجمع البحرين لا يؤثر فكذلك هجاؤه "تغلب" قوم الفرزدق لا يبدو له أثر.

ومنه قولنا: لا أدري: أوجهه أنور أم الصبح... وغربته أضوأ أم البدر... ونور الصباح يخفى في ضوء وجهه... ونور الشمس مسروق من نور جبينه.

وقول المتنبي:

لم تَلْقَ هذا الوجهَ شمسُ نهارِنَا   إلا بوجهٍ ليسَ فيهِ حَيَاءُ

وقول أبي نواس:

إن السحابَ لَتَسْتَحْيِي إذا نظرتْ   إلى نداكَ فقاسَتْهُ بما فيهَا

وقول البحتري:

في طَلْعَةِ الْبَدْرِ شيءٌ من محاسِنهَا   وللقضيب نَصِيبٌ من تثنِّيهَا

فهذه التشبيهات جميعها ضمنية وقد مرت بك فارجع إليها...

ومنه قول الفرزدق:

قوارِضُ تأتيني وتحتقِرُونهَا   وقدْ يَمْلأُ القَطْرُ الإناءَ فيُفْعَمُ

شبه ضمنيًا القوارض تأتيه ويحتقرها القوم بالقطر الذي يملأ الإناء على صغر مقداره، وهو يشير بذلك إلى أن الكثرة تجعل الصغير من الأمور كبيرًا.

* * *

مراتب التشبيه

إذا أراد المتكلم أن يعقد تشبيهًا بين أمرين، فقد يذكر جميع أركان التشبيه، وقد يحذف بعض هذه الأركان، وتختلف مراتب التشبيه من حيث ما يفيد من قوة المبالغة وشدة التخيل حسب ما يذكر من أركان التشبه.

فأولى هذه المراتب ذكر الأركان الأربعة كقولنا: "زيد كالأسد شجاعة" ويفيد التشبيه عندئذ أصل المبالغة التي يحققها كل تشبيه ولا مجال فيه لتخيلات العقل وتوهماته.

المرتبة الثانية: حذف أداة التشبيه فقط كقولنا: محمد أسد شجاعة، وحذف الأداة يفسح أمام العقل ميدان التوهم بأن المشبه والمشبه به شيء واحد... فالتشبيه عندئذ يفيد قوة المبالغة.

المرتبة الثالثة: حذف وجه الشبه فقط، نحو" محمد كالأسد: وعندئذ تذهب النفس كل مذهب وتتخيل أن المشبه والمشبه به يتحدان في جهات كثيرة، وإن كان المقصود اجتماعهما في صفة واحدة... وفي هذا إفادة لقوة المبالغة كالمرتبة الثانية.

المرتبة الرابعة: حذف أداة التشبيه والوجه معا نحو: محمد أسد، وهذه المرتبة أقوى المراتب، إذ المبالغة فيها مضاعفة، لأن حذف الأداة أفاد أن المشبه عين المشبه به ادعاء، وحذف وجه الشبه يجعل النفس تذهب كل مذهب في تقدير الوجه، ولهذا أطلق البلاغيون على هذا التشبيه اسم: التشبيه البليغ.

ومما يجدر ذكره أن حذف المشبه في أي مرتبة من تلك المراتب لا يؤثر فيما يفيده التشبيه من مبالغة، ولا يخرجه عن مرتبته إلى مرتبة غيرها، فإذا قلنا: كالأسد في الشجاعة، بحذف المشبه اعتمادًا على قرينة ما، لا تتغير مرتبة هذا التشبيه في إفادة أصل المبالغة، ولا يخرج التشبيه عن مرتبته الدنيا بحذف المشبه.

هذا وتختلف منزلة التشبيه أيضًا باختلاف الأداة المستعملة، فقولنا: كأن زيدًا أسد، أبلغ من نحو: زيد كالأسد... كما تختلف كذلك باختلاف وجه الشبه وطرفي التشبيه إفرادًا وتركيبًا وتعددًا، وعقليَّة وحسيَّة، على نحو ما مر بنا في هذا الفصل.

☆☆☆

الفصل الثاني
الحقيقة والمجاز

حقيقة الأمر: يقين شأنه، وحقيقة الرجل: ما يلزمه حفظه ومنعه ويحق عليه الدفاع عنه، وجمعها حقائق... والحقيقة في اللغة: ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه، والمجاز ما كان بضد ذلك، وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة: الاتساع والتوكيد والتشبيه، فإن عدمت هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة(١).

فالحقيقة في اللغة: وصف على وزن "فعيل" إما بمعنى مفعول من قولنا:

حققت الشيء أي: أثبته فهو حقيق أي: مثبت وإما بمعنى فاعل من قولنا: حق الشيء، أي. ثبت فهو حقيق، أي: ثابت... قال عز وجل: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ ﴾(٢).

والمعنى: لقد ثبت القول... ثم نقل هذا اللفظ "حقيقة" من الوصفية وجعل اسمًا للكلمة المستعملة فيما وضعت له باعتبار أنها مثبتة فيما وضعت له أو ثابتة فيه.

والتاء في لفظ "حقيقة" ليست للتأنيث إذ يجوز أن نقول: هذا اللفظ حقيقة ولو كانت للتأنيث لما صح أن يقال ذلك... وإنما هي للدلالة على نقل الكلمة من الوصفية إلى الاسمية وللإشعار بالأصل الذي كانت عليه الكلمة قبل النقل.

هذا والحقيقة والمجاز إذا أطلقا انصرفا إلى الحقيقة اللغوية والمجاز اللغوي ولا يحتاجان إلى تقييدهما باللغويين إلا في مقام المقارنة بينهما وبين الحقيقة العقلية والمجاز العقلي للتفرقة بينهما.

والحقيقة في الاصطلاح: هي الكلمة المستعملة فيما وضعت له في الاصطلاح الذي جرى به التخاطب... فلفظ "الأسد" إذا استعمل في الحيوان المفترس كان حقيقة لاستعماله فيما وضع له في كافة الاصطلاحات... ولفظ "الصلاة" إذا

---

(١) انظر لسان العرب مادة حق ص ٩٤٢.

(٢) سورة يس الآية: ٧.

استعمل بعرف الشرع في الأقوال والأفعال المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم كان حقيقة... وإذا استعمل بعرف أهل اللغة في الدعاء كان حقيقة أيضًا لاستعماله فيما وضعه له أصحاب هذا الاصطلاح أو ذاك... ونلاحظ في التعريف أن الكلمة قد قيدت بقيود ثلاثة:

١-**كونها مستعملة**: فالكلمة قبل الاستعمال أي الكلمة التي وضعها الواضع ولم تستعمل؛ لا تدخل في اللغة، فلا تسمى حقيقة كما لا تسمى مجازًا.

٢-**وفيما وضعت له**: خرج بهذا القيد الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في جميع الاصطلاحات: اللغوية والشرعية والعرفية فإنها تكون مجازًا... وخرج أيضًا الخطأ اللساني وهو ما استعمل في غير ما وضع له خطأً، كقولك لصاحبك: خذ هذا الفرس مشيرًا إلى كتاب، فمثل هذا لا يسمى "حقيقة" لاستعماله في غير ما وضع له ولا يسمى مجازًا لعدم وجود علاقة بين الفرس والكتاب. **والمراد بالوضع**: تعيين اللفظ للدلالة على معناه بنفسه من غير قرينة... فدلالة اللفظ على معناه المجازي ليست وضعية؛ لاحتياجه إلى القرينة المانعة من إرادة المعنى الوضعي... ودلالة المشترك على أحد معنييه الموضوعين له وضعية، لأن القرينة التي احتاج إليها المشترك تعين أحد المعنيين الموضوع لهما اللفظ لغة، وليست كقرينة المجاز التي تعين معنى لم يوضع له اللفظ.

٣-**في اصطلاح التخاطب**: خرج بذلك الكلمة التي يستعملها المتكلم في غير ما وضعت له في اصطلاحه، كالصلاة يستعملها الشرعي في الدعاء، فهي مجاز بحسب اصطلاحه وإن كانت حقيقة في اصطلاح اللغوي.

أقسام الحقيقة

وتنقسم الحقيقة باعتبار المصطلح الذي ترجع إليه إلى أربعة أقسام:

١- **الحقيقة اللغوية**: وهي ما وضعها واضع اللغة ودلت على معنى مصطلح عليه في تلك المواضعة... فمرجع الدلالة فيها إلى وضع اللغة كاستعمال لفظ الإنسان والفرس والجبل والشجرة والزهرة والسماء والأرض والنوم واليقظة والأم والأب، وغير ذلك من الألفاظ في معانيها الموضوعة لها في عرف اللغة.

٢- **الحقيقة الشرعية**: وهي اللفظة التي يضعها أهل الشرع لمعنى غير ما كانت تدل عليه في أصل وضعها اللغوي كالصلاة والزكاة والسجود والركوع والكفر والإيمان والإسلام، فهذه الألفاظ نسيت معانيها اللغوية ودلت بالشرع على معان أخرى صارت فيها حقائق شرعية... فمرجع الدلالة فيها إلى اصطلاح أرباب الشرع.

٣- **الحقيقة العرفية الخاصة**: وهي ما كان مرجع الدلالة فيها إلى عرف خاص كاستعمال لفظ: المبتدأ والخبر والفاعل والمفعول والرفع والنصب والجر والجزم، في معانيها المصطلح عليها في عرف النحويين فقد صارت هذه الألفاظ حقائق في معانيها التي اصطلح عليها نحويا ونسي النحاة معانيها اللغوية، وكذا استعمال الاستعارة والتشبيه والمجاز عند البلاغيين... والسكون والعرض والجوهر عند المتكلمين.

٤- **الحقيقة العرفية العامة**: وهي ما كان مرجع الدلالة فيها إلى عرف عام لم يتعين صاحبه كاستعمال لفظ "الدابة" عند كثير من الناس في الدلالة على الحيوان الذي يستخدمونه في حياتهم اليومية، كالحمار والبقرة والجمل والبغل والفرس، وهي موضوعة في أصل اللغة للدلالة على كل ما دب على الأرض، قال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[1]، فصار استعمالها في الدلالة على الحيوان الذي يستخدمونه، حقيقة في عرفهم ولو أطلقوها على معناها الوضعي، لكانت مجازًا عند أرباب هذا العرف العام.

☆☆☆

(١) سورة هود آية: ٦.

الـــمجاز

المجاز في اللغة مصدر ميمي على وزن "مفعل" وهو إما أن يكون بمعنى الجواز والتعدية من جاز المكان يجوزه إذا تعداه وقطعه... وقد سميت به الكلمة التي جازت مكانها الأصلي وتعدته لغيره أو التي جاز بها المتكلم معناها الأصلي إلى غيره فتكون هذه التسمية من إطلاق المصدر وإرادة اسم الفاعل أو المفعول... وإما أن يكون بمعنى مكان الجواز والتعدية من قولهم: جعلت هذا مجازًا إلى حاجتي أي طريقًا إليها؛ فهو من جاز المكان أي: سار فيه وسلكه إلى كذا، لا من جاوزه إذا تعداه، فيكون لفظ المجاز اسم مكان وقد أطلق على الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له باعتبار أنها طريق إلى تصور المعنى المراد منها.

إنكار المجاز والحقيقة: يزعم بعض أن ألفاظ اللغة كلها حقائق، وينكرون المجاز، ويذهبون إلى أنه غير وارد في القرآن الكريم ولا في كلام الناس.

وحجتهم أن المجاز أخو الكذب والقرآن منزه عنه، وأن المتكلم لا يعدل إلى المجاز إلا إذا ضاقت به الحقيقة[١].

ويزعم بعض آخر أن أكثر اللغة عند التأمل مجاز لا حقيقة، فقولنا: قام زيد مجاز، لأن زيدًا لم يفعل كل القيام بل فعل بعضه، فهو من وضع الكل موضع البعض للاتساع والتوكيد ولذا يقال: قام قومة وقومتين... وقيامًا حسنًا وقيامًا قبيحًا.

وكذا قولنا: "ضربت زيدًا" مجاز أيضًا، لأن القائل فعل بعض الضرب لا كله، ولأنه ضرب بعض زيد لا جميعه، فقد ضرب يده أو رجله أو ناحية من نواحي جسده، ولهذا فإنه إذا احتاط جاء ببدل البعض فيقول: ضربت زيدًا رأسه أو كتفه... ثم هو مع ذلك متجوز؛ لأن الضرب وقع ببعض الرأس وبجزء من الكتف[٢]... وهذان الرأيان مبنيان على خطأ في التصور وعلى كثير من التدقيق الذي تنفر منه طبيعة هذه اللغة... ويتضح ذلك فيما يلي:

---

(١) انظر الإتقان جـ ٢ ص ٤٧، والبرهان جـ ٣ ص ٤٣٢.

(٢) انظر الخصائص جـ ٢ ص ٤٤٧، والطراز جـ ١ ص ٤٤.

١-أن المجاز قد ورد في اللغة وفي القرآن الكريم فنحن نقول: "رأيت أسدًا" ونريد رجلاً شجاعًا... والله عز وجل يقول: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾[1]، ويقول: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾[2]، والقرية لا تُسأل، وليس للذل جناح، فالمعنى على المجاز.

٢-أن المجاز يفارق الكذب من جهتين:

الأولى: أن الكذب لا تأويل فيه والمجاز مبني على التأويل والصرف عن الظاهر.

الثانية: أن المجاز لابد فيه من نصب قرينة على إرادة خلاف الظاهر من اللفظ، مانعة من إرادة المعنى الحقيقي له... أما الكذب فليس فيه قرينة على إرادة غير الظاهر، بل إن قائله يبذل قصارى جهده لترويج ظاهره وإبراز صحة باطله.

٣-أن القائلين بأن أكثر اللغة مجاز قد بنوا رأيهم على كثير من التدقيق الذي تنفر منه طبيعة اللغة؛ لأنه تدقيق لا يصل بنا إلى غاية مرجوة. فلو قلنا: مرض زيد، أفادت هذه الجملة الإخبار بمرض زيد ولو ذهبنا ندقق: أي مرض أصابه؟ وأي جزء منه مرض؟ أرجله أم فخذه أم بطنه أم صدره أم رأسه أم يده- أم إصبعه؟ وإذا كان الجزء المريض من زيد هو الإصبع؛ فأي موضع منه؟ وأي إصبع من أصابعه؟ وهل كان الإصبع؟ أم إحدى أنامله؟ وإذا كانت إحدى أنامله أهي الأولى أم الثانية أم الثالثة؟ وهل الأنملة كلها؟ أم جزء منها؟... إلخ وهذا تدقيق لا غاية وراءه ولا فائدة ترتجى منه... بل إن طبيعة اللغة وعفوية الدلالة تتنافى معه وتأباه.

وبهذا يتضح لنا أن إنكار الحقيقة في اللغة إفراط وإنكار المجاز تفريط فالمجازات لا يمكن دفعها والحقائق لا يتأتى إنكارها والرأي السديد هو أن اللغة والقرآن الكريم يشتملان على الحقائق والمجازات معًا، فما كان من الألفاظ مفيدًا لما وضع له في الأصل فهو حقيقة، وما أفاد غير ما وضع له في الأصل؛

(١) سورة يوسف الآية ٨٢.

(٢) سورة الإسراء الآية ١٤.

فهو مجاز والمقام هو الذي يحدد ما يقتضي استعماله من حقائق أو العدول عنها إلى المجازات.

المجاز المفرد والمجاز المركب

ينقسم المجاز باعتبار الإفراد والتركيب إلى قسمين: مجاز مفرد، وهو ما كان اللفظ المتجوز به مفردًا كقوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾[1]، أي أناملهم...

وقول أبي تمام مادحًا:

يـا ابـن الكواكـبِ مـن أئمـةِ هاشـمٍ والـرُّجْحِ وَالأَحْـسَابِ والأَحْـلاَمِ

فالمراد بالأصابع في الآية: الأنامل والمراد بالكواكب في البيت: آباء الممدوح.

ومجاز مركب: وهو ما كان اللفظ المتجوز به مركبًا نحو: مالي أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى؟ فالمراد: تردده في الأمر فهو يقبل عليه مرة ويتراجع عنه مرة أخرى.

تعريف المجاز المفرد

فالمجاز المفرد هو الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح التخاطب على وجه يصح مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي.

فخرج "بالكلمة المستعملة" الكلمة قبل الاستعمال؛ فإنها لا تسمى حقيقة ولا مجازًا على نحو ما مر في تعريف الحقيقة.

وخرج "بغير ما وضعت له" الحقيقة، فإنها مستعملة فيما وضعت له... وقولنا: "في اصطلاح التخاطب" إشارة إلى أن المعتبر في تحديد المجاز أو الحقيقة، الاصطلاح الذي يقع به التخاطب... فالشرعي إذا استعمل لفظ "الصلاة" في الدعاء كانت مجازًا، وإذا استعملها في الأركان الخاصة كانت حقيقة في عرفه... والبلاغي إذا استعمل "الكناية" في الستر والخفاء كانت مجازًا، ولفظ "الدابة" إذا استعمل عند أرباب العرف العام في الدلالة على الإنسان كان مجازًا وإن كانت مستعملة فيما وضعت له في اصطلاح أهل اللغة، واللغوي إذا استعمل لفظ

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٩.

"الأسد" في الدلالة على الرجل الشجاع كان مجازًا وإذا استعمل في الدلالة على الحيوان المفترس كان حقيقة... وهكذا.

وقولنا: "على وجه يصح" إشارة إلى وجوب العلاقة الرابطة بين المعنى المجازي والمعنى الذي وضع له اللفظ وخرج بذلك الغلط اللساني كأن نشير إلى حجر ونقول لشخص: خذ هذا الفرس... فاستعمال لفظ "الفرس" لا يسمى مجازًا؛ لأنه لا علاقة بين الحجر والفرس.

والقرينة: هي الأمر الذي يجعله المتكلم دليلاً على أنه أراد باللفظ غير المعنى الموضوع له وتقييدها بالمانعة احترازًا عن الكناية؛ لأن قرينتها لا تمنع إرادة المعنى الأصلي مع المعنى الكنائي.

هذا والمجاز المفرد يتنوع باعتبار المصطلح الذي يقع به التخاطب إلى أربعة أنواع: مجاز لغوي ومجازي شرعي ومجاز عرفي خاص ومجاز عرفي عام. على نحو ما مر في تعريف الحقيقة.

ما الفرق بين الاستعارة والمجاز المرسل؟

ينقسم المجاز المفرد باعتبار نوع العلاقة الرابطة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي الذي استعمل فيه اللفظ إلى قسمين:

١-مجاز بالاستعارة: وهو ما كانت علاقته المشابهة بين المعنى المجازي كقولنا: رأيت بحرًا يغترف الناس من كرمه، فالعلاقة بين البحر والرجل الكريم المشابهة في العطاء.

٢-مجاز مرسل: وهو ما كانت علاقته غير المشابهة كقولنا: أمطرت السماء نباتًا، فالعلاقة بين النبات والغيث المسببية، إذ النبات مسبب عن الغيث، وكقوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾[1]، فالعلاقة بين الأصابع والأنامل الكلية إذ الأنملة جزء من الإصبع.

---

(١) سورة البقرة آية: ١٩.

المجاز المرسل وعلاقاته

فالمجاز المرسل: هو الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له لعلاقة غير المشابهة بين المعنيين، وسمي مرسلاً لأنه أرسل عن دعوى الاتحاد المعتبرة في الاستعارة إذ ليست العلاقة بين المعنيين المشابهة حتى يدعى اتحادهما... أو لأنه أرسل أي أطلق عن التقيد بعلاقة واحدة.

وعلاقة المجاز المرسل معناها: أن يكون هناك تلازم وترابط يجمع بين المعنيين ويسوغ استعمال أحدهما في موضع الآخر وهذه العلاقات كثيرة أشهرها ما يلي:

علاقة السببية: وهي أن يكون المعنى الموضوع له اللفظ المذكور سببًا في المعنى المراد؛ فيطلق السبب على المسبب... والمجاز بهذه العلاقة كثير في استعمالات العرب، فمن ذلك قولهم: "رعينا الغيث" فالغيث: مجاز مرسل علاقته السببية، لأن المعنى الحقيقي للغيث سبب في المعنى المراد الذي هو "النبات" وقرينة المجاز في مثل هذا التعبير هو إبراز مدى أهمية الغيث وفرحهم به وأثره في نفوسهم حتى كأنه هو المرعى لا النبات.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾[1]، فالاعتداء الأول والثالث قد استعملا استعمالاً حقيقيًا والاعتداء الثاني استعمل استعمالاً مجازيًا، لأن المراد به، المجازاة والقصاص، فعبر بالسبب وهو الاعتداء عن المسبب وهو الجزاء والقصاص على سبيل المجاز المرسل، وتكمن بلاغة المجاز هنا في إبراز قوة السببية بين الاعتداء وجزائه وأن الجزاء يجب أن يعقب الاعتداء؛ فلا يتخلف عنه ويشعر بذلك هذه الفاء "فاعتدوا" وما تقتضيه من سرعة المجازاة... ولا يقال إن هذا يتناقض مع الدعوة إلى العفو والحث على الصفح في آية سورة الشورى؛ لأن المقام هنا مقام تحد بين المسلمين والكفرة فهو يقتضي الشدة والقوة وسرعة الردع، والمقام هناك مقام بيان للمعاملة بين المسلمين بعضهم بعضًا وذلك أدعى للعفو والمسامحة... فلكل مقام مقام.

---

(١) سورة البقرة آية: ١٩٤.

ولذا جاء بعد الفاء في آية سورة الشورى: العفو والإصلاح، قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾(١)، فالمراد بالسيئة الثانية: الجزاء والقصاص الذي يتسبب عن السيئة؛ فهو من إطلاق السبب وإرادة المسبب على سبيل المجاز المرسل، ويجوز حمل الآية على الحقيقة على اعتبار أن المراد بالسيئة الثانية ما يسيء الجاني ويؤذيه؛ لأن جزاء السيئة مهما كان عدلاً فإنه يسيء إلى الجاني ويؤذيه.

ومنه قول عمرو بن كلثوم:

ألاَ لاَ يَجْهَلَــــنْ أحــــدٌ علينَـــا فنجهَــلَ فــوقَ جهــلِ الــجاهِلينَا

الجهل معناه في اللغة: السفاهة والحمق وقد أراد عمرو بالجهل المسند إليه الصادر منه: جزاء المعتدين وعقوبتهم على جهلهم وسفاهتهم، فهو مجاز مرسل حيث عبر بالسبب عن المسبب... وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾(٢)، أراد عز وجل: ونعرف أخباركم فعبر عن المعرفة والعلم بالاختبار الذي هو سبب المعرفة على طريق المجاز المرسل... وعلم الله عز وجل أزلي فهو عليم بكل شيء ولا يحتاج في علمه إلى ابتلاء... ولكن المراد ظهور حقيقة المبتلى وانكشافها فيصبح علم الله تعالى متعلقًا بالمعلوم الواقع.

ومن ذلك قول المتنبي:

أنــا الــذي نظــرَ الأَعْمَــى إلى أَدَبِي وأســمَعَتْ كَلِـمَاتِي مَـنْ بـهِ صَـمَمُ

أراد أن يعبر عن شهرة أدبه وذيوع شعره وبلوغه مبلغًا جعل من لا علم له بالأدب ينظر إليه ويعلمه ومن لم يسمع شعرًا يسمع كلماته ويدركها، وقد عبر الشاعر بالأعمى والأصم وأراد من لا معرفة له بالأدب ولا علم عنده بجيده، والعلاقة بين المعنيين: السببية؛ فإن السمع البصر من أسباب العلم بالأشياء والعمى والصمم من أسباب الجهل بها، والقرينة قوله: "نظر وأسمعت كلماتي" فإنه يستحيل أن يسمع الأصم أو يبصر الأعمى شيئًا.

---

(١) سورة الشورى آية ٤٠.

(٢) سورة محمد آية ٣١.

وقول الآخر:

أكلـــتُ دمًـــا إنْ لـــمْ أَرُعْـــكِ بــضَرَّةٍ بعيــدةِ مَهْــوَى الْقُــرْطِ طيِّبَــةِ النَّــشْرِ

فهو يدعو على نفسه -إن لم يحقق رغبته في الكيد لامرأته بضرة حسناء- أن يقتل له قتيل ويعجز عن الأخذ بثأره فيرضى بأخذ ديته ويأكل منها وقد عبر عن الدية بالدم، والدم سبب فيها فهو مجاز مرسل أطلق فيه السبب وهو الدم على المسبب وهو الدية.

ومن ذلك إطلاق "اليد" على العطاء والنعمة لأن اليد سبب في إيصال النعمة للمحتاجين كما في قولهم: جلت يده عندي... وكثرت أياديه علي... وعمت أياديه الورى... يريدون بذلك نعمه وعطاياه... ويشترط في هذا الاستعمال أن يكون في الكلام إشارة إلى صاحب النعمة كالضمير العائد على الممدوح في الأمثلة المذكورة ولذا لا يقال: كثرت الأيادي عندي... أو اتسعت اليد في البلد... أو ادخرت يدًا، لأن المتبادر إلى الذهن عندئذ هو المعنى الحقيقي دون المعنى المجازي، لخلو الكلام غالبًا من القرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي، وفضلاً عن ذلك فإنه يصير إلى كلام غث متهافت خال من الفصاحة.

ومن إطلاق اليد وإرادة النعمة قول الرسول ﷺ لأزواجه -رضوان الله عليهن-: **«أَسْرَعُكُنَّ لُحوقًا بِي أَطْوَلُكُنَّ يدًا»**[(١)]، **فالحديث يحتمل ثلاثة أوجه:**

أولها: أن تكون اليد مجازًا عن العطاء أو الإنعام ويكون أفعل التفضيل "أطولكن" المشتق من الطول ضد القصر ترشيحًا للمجاز لملاءمته اليد الحقيقية، كما أن ذكر ما يلائم المشبه به يكون ترشيحًا للاستعارة، والمعنى عندئذ: أسرعكن لحوقًا بي أبسطكن نعمة وأوسعكن عطاء.

ثانيها: أن تكون اليد مجازًا عن العطاء أو الإنعام أيضًا وأفعل التفضيل مشتقًا من الطَّوْل -بسكون الواو- بمعنى الفضل والمعنى عندئذ أسرعكن لحوقًا بي

(١) رواه البخاري في الزكاة برقم (١٤٢٠).

أفضلكن نعمة. والنعمة توصف بالفضل على جهة الحقيقية فلا ترشيح للمجاز عندئذ.

ثالثها: أن يكون في الحديث "جار ومجرور" "متعلق" بأطول "والتقدير: أسرعكن لحوقًا بي أطولكن يدًا بالعطاء بمعنى أنها تزيد في مدها عند العطاء وعندئذ فلا مجاز ولا ترشيح بل اليد مستعملة في معناها الحقيقي وكذلك الطول –ضد القصر– ويكون أطولكن يدًا بالعطاء، كناية عن الكرم وحب العطاء والبذل كما يكنى بقصر اليد عن البخل وكراهية البذل.

وكما تطلق اليد ويراد بها النعمة لأنها سبب في إيصال النعمة، فإنها تطلق كذلك ويراد بها القدرة، لأن اليد سبب في ظهور سلطان القدرة من بطش وضرب ومنع ونحوه... ومن ذلك قولهم: "اليد لبني فلان" والمراد: القوة والغلبة... وكقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾(١)، والمعنى: قوته ونصرته فوق قوة أصحاب البيعة ونصرتهم.

أما قول الرسول ﷺ: "الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ»(٢)، فليس من قبيل المجاز المرسل، بل من التشبيه البليغ؛ إذ المراد من الحديث أن المسلمين متساوون في الدماء وفي الذمة، وفي التعاون والنصرة، فيؤخذ الأمير بدم الفقير، ويعاهد عنهم أدناهم منزلة، فيسري عهده على الجميع، وكل واحد منهم في إطار الجماعة كالإصبع في اليد والجماعة كلها كاليد ذات الأصابع المتعاونة، فكما لا تخذل الأصابع بعضها بعضا فالواجب على المسلمين ألا يتخاذلوا، وبهذا يكون قوله عليه الصلاة والسلام: «وهم يد على من سواهم »، من قبيل التشبيه البليغ الذي حذفت أداته ووجهه.

---

(١) سورة الفتح آية: ١٠. هذا ما يراه الخلف، ورأي السلف أن "يد الله" على حقيقتها، فله جل وعلا "يد" ليست كأيدي البشر، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، والغاية واحدة وهي تنزيه الله جل وعلا عن المشابهة.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (٥٩٥) وابن ماجه في الديات برقم (٢٦٨٣).

وقيل: يجوز جعله مجازًا مرسلاً حيث عبر باليد عن العون وهي سببه والمعنى: وهم عون على من سواهم، من إطلاق السبب على المسبب...

ومن ذلك استعمالهم لفظ "الإصبع" في الأثر الدقيق من حذق بارع أو رسم جميل أو نقش لطيف، إذ الإصبع سبب في إحداث هذا الأثر البديع الرائع... ومنه قولهم: إن لفلان على هذه اللوحة إصبعًا... وإصبع فلان بادية في هذا الخط، ولهذا الصائغ في صناعة هذا السوار إصبع بارعة... وكقول الشاعر في صفة راعي الإبل:

ضَعِيفُ الْعَصَا بادِي الْعُرُوقِ تَرَى لَه عَلَيْهَا إذا ما أَجْدَبَ النَّاسُ إِصْبَعَا

أي: ترى له عليها أثر حذق ومهارة... ويشترط لصحة هذا الاستعمال أيضًا أن يكون للإصبع تأثير في إحداث الأثر الذي يعبر بها عنه... فلا يقال: هذه أصابع الدار، مرادًا آثارها المتبقية ولا يقال: هذه أصابع المطر مرادا الآثار التي تخلفت عنه من وحل وطين.

علاقة المسببية: وهي أن يذكر المسبب ويراد السبب بأن يكون المعنى الأصلي للفعل المذكور مسببًا عن المعنى المراد فيطلق اسم المسبب على السبب من ذلك قولهم: أمطرت السماء نباتًا، أي: ماء فذكروا المسبب "نباتًا" وأرادوا السبب "ماء" فهو مجاز مرسل علاقته المسببية... ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾[(١)]، والذي ينزل من السماء هو الماء الذي يتسبب عنه الرزق فذكر المسبب في موضع السبب وتكمن بلاغة المجاز في الآية الكريمة في قوة السببية بين الماء والرزق وفي ذلك إيحاء وتنبيه للمؤمن إلى أن الرزق مصدره السماء فليطمئن وليمض على النهج القويم فالرزق قد قدره الله وكفله للجميع إنه منزل من السماء.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾[(٢)]، أي أنزل لكم الماء الذي تشربه الأنعام والذي ينبت النبات فترعاه الأنعام... فذكر المسبب وهو

(١) سورة غافر: ١٢.

(٢) سورة الزمر: ٦.

الأنعام في موضع السبب وهو الماء وفيه إشارة إلى قوة السببية وتنبيه وطمأنة للمؤمن كما في الآية السابقة... وتحتمل الآية الكريمة وجهين آخرين:

أحدهما: أن المراد بإنزال الأنعام: حكم الله وقضاؤه بخلقها وإيجادها فقد قضى الله عز وجل وقدر إيجادها، وقضاء الله بعد ثبوته في اللوح المحفوظ ينزل إلى الأرض لتنفيذه... فالإنزال لا يتعلق بالأنعام نفسها وإنما يتعلق بحكم الله وقضائه بإيجادها، وعلى هذا فليس في الآية مجاز.

ثانيهما: أن الله عز وجل يخلق كل شيء في الجنة، ثم ينزله من الجنة إلى الأرض وهو رأي بعض المفسرين... وعليه فلا مجاز أيضًا في الآية الكريمة.

ومنه قول الشاعر يصف غيثًا:

أقبَلَ في الْمُسْتَنِّ من رَبَابِهِ أَسْنِمَةُ الآبَالِ في سَحَابِهِ(١)

أراد: أن الغيث انصب عليهم من سحابه الأبيض فسقى الأرض وأنبت النبات فارتوت الإبل وشبعت وسمنت ونمت أسنمتها، وقد جعل الشاعر أسنمة الإبل في السحاب والذي في السحاب هو الماء وهذا من ذكر المسبب في موضع السبب... ومنه قول الحق تبارك وتعالى ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا**﴾(٢)، والنار لا تؤكل، وإنما المراد: يأكلون مالاً حرامًا تتسبب عنه النار التي تكوى بها جنوبهم وظهورهم فذكر المسبب النار في موضع السبب وهو المال الحرام "مال اليتامى" وتكمن بلاغة المجاز في الآية الكريمة في إبراز هذه السببية، وفي إظهار فظاعة وبشاعة تلك الصورة، صورة من يأكلون أموال اليتامى، فهم يأكلون نارًا تقذف في أفواههم فتندلع في بطونهم فيكون الألم والعذاب.

وقولهم: "كما تدين تدان" أي: كما تفعل تجازى فقد عبر عن الفعل بالدين

---

(١) المستن: موضع جريان الغيث المنصب، يقال: استنت العين: انصب ماؤها، والرباب: السحاب الأبيض والضمير فيه للغيث والآبال جمع إبل، وأسنمتها: جمع سنام وهي ما ارتفع من ظهر البعير.

(٢) سورة النساء آية: ١٠.

والدين هو المجازاة والمكافأة مسبب عن الفعل؛ فهو مجاز مرسل علاقته المسببية إذ أطلق لفظ المسبب وهو المجازاة وأريد السبب وهو العمل والفعل، أما تدان الثاني فهو حقيقة؛ لأن المراد به المجازاة والمكافأة.

ومن علاقة المسببية التعبير بالفعل عن إرادته فالإرادة سبب والفعل مسبب عنها، وقد كثر ذلك في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾(١)، والمعنى: إذا هممت أو عزمت أو أردت قراءته فاستعذ بالله حيث علم من السنة أن الاستعاذة تسبق القراءة، وفي الآية رتبت الاستعاذة بالفاء على القراءة فكان هذا الترتيب قرينة على أن المراد بالقراءة: إرادتها والعزم عليها فهو مجاز مرسل علاقته المسببية إذ أطلق المسبب وهو الفعل وأريد السبب وهو العزم والإرادة... وفي ذلك -كما قلنا- إبراز لقوة السببية بين الإرادة والفعل وتنبيه للمؤمن وحث له على أن يقرن العزم بالفعل؛ فلا يكون هنالك مجال للأماني الكاذبة وأحلام اليقظة والتقاعس وحياة الكسل.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾(٢)، أريد بالنداء إرادته والعزم عليه فهو من ذكر المسبب في موضع السبب والقرينة أنه رتب بالفاء قوله: "إن ابني من أهلي" على النداء مع اتحاد زمنهما في الواقع.

وقوله عز وجل: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾(٣)، ذكر الإهلاك وأراد: إرادته والعزم عليه بقرينة أنه رتب بالفاء مجيء البأس على الإهلاك وإتيان البأس مقدم على الإهلاك فدل ذلك على أنه أراد بالفعل وهو الإهلاك إرادته والعزم عليه فهو من إطلاق المسبب وإرادة السبب.

وقوله جل وعلا: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾(٤)، عبر بالإهلاك في موضع الإرادة فهو من ذكر المسبب وإرادة السبب.

---

(١) سورة النحل الآية: ٩٨.

(٢) سورة هود آية: ٤٥.

(٣) سورة الأعراف آية: ٤.

(٤) سورة الأنبياء آية: ٧.

علاقة الجزئية: وهي أن يذكر الجزء ويراد الكل كما في قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[١]، وقوله عز وجل: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾[٢]، وقول الرسول ﷺ: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنبِهِ»[٣]، فالمراد بالقيام في هذه النصوص: الصلاة وهو ركن من أركانها، وقد سميت الصلاة به من باب تسمية الكل باسم الجزء... وكذا قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾[٤]، وقوله عز وجل: ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[٦]، فقد عبر عن الصلاة في هذه الآيات بالسجود وهو ركن من أركانها وذلك عن طريق المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية.

ومنه قول معن بن أوس المزني في ابن أخته:

أُعَلِّمُهُ الرِّمَايَةَ كُلَّ يومٍ ... فلمَّا اشْتَدَّ ساعِدُهُ رمَانِي
وكَمْ عَلَّمْتُهُ نَظْمَ القَوَافِي ... فلمَّا قالَ قَافِيَةً هَجَانِي

فقد ذكر القوافي والقافية وأراد بهما: القصائد والقصيدة مجازًا مرسلا علاقته الجزئية حيث ذكر الجزء وأراد الكل.

هذا ويشترط في الجزء الذي يراد به الكل أن يكون مما جرى العرف على استعماله في الكل، وأن يكون لهذا الجزء اتصال وثيق بالمعنى المراد... فقد وجدنا القرآن الكريم يسمى الصلاة قيامًا أو سجودًا؛ لأنهما ركنان أساسيان من أركانها... كما يسميها ذكرا أو ركوعًا قال تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[٧]، وكل هذه أساسيات في الصلاة... ولم نر القرآن يسمى الصلاة

---

(١) سورة المزمل آية: ٢.

(٢) سورة التوبة آية: ١٠٨.

(٣) رواه البخاري في الإيمان برقم (٣٥) ومسلم في صلاة المسافرين برقم (١٧٣/ ٧٥٩).

(٤) سورة العلق آية: ١٩.

(٥) سورة النجم آية: ٦٢.

(٦) سورة الحجر آية: ٩٨.

(٧) سورة آل عمران الآية: ٤٣.

تشهدًا أو بسملة أو جلوسًا... وبهذا يتضح لنا أن الجزء المعبر به عن الكل، يجب أن يكون له اتصال وثيق، ومزيد اختصاص بالمعنى والسياق... وقد عبر عن الإنسان بأجزاء مختلفة منه، فنراه مرة رقبة، ومرة عينًا، ومرة وجهًا ومرة كفًا، ومرة قدمًا ومرة قلبًا، ولا يصح جزء من هذه الأجزاء مكان الآخر لاختلاف السياق الذي يقتضي هذا الجزء دون ذاك.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ [البلد: ١٢- ١٣]، وقوله عز وجل: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ [المجادلة: ٣]، فقد عبر عن العبد أو المولى في الآيتين بالرقبة؛ لأنها أهم جزء في الإنسان ولأن معاني السيادة والعبودية تظهر أوضح ظهور في الأعناق.

وهم يقولون: بث الأمير عيونه في المدينة... وعين العدو تجول في البلد ويريدون بالعين الربيئة أو الجاسوس فسمي الجاسوس عينا باسم جزئه لأن عينه أبرز عضو فيه يستخدمه في التجسس.

ونقول: فلان تتزاحم حوله الأقدام... أو هو خير من تسعى له قدم... في مقام المدح بالسيادة والكرم، فقد عبرنا عن طالبي العطاء بالأقدام، لأن بها يسعون قاصدين الممدوح في قضاء حوائجهم.

ويقول الشاعر:

وكُنتَ إذا كفٌّ أَتَتْكَ عَدِيمَةً ... تُرَجِّي نَوَالاً مِنْ سَحَابِكَ بُلَّتِ

فقد عبر بالكف عن الإنسان المعدم، لأن السياق عطاء وأخذ والمعدم يمد يده راجيا عطاء وخيرًا يلقى بها ولذا عبر عنه بالكف.

ويقول امرؤ القيس:

أغرَّكِ منِّي أنَّ حبَّكِ قَاتِلِي ... وأنَّكِ مهمَا تأمُرِي القلبَ يَفْعَلِ

فقد عبر عن نفسه بالقلب؛ لأن السياق سياق حب وغزل وهيام.

ويقول ابن المعتز:

سَالَتْ عليه شِعَابُ الحيِّ حينَ دَعا ... أنصارَه بِوُجُوهٍ كَالدَّنَانِيرِ

عبر عن الرجال المعروفين بالشرف والسيادة والنبل بالوجوه وذلك على طريق المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية، وقد آثر التعبير بالوجه، لأن المقام مقام شرف وسيادة ونبل ووجاهة.

وهكذا عبر عن الإنسان بأجزاء مختلفة من أجزاء جسده وفي كل مرة رأينا الجزء الذي عبر به عن الكل "الإنسان" له اتصال وثيق ومزيد اختصاص بالسياق والمعاني ولا يصلح جزء من أجزاء الإنسان المذكورة مكان الآخر لاختلاف السياق كما أوضحنا.

علاقة الكلية: وهي أن يعبر عن الجزء بلفظ الكل أي يطلق اسم الكل ويراد جزؤه كقوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ ﴾(٢)، فقد عبر بالأصابع في الآيتين وأراد الأنامل من باب إطلاق لفظ الكل على الجزء مجازًا مرسلاً علاقته الكلية... والسر البلاغي في العدول عن الحقيقة إلى المجاز في الآيتين هو رغبة القوم في تعطيل حاسة السمع بأقصى ما يمكن مبالغة فيما يشعرون من هول الصواعق وفظاعتها في سورة البقرة، ومبالغته في إعراضهم عن الحق في سورة نوح... والقرينة استحالة وضع الإصبع كلها في الأذن عادة.

وفي قول السموءل:

تسيلُ على حدِّ الظُّبَاةِ نفوسُنا ... وليسَ على غيرِ الظُّبَاةِ تسيلُ(٣)

عبر بالنفوس عن الدماء؛ فهو مجاز مرسل علاقته الكلية؛ لأن الدماء جزء من النفوس والقرينة قوله: "تسيل" لأن السيلان يكون للدماء... ومنه قولهم: "قطعت السارق" يريدون: يده، وقولنا: أكلت نبات الأرض، وشربت ماء النيل، وقرأت في البلاغة ما كتب السابقون واللاحقون، والمراد: بعض النبات وجزء من الماء وكثير

(١) سورة البقرة آية: ١٩.

(٢) سورة نوح آية: ٧.

(٣) الظباة: جمع ظبة بضم الظاء وتخفيف الباء وهي حد السيف.

مما كتبوا فهو مجاز مرسل علاقته الكلية... والقرينة استحالة أكل الكل أو شربه واستحالة الإحاطة بكل ما كتب.

علاقة اعتبار ما كان: وهي أن يعبر عن الشيء باسم ما كان عليه من قبل كما في قوله عز وجل: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾[١]، فاليتيم من مات أبوه ولم يبلغ سن الرشد وهو لا تسلم إليه أمواله لعجزه عن التصرف فيها في هذه السن، وإنما تدفع إليه بعد أن يتجاوز سن اليتم ويصير رشيدًا فتسميتهم "يتامى" عندئذ باعتبار ما كان قبل ذلك، والقرينة: الأمر بدفع أموالهم إليهم لاستحقاقهم التصرف فيها... وإيثار التعبير عنهم بلفظ اليتامى مع أن اليتم قد زال يفيد أمرين:

أولهما: الإنباء بسرعة إعطائهم أموالهم بمجرد ذهاب اليتم عنهم فكأن صفة اليتم لا تزال عالقة بهم وقت دفع المال، لأنه يدفع إليهم عقب زوالها مباشرة... وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾[٢].

ثانيهما: التذكير بحال هؤلاء اليتامى وكيف حُرِمُوا من عطف وحنان الأبوة وأنه لا يليق بالمؤمن أن يطمع في مال من هذا شأنه.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[٣]، سمي مجرمًا باعتبار ما كان عليه في الدنيا، لأن المرء لا يوصف بالإجرام بعد المات إلا باعتبار حاله التي كان عليها من قبل، ويومئ هذا الوصف بالحال التي يكون المجرم يوم القيامة عليها، حيث تبدو عليه آثار الذلة والمهانة والندم وكأن صفة الإجرام تظل لاصقة به في هذا اليوم ووراء ذلك ما وراءه من شدة العذاب والعقاب.

ومن ذلك قولنا: أكلنا قمحًا وشربنا عنبًا... أي: أكلنا خبزًا قد صنع من القمح وشربنا نبيذًا قد عصر من العنب... فتسمية الخبز قمحًا والنبيذ عنبًا باعتبار ما كان عليه من قبل، والقرينة أن العنب لا يشرب والقمح لا يؤكل عادة...

---

(١) سورة النساء الآية: ٢.

(٢) سورة النساء الآية: ٦.

(٣) سورة طه الآية: ٧٤.

علاقة اعتبار ما يكون: وهي أن يعبر عن الشيء باسم ما يئول إليه في المستقبل كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗا﴾[١]، يريد عنبًا يئول عصيره إلى خمر؛ لأن الخمر عصير والعصير لا يعصر، وإيثار لفظ الخمر بالتعبير ينبئ بالإثم الذي يرتكبه العاصر فهو لا يعصر عنبًا، وإنما يعصر خمرًا، ولذا قال النبي ﷺ: «**لعن الله الخمر وعاصرها ومعتصرها**»[٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[٣]، يريد أن مآله إلى الموت وهم كذلك بقرينة الخطاب؛ لأن من مات فعلا لا يخاطب... وقوله عز وجل: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ﴿٢٧﴾﴾[٤]، فالمولود يولد على الفطرة مؤمنًا نقيًا سواء أكان أبواه مؤمنين أم كافرين والمراد بـ "فاجرًا كفارًا" في الآية أن ما يلده الكفرة سيئول إلى ذلك في المستقبل، وقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾[٥]، أي بمولود مآله أن يكون غلامًا حليمًا.

علاقة المحلية: وهي أن يذكر اسم المحل ويراد الحال به كما في قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَا﴾[٦]، فالمراد: أهل القرية وأصحاب العير، فسمي الحال باسم محله مجازًا مرسلاً، وفي العدول عن الحقيقة إلى المجاز إشارة إلى ذيوع أمر السرقة، واشتهارها: ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾[٧]، إلى درجة أنه لو سئلت القرية والعير أي الجمادات والحيوانات لنطقت بها وأجابت.

---

(١) سورة يوسف الآية: ٣٦.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (٥٧١٦)، ونص الحديث كاملاً: «لعن الله الخمر، ولعن شاربها وساقيها، وعاصرها ومعتصرها، وبائعها ومبتاعها، وحاملها والمحمولة إليه، وآكل ثمنها».

(٣) سورة الزمر الآية: ٣٠.

(٤) سورة نوح الآية: ٢٧.

(٥) سورة الصافات الآية: ١٠١.

(٦) سورة يوسف الآية: ٨٣.

(٧) سورة يوسف الآية: ٨١.

وقوله عز وجل: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾[(١)]، فالمراد: أهل ناديه لاستحالة دعاء النادي الحقيقي، تسمية للشيء باسم محله.

ومنه قول الشاعر:

إنَّ العَــدُوَّ وإنْ تقــادَمَ عَهــدُهُ فَالْـحِقْدُ بـاقٍ في الـصُّدُورِ مُغيَّـبُ

فالمراد بالصدور: القلوب التي تحل بها تسمية للشيء باسم محله.

علاقة الحالية: وهي أن يذكر اسم الحال ويراد المحل كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[(٢)]، فالمراد برحمة الله: جنته؛ لأن الرحمة حالة فيها تسمية للشيء باسم ما يحل به، وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[(٣)]، فالمراد بالزينة: اللباس وكل ما تحل به، لأن الزينة لا تؤخذ.

ومنه قول المتنبي يصف جيوش سيف الدولة.

وَالأَعْوَجِيَّــةُ مِـلْءُ الطُّـرْقِ خَلْفَهُــمُ والـمـشرَفِيَّةُ مِـلْءُ الْيَـومِ فَـوْقَهُمُ[(٤)]

المعنى: أن خيول الجيش قد ملأت الطرق وسيوفه قد سدت الفضاء... فعبر باليوم وأراد: الفضاء الذي يحل به اليوم ويأتي عليه الليل والنهار، فهو مجاز مرسل علاقته الحالية.

وقول الآخر:

أَلِمَّـا عـلى مَعْـنٍ وَقُـولاَ لِقَـبْرِهِ سَـقَتْكَ الْغَـوَادِي مِرْبَعًـا بعـد مِرْبـعِ[(٥)]

أراد: ألما على قبر معن فذكر الحال وهو معن، وأراد ما يحل به وهو القبر.

علاقة الآلية: وهي أن يعبر عن الشيء باسم الآلة التي يحصل بها كما في قوله

---

(١) سورة العلق الآية: ١٧.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٠٧.

(٣) سورة الأعراف الآية: ٣١.

(٤) الأعوجية: الخيل المنسوبة إلى أعوج وهو فرس كريم لبني هلال والمشرفية: السيوف.

(٥) ألما: أنزلا به، والغوادي: السحاب ينشأ غدوة ومفردها: غادية. مربع: أربعة أيام متوالية.

تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾[١]، والمراد: إلا بلغة قومه فذكر اللسان، وأراد اللغة؛ لأنه آلة للتعبير عنها... وقوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٍ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾[٢]، المراد: اجعل لي ذكرا حسنا يدوم بعد مماتي، فسمي الذكر لسانًا، لأن اللسان هو الآلة التي يوجد بها الذكر والثناء.

ومنه قوله عز وجل: ﴿فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ﴾[٣]، عبر بالعين وأراد البصر والرؤية؛ لأن العين آلة الإبصار فهو مجاز مرسل علاقته الآلية.

علاقة المجاورة: وهي أن يعبر عن الشيء باسم ما يجاوره، وذلك إذا كثر اقتران الاسمين ومجاورتهما كثرة تسوغ استعمال أحدهما مكان الآخر، كما في إطلاق لفظ الراوية على المزادة أي قربة الماء من قولنا: شربنا من الراوية أو خلت الراوية من الماء، والراوية اسم للبعير الذي يُحمل عليه الماء فلما كثرت مجاورة المزادة لظهر الراوية أطلق على المزادة اسم الراوية مجازًا مرسلاً علاقته المجاورة.

ومنه قولنا: ركب الفرسان سروجهم، نريد خيولهم، فسميت الخيول سروجًا لكثرة مجاورتها لظهور الخيل... وقولنا: أصابتنا السماء نريد الغيث المجاور عادة لجهة السماء. وقولنا: جر الغلام الخفض نريد البعير الهزيل المخصص لحمل الأمتعة الحقيرة والخفض: اسم للحقير التافه من متاع البيت فسمي البعير باسم ما يحمله لعلاقة المجاورة... ومنه قول عنترة العبسي:

فَشَكَكْتُ بِالرُّمحِ الأَصَمِّ ثِيَابَهُ   لَيسَ الكَريمُ على الْقَنَا بِمُحَرَّم

وقول ليلى الأخيلية:

رَمَوْهَا بأثوابٍ خِفَافٍ فلا تَرَى   لهَا شَبَهًا إلا النَّعَامَ الْمُنَفَّرَا

ذكر عنترة الثياب وأراد الجسد، وذكرت ليلى الأثواب، وأرادت الرجال الذين ركبوا الإبل فرموها بأنفسهم، وذلك على طريق المجاز المرسل لعلاقة المجاورة. وقول الآخر:

---

(١) سورة إبراهيم الآية: ٤.

(٢) سورة الشعراء الآية: ٨٤.

(٣) سورة الأنبياء الآية: ٦١.

إنَّ لنـــا أحمِـــرَةً عِجَافًـــا يَـــأكُلْنَ كـــلَّ ليلـــةٍ إكَافَـــا[١]

أطلق لفظ الإكاف على العلف الذي تأكله الأحمرة للمجاورة لأن العلف يحمل على الإكاف، ويحتمل أن تكون العلاقة السببية؛ لأن ثمن الإكاف سبب في الحصول على العلف.

علاقات أخرى: ومن علاقات المجاز المرسل: اللزومية وهي أن يطلق اسم اللازم ويراد الملزوم كقولنا: نظرت إلى الحرارة والمراد: نظرت إلى النار أو إلى مولد الحرارة... فالحرارة يلزم لها وجود نار أو مولد لها والنظر يكون إلى النار أو إلى هذا المولد... ففي لفظ الحرارة مجاز مرسل علاقته اللزومية حيث أطلق اللازم وأريد الملزوم وقد يطلق الملزوم ويراد اللازم كقولنا: دخلت الشمس من النافذة، والمراد: دخل الضوء، فالضوء لازم للشمس.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾[٢]، وقوله عز وجل: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[٣]، فالمعنى الحقيقي للفظ: "منع" هو الصرف عن فعل الشيء، والمعنى المراد منه في الآيتين هو الدعوة إلى تركه، فيكون معنى: ما منعك...؟ ما دعاك إلى ترك الاتباع... والسجود؟ من استعمال اسم الملزوم وهو المنع والصرف عن الفعل وإرادة لازمه وهو الدعوة إلى تركه... وهذا معنى سليم لا يحوج إلى القول بزيادة "لا" في الآيتين وهو رأي الإمام السكاكي.

وفي الآيتين وجوه أخرى أهمها:

١- أن لفظ منع على معناه الحقيقي و "لا" صلة "زائدة" والمعنى: ما صرفك عن اتباعي... وعن السجود؟

٢- أن "منع" ليس مأخوذًا من المنع بمعنى الصرف بل من المنعة والحماية فيكون المراد: ما حماك مني حين تركت السجود؟ وما حماك حين تركت

(١) أحمرة: جمع حمار وعجافا: جمع عجفاء وهي الهزيلة والإكاف: بردعة الحمار.

(٢) سورة طه الآيتان: ٩٢، ٩٣.

(٣) سورة الأعراف آية: ١٢.

اتباعي؟ وعندئذ لا مجاز في اللفظ، لأن منع بمعنى حمى: حقيقة لغوية... ولا يقال: إن جواب "هارون" ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾(١)، وجواب إبليس: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾(٢)، يبطلان هذا الرأي إذ الجواب الصحيح ينبغي أن يكون: حماني كذا أو حماني فلان... لأنا نقول: الجواب لا يتحتم أن يكون على وفق السؤال بل كثيرًا ما يجاب المستفهم بغير ما يتطلب استفهامه لسر بلاغي يقتضيه المقام كما في الآيات الكريمة:

﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾(٣).

﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾(٤)، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة(٥).

والسر البلاغي في العدول عما يتطلبه السؤال في الآيتين إلى ما عليه النظم الكريم هو التسليم بأنه لا كالئ يحرسه ولا حامي يحميه وكأن المسئول قد فتش ونقب فلما لم يجد منعة ولا حماية أجاب بها أجاب.

٣- أن تكون الآيتان بتقدير "في" لا "من" والمعنى: ما سبب امتناعك في تركك اتباعي... وفي تركك السجود.

ومن هذه العلاقات: التعلق الاشتقاقي، وهو أن يذكر اللفظ ويراد ما اشتق منه من اسم الفاعل، أو المفعول كقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾(٦)، وقوله عز

---

(١) سورة طه آية ٩٤.

(٢) سورة الأعراف آية: ١٢.

(٣) سورة الأعراف الآية: ١٢٧.

(٤) سورة الأنبياء: ٥٣.

(٥) ارجع إلى أساليب الاستفهام في القرآن الكريم ص ٢٩٤.

(٦) سورة لقمان الآية ١١.

وجل: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾(١)؛ حيث أطلق المصدر في الآيتين وأريد اسم المفعول... ومنها العموم والخصوص كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾(٢)، فالمراد بلفظ الناس الأول: المثبطون، وبالثاني أبو سفيان ومن معه من المشركين... وكقوله عز وجل: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾(٣)، فالمراد بالناس النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه رضوان الله عليهم... فقد ذكر لفظ العموم في الآيتين وأريد به الخصوص.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾(٤)، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾(٥)، فقد ذكر لفظ النبيﷺ في الآيتين وأريد به كل مكلف فهو من إطلاق لفظ الخاص وإرادة العام.

ومنها علاقة الضدية كقولنا: سرت في مفازة ممتدة والمراد: صحراء مهلكة وقولنا: انظر أيها الأعمى، في مقام التوبيخ فالمراد بلفظ الأعمى: البصير وكذا إطلاق لفظ "السليم" على "اللديغ" أو "الجريح" وإطلاق لفظ "الملآن" على "الفارغ".

ومنها علاقة الإطلاق والتقييد وهي أن يكون اللفظ مقيدًا فيطلق عن قيده كما في قول رؤبة بن العجاج:

ومقلةً وحَاجِبًا مُزَجَّجَا ... وَفَاحِمًا ومَرْسِنًا مُسَرَّجًا(٦)

---

(١) سورة البقرة ٢٢٥.

(٢) سورة آل عمران: ١٧٣.

(٣) سورة النساء: ٥٤.

(٤) سورة الأحزاب: ١.

(٥) سورة الطلاق: ١.

(٦) الفاحم: الشعر الشديد السواد. والمسرج: نسبة إلى سريج أو إلى السراج فالمراد على الأول: الدقة والاستواء وعلى الثاني: الحسن والبهجة... ارجع إلى هذا البيت في كتابنا علم المعاني الجزء الأول.

فالمرسن: اسم لمحل الرسن وهو أنف البعير أطلق عن قيده وأريد به: مطلق أنف فصح إطلاقه على أنف الإنسان باعتباره أحد أفراد هذا المطلق هذا هو رأي السكاكي ويرى عبد القاهر أن اللفظ بعد أن يطلق يقيد ثانية فلفظ "المرسن" أطلق عن قيده وأريد به مطلق أنف ثم قيد مرة ثانية وأريد به أنف الإنسان. فالسكاكي يرى أن المتكلم قد تصرف تصرفًا واحدًا وهو إطلاق اللفظ عن قيده وعبد القاهر يرى أن المتكلم يحتاج إلى تصرف ثان وهو التقييد بعد الإطلاق... ومن ذلك إطلاق "المشفر" على شفة الإنسان وهي في الأصل للبعير... وإطلاق الخرطوم على أنفه وهو في الأصل للفيل كما في قوله تعالى: ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾[(١)]، أطلق الخرطوم على أنف الوليد بن المغيرة وهو في الأصل للفيل.

المجاز الخالي من الفائدة والمفيد: المجاز المرسل إذا كانت علاقته: الإطلاق والتقييد فهو خال من الفائدة لأنه لا يخرج عن استعمال اللفظ في أعم مما وضع له عند السكاكي وعن استعمال المقيد في مقيد آخر عند عبد القاهر فكان هذا الاستعمال كاستعمال المترادفات في أن كلاً من اللفظين لا يفيد معنى أكثر مما يفيده الآخر.

أما إذا كانت علاقته غير الإطلاق والتقييد فإنه لابد أن يفيد فائدة تختلف باختلاف نوع العلاقة... فتوجه السؤال إلى القرية وإرادة أهلها يفيد المبالغة في شيوع أمر السرقة... والتعبير بالرزق عن الماء وبأسنمة الآبال عن الغيث يفيد إبراز السببية والإشارة إلى تكفل المولى عز وجل بالأرزاق وإلى تعلق نفس العربي ولهفته إلى الغيث... وهكذا على نحو ما مر بك في تلك العلاقات.

تحول المجاز الخالي من الفائدة إلى مفيد: المجاز المرسل الذي علاقته "الإطلاق والتقييد" خال من الفائدة -كما ذكرنا- لأن المراد بتلك العلاقة مجرد التعبير عن هذا العضو بذاك... التعبير مثلاً عن الأنف بالمرسن وبالخرطوم، وعن الشفة بالمشفر...دون قصد إلى ذم أو هجاء أما إذا قصد ذلك فإنه عندئذ يصير مفيدًا ويخرج من دائرة المجاز المرسل إلى دائرة الاستعارة المفيد إذ تصبح علاقة المجاز حينئذ المشابهة.

---

(١) سورة القلم: ١٦.

من ذلك قول الفرزدق في الهجاء:

فلو كنتَ ضَبِّيًا عَرَفْتَ قَرابَتِي ولكنَّ زِنْجِيٌّ غَلِيظُ الْمَشَافِرِ(١)

شبه شفتيه بشفتي البعير في الغلظ ثم استعمل لفظ المشبه به في المشبه على طريق الاستعارة وهو يرمي بذلك إلى ذمه وتقبيح صورته.

وقول الحطيئة يخاطب الزبرقان بن بدر:

قَرَوْا جارَكَ الْعَيْمَانَ لَمَّا جَفَوْتَهُ وَقَلَّصَ عن بَرْدِ الشَّرَابِ مَشَافِرُهُ(٢)

أراد الحطيئة أنه بقي في جوار الزبرقان وهو ظمآن إلى اللبن ولم يجد في جواره ما يسد به رمقه سوى الماء الذي أثر في شفتيه فتقلصتا وصارتا كشفتي البعير فلما صار إلى غيره وترك جواره أكرمه ذلك الغير.

والشاهد في البيت: استعارة المشافر للشفاه تقبيحًا لصورتها وتشويهًا لمنظرها لينبئ عن سوء معاملة الزبرقان له. ومنه قول الآخر:

سَأَمْنَعُها أَوْ سَوْفَ أَجْعَلُ أَمْرَهَا إلى مَلِكٍ أَظْلاَفُهُ لَمْ تَشَقَّقِ

يقول: سأمنع ناقتي أن تسير إلى أحد أو أجعل وجهة سيرها إلى ملك عظيم عريق في الملك لا إلى عبد دخيل على الملك مشقق الأظلاف... والشاهد في البيت: استعارة الأظلاف وهي لما اجتر من الحيوان لأظافر المذكور على سبيل السخرية والتهكم فالجامع بين الأظافر والأظلاف هو تشققها وسوء منظرها والشاعر في هذا البيت يعرض بأحد الملوك.

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ١٦﴾(٣)، أطلق لفظ الخرطوم وهو للفيل على أنف ذلك المعاند على سبيل السخرية والتهكم... فلفظ الخرطوم مستعار للأنف وليس مجازًا مرسلاً.

---

(١) اسم لكن محذوف والتقدير: ولكنك زنجي.

(٢) قروا: أضافوا من القرى. العيمان: الظمآن إلى شرب اللبن... وقلص: انقبض وانكمش من تأثير الشراب البارد يعني أنه لم يجد عنده إلا الماء.

(٣) سورة القلم آية: ١٦.

المزايا البلاغية للمجاز المرسل

لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز المرسل إلا لإفادة أسرار متنوعة وتحقيق أغراض بلاغية متعددة أهمها ما يلي:

١-**الإيجاز كما في قولنا:** رعينا الغيث... فهو أوجز من قولنا رعينا النبات الذي كان الغيث سببًا في نموه واخضراره، فقد طوى المسبب وذكر في موضعه السبب... وكما في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾(١)، أي: ينزل الماء الذي يتسبب في إيجاد الرزق.

٢-**المبالغة كما في قوله عز وجل:** ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾(٢)، فقد ذكرت الأصابع في موضع الأنامل مبالغة في تعطيل أسماعهم لشدة عتوهم ونفورهم وإعراضهم عن الحق.

٣-يفسح مجال التعبير أمام الأديب أو المتكلم فعن طريق المجاز يستطيع أن يتخير الألفاظ الملائمة للقافية أو الفاصلة، وأن يتجنب الألفاظ التي تخل بفصاحة الكلام، فيترك الحقائق ويستعمل المجازات حتى يسلم تعبيره مما يخل بفصاحته.

٤-يعين المتكلم على تحقيق ما يهدف إليه من أغراض. كالتعظيم والتحقير والتهويل وغير ذلك، تقول: رأيت العالم، تقصد: رأيت طالب العالم الذي سيصير عالمًا... فأنت بذلك تعظمه وترفع من شأنه... وتقول: انظر إلى الجيفة كيف يطغى ويتكبر... تريد من سيموت فيصبح جيفة منتنة، فأنت بهذا تحقره وتضع من شأنه... ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾(٣)، ينبئ التجوز في الآية الكريمة بالخوف والفزع والأهوال التي انتابتهم، والرعب الذي اعتراهم، والذي من أجله حاولوا إخفاء أسماعهم بأقصى ما يستطيعون.

٥-كما لا يخلو المجاز المرسل من خيال يعرض للسامع عندما تمر بذهنه المعاني

---

(١) سورة غافر آية: ١٣.

(٢) سورة نوح آية: ٧.

(٣) سورة البقرة آية: ١٩.

الحقيقية لتلك الألفاظ التي سرعان ما تتلاشى أمام المعاني المجازية المقصودة... هذا الخيال يحقق الجمال وإمتاع النفس التي ترى النبات والرزق بمختلف صنوفه يتدفق من السماء، وأسنمة الآبال يسعى بها السحاب... وهذا يأكل دمًا ويمضغه بأسنانه... وذاك يأكل نارًا فتكوى بها أحشاؤه... هذه الصور تخطر في النفس فور سماع جملها وهي وإن كانت تزول سريعًا أمام المعنى المراد بنصب القرينة؛ إلا أنه بخطورها يتحقق إمتاع النفس وإثارة الذهن فتقع المعاني في النفس موقعها... إلى غير ذلك من الأغراض البلاغية والأسرار واللطائف التي تكمن وراء أساليب المجاز المرسل.

☆☆☆

الاستعارة

تختلف الاستعارة عن المجاز المرسل -كما سبق- في أن العلاقة فيها بين المعنيين: الأصلي الذي وضع له اللفظ، والمجازي الذي استعمل فيه هي علاقة المشابهة... ولك أن تعرف الاستعارة بالمعنى الاسمي فتقول: هي اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي، أو أن تعرفها بالمعنى المصدري فتقول: هي استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي... ولذا صح الاشتقاق فيقال: لفظ مستعار، ومتكلم مستعير، ومعنى مستعار منه وهو المشبه به، ومعنى مستعار له وهو المشبه.

ومن شواهدها قوله تعالى في شأن المنافقين: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ ﴾(١)؛ حيث استعير لفظ المرض من العلة الجسمانية للنفاق، والعلاقة هي المشابهة الحاصلة بين المرض والنفاق في أن كل منهما يفسد ما يتصل به، المرض يفسد الأجساد والنفاق يفسد القلوب، والقرينة المانعة من إرادة المرض الجسماني هي أن الآية الكريمة مسوقة لذم المنافقين الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإسلام، ولا معنى لأن يكون الذم في وصفهم بالمرض الجسماني، بل المراد، ذمهم بفساد قلوبهم، والعدول عن الحقيقة إلى المجاز في الآية الكريمة ينبئ بتمكن النفاق واستحكامه واستقراره في قلوب المنافقين، حتى صار مرضا مازج دماءهم واستشرى فيها...

ومنها قول زهير:

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلَاحِ مُقَذَّفٍ ... لَهُ لُبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ(٢)

حيث استعار لفظ الأسد للبطل الشجاع المدجج بالسلاح، وقد أضفت الصفات المذكورة "مقذف له لبد أظفاره لم تقلم"، أضفت على المستعار له ألوانًا من

(١) سورة البقرة آية: ١٠.

(٢) شاكي السلاح من الشوكة وهي القوة وأصله: شائك، ففيه قلب مكاني، والمراد أنه قوي تام السلاح، والمقذف: الذي يرمى به كثيرًا في الوقائع لقوته، أو الذي قذف باللحم، واللبد: الشعر المتجمع بين كتفي الأسد.

القوة وصنوفًا من البطولة الفائقة... وواضح لك أن المشبه في كل من الآية والبيت قد طوى وطرح وذكر في مكانه المشبه به.

ومنها قول أبي ذؤيب الهذلي:

وإذا المنيةُ أنشبَتْ أظفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

فقد جعل للمنية أظفارًا تنشبها في فريستها؛ حيث شبهها بالسبع، وطوى المشبه به رامزا له بشيء من لوازمه وهو الأظفار والإنشاب اللذان أثبتهما للمشبه... وهذا الإثبات قرينة الاستعارة.

هذا وقد عرف الخطيب القزويني الاستعارة بقوله: "هي ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له"(١) فهي مبنية على التشبيه وقائمة عليه ومتضمنة له، كما رأيت في الشواهد، ولا يصرح فيها إلا بطرف واحد من طرفي التشبيه، فإن صرح في العبارة بطرفي التشبيه معا نحو: محمد أسد، ورأيته بحرًا، ولئن سألته لتسألن به الغيث، فهل يعد مثل هذا الكلام من قبيل الاستعارة أم يعد تشبيهًا؟ هذا ما سنقف عليه فيما يلي إن شاء الله.

الفرق بين الاستعارة والتشبيه البليغ

عرفنا أن جملة التشبيه تتكون من مشبه ومشبه به وأداة تشبيه ووجه شبه وأن هذه الأجزاء قد تذكر جميعها فيقال: أنت كالبحر عطاء، وقد يحذف الوجه فيقال: أنت كالبحر أو الأداة فيقال أنت البحر عطاء، ولا خلاف بين العلماء في كون هذا تشبيهًا وليس استعارة... وقد تحذف الأداة والوجه معًا فيقال: أنت الأسد أو أنت أسد أو هو بحر ويسمى هذا بالتشبيه البليغ -كما مر بنا- وقد يلحق بالأداة والوجه المشبه فيحذف وينوي تقديره لا يطرح منسيًا إذ هناك فرق بين الحذف مع نية التقدير كقوله تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾(٢)، وقول القائل:

أسدٌ عليَّ وفي الحروبِ نَعَامَةٌ ... فَتْخَاءُ تَنْفِرُ من صَفِيرِ الصَّافِرِ

---

(١) الإيضاح جـ ٣ ص ١٠٤.

(٢) سورة البقرة آية: ١٨.

وبين الحذف مع نسيان المحذوف وعدم إرادته كقولنا: رأيت بحرًا يخطب الناس في المسجد، فقد حذف المشبه هنا ولا يتأتى تقديره بل إن تقديره يخل بالمعنى ويغير الأسلوب ويحول مجرى الكلام، وقد اختلف العلماء في التشبيه البليغ وهو الذي حذفت أداته ووجهه أو لحق بهما المشبه على نية تقديره وإرادته، فبعضهم عده تشبيهًا وبعضهم جعله استعارة وبعضهم فصل القول فجعل منه تشبيهًا في بعض السياقات واستعارة في سياقات أُخرى... أما إذا حذف المشبه ولم يرد بل دخل في جنس المشبه به وعد فردًا من أفراده نحو: رأيت أسدًا يحارب بسيفه... أو حذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه وأجرى هذا اللازم على المشبه فجعل له نحو: أنشبت المنية أظفارها، فلا خلاف بين العلماء في كون هذا استعارة وليس بتشبيه... الخلاف إذًا ينحصر في التشبيه البليغ أتشبيه هو أم استعارة؟ وإليك بيان آراء البلاغيين في ذلك.

رأي جمهور البلاغيين: يرى أكثر البلاغيين أن نحو قولنا: محمد أسد، وكان خالد أسدًا، وعلمت عليًا بحرًا، وفر الجبان نعامة، ومررت بفتاة بدر... وقول المتنبي مادحًا:

أَسَدٌ دمُ الأَسَدِ الْهِزَبْرِ خِضَابُهُ   مَوْتٌ فَرِيصُ الْموتِ منهُ يُرْعَدُ(١)

أي: أنت أسد وموت... وقول عمران هاجيا:

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامةٌ   فتخَاءُ تنفِرُ مِنْ صفيرِ الصافرِ

أي: أنت أسد ونعامة. يرون أن مثل هذا تشبيه بليغ ويفرقون بينه وبين الاستعارة من عدة وجوه:

أولها: أن المشبه به في التشبيه البليغ محكوم به على المشبه -كما في الشواهد المذكورة فقولنا: محمد أسد، أفاد إثبات معنى الأسدية لمحمد فمحمد محكوم عليه وأسد محكوم به، وهذا لا يتأتى إلا عن طريق التشبيه، إذ يستحيل كون محمد أسدًا

---

(١) الهزبر: أقوى أنواع الأسود، والخضاب: الحناء، والفريص: جمع فريصة، وهي لحمة بين الثدي والكتف أو بين الجنب والكتف.

على الحقيقة، وهذه الاستحالة قرينة على أن مقصود المتكلم إثبات مشابهة محمد لحقيقة الأسد، لا إثبات حقيقة الأسد له... أما في الاستعارة فالمشبه به محكوم عليه بغيره فقولنا: كلمت أسدًا وعنت لنا ظبية، المشبه به، وهو الأسد والظبية محكوم عليه، إذ الكلام وقع على الأسد والظهور وقع من الظبية، فالسياق ليس لإثبات التشبيه كما في "محمد أسد" وإنما لإثبات الظهور –والكلام المحكوم بهما على المشبه به.

ثانيها: أن التشبيه غرض مقصود لذاته في التشبيه البليغ لإفادة المبالغة وليس وسيلة لإفادة غيره ولذا استحق اسم التشبيه، أما في الاستعارة فالتشبيه ليس غرضًا مقصودًا لذاته، بل هو مقصود تبعًا إذ هو وسيلة يتوصل بها إلى جعل المشبه واحدًا من أفراد المشبه به، ولذا نتناساه ونتجاهله فيطوى المشبه ويحذف، وَأَحيَانًا ترشح الاستعارة بأوصاف لا تلائم المشبه ولا توجد فيه بل توجد في المشبه به، كما في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[1]؛ حيث استعير الشراء للاختيار ثم رشحت الاستعارة بذكر ما يلائم المستعار منه أي المشبه به وهو الربح والتجارة فهما يلائمان "الشراء" المستعار منه.

ثالثها: أن المشبه في التشبيه البليغ مذكور في الكلام إما لفظًا أو تقديرًا- كما في الشواهد المذكورة-، أما في الاستعارة فيجب حذفه وطيه وتناسيه –كما رأينا- ولذا كانت المبالغة في الاستعارة أقوى والخيال أشد، فقد يقع في الوهم أن المشبه به مراد به معناه الحقيقي لا المجازي، وذلك قبل الوقوف على القرينة، فإذا قلنا: رأيت أسدًا يخطب الناس فقد يقع في الوهم قبل أن نقف على القرينة أن المراد: الحيوان المفترس، وسرعان ما يندفع هذا التوهم بالقرينة... وذلك لا يتأتى في التشبيه البليغ لوجود المشبه لفظًا أو تقديرًا...

رابعها: هناك من الأساليب ما صرح فيها بلفظي المشبه والمشبه به وحذفت منها أداة التشبيه ووجه الشبه، ولكن لم يقع المشبه به خبرًا عن المشبه ولا في حكم

---

(١) سورة البقرة آية: ١٦.

الخبر... وذلك كأسلوب التجريد في نحو: لئن سألت فلانا لتسألن به البحر، ولقيت بفلان أسدًا وقابلت به بحرًا، فقد ذكر المشبه وهو فلان والمشبه به وهو البحر والأسد ولم يقع المشبه به خبرًا عن المشبه... ولذا لم يقل أحد بأن هذا الأسلوب تشبيه بليغ، وفي ذات الوقت لـم يقل أحدٌ بأنه استعارة... بل هو تشبيه بالاتفاق ولكن الخلاف في كونه تشبيهًا صريحًا أم تشبيهًا ضمنيًا، وأكثر البلاغيين على أنه تشبيه ضمني، فهو أسلوب مستقل يتضمن التشبيه ولهذا يقع في بعض صوره ما لا يفيد التشبيه أصلاً، كقولنا: لي من فلان صديق حميم... ولقيت به رجلاً كريمًا... ومن تلك الأساليب قول الله عز وجل: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾(١)، فقد صرح بالمشبه به، وهو: "الخيط الأبيض" و"الخيط الأسود" وبالمشبه وهو "من الفجر" ودل السياق على إرادة المشبه الآخر المقابل للخيط الأسود وتقديره "من الليل"، وحذفت الأداة ووجه الشبه، ولم يقع المشبه به خبرًا عن المشبه، ولا في حكم الخبر كما هو واضح... ولذا... فهو ليس بتشبيه بليغ وفي نفس الوقت ليس باستعارة وإنما هو تشبيه ضمني...

يقول الزمخشري: (إن قوله "من الفجر" أخرجه من باب الاستعارة، كما أن قولك: رأيت أسدًا مجاز فإذا زدت من فلان رجع تشبيهًا)(٢).

ومنها قولك: ضوء الشمس مسروق من ضوء جبينه، وقول أبي تمام:

لا تُنكري عُطْلَ الكريم من الغنى ... فالسيلُ حربٌ للمكانِ العالي

وقول المتنبي:

مَنْ يهُنْ يَسْهُلِ الْهَوَانُ عَلَيْهِ ... مَا لِجُرْحٍ بميِّتٍ إيلامُ

فليس هناك أداة تشبيه مذكورة، ومع هذا أفادت تلك الأساليب التشبيهات الضمنية؛ حيث استشف منها طرفا التشبيه.

رأي بعض البلاغيين: ويرى بعض العلماء أن هذا الأسلوب أي: التشبيه

(١) سورة البقرة الآية: ١٨٧.

(٢) الكشاف جـ١ ص ١٧٥.

المحذوف الوجه والأداة، والذي يقع المشبه به فيه خبرًا عن المبتدأ أو في حكم الخبر، كما في الأمثلة التي مرت بك... يرونه استعارة لا تشبيهًا، ويحتجون لرأيهم بما يلي:

١. أن فيه ما في الاستعارة من المبالغة في دعوى الاتحاد بين المشبه والمشبه به.

٢. أن حمل المشبه به على المشبه والحكم به عليه في نحو: محمد أسد، يرجع إلى أن لفظ "أسد" ليس مستعملاً في معناه الحقيقي الذي هو الحيوان المفترس بل هو مستعمل في معنى "الجريء" فحمله على "محمد" باعتبار أن محمدًا أحد أفراد "الجريء" وهذا الحمل صحيح لاتحاد الحقيقتين، ومن ثم كان لفظ "أسد" استعارة لا تشبيهًا.

والواقع أن الخلاف بين الرأيين لفظي -كما ذكر الخطيب- ومرجعه إلى الاختلاف في تعريف كل من التشبيه والاستعارة وإلى محاولتهم تصحيح الحمل في نحو: محمد أسد فمن عرف التشبيه بأنه الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى بأداة مذكورة أو مقدرة أخرج التشبيه البليغ من الاستعارة وكذلك من عرف الاستعارة بأنها المجاز الذي تضمن تشبيه المعنى المراد بالمعنى الذي وضع له اللفظ أخرج أيضًا التشبيه منها لأنه يلزم عليه تشبيه الشيء بنفسه، وقد صحح هؤلاء الحمل في نحو: محمد أسد بتقدير أداة التشبيه... ومن عرف التشبيه بأنه الدلالة على مشاركة أمر لأمر بأداة مذكورة لا محذوفة جعل التشبيه البليغ استعارة، وكذا من عرف الاستعارة بأنها الكلام الذي بني التشبيه فيه على حذف الأداة ودعوى الاتحاد بدخول المشبه في جنس المشبه به... وقد صحح هؤلاء الحمل في نحو: محمد أسد بأن محمدًا يعد أحد أفراد "الجريء" الذي استعمل فيه لفظ الأسد.

رأي عبد القاهر: يرى الإمام عبد القاهر أن التشبيه الذي حذفت أداته ووجه ووقع المشبه به فيه خبرًا عن المبتدأ أو في حكم الخبر، يرى أن مثل هذا من التشبيه وليس استعارة ولكنه يعود فيفصل القول فيه على النحو التالي:

١ - بعض جمل هذا التشبيه لا يجوز تسميتها استعارة وهي تلك الجمل التي يمكن دخول جميع أدوات التشبيه عليها ويكون دخولها مقبولاً ومستساغًا،

ويتحقق ذلك إذا كان المشبه به معرفة نحو: محمد الأسد، وهند شمس النهار فيمكننا أن نقول: محمد كالأسد، وكأن محمدًا الأسد، وهو مثل الأسد، ويشابه الأسد، وخلته الأسد، وكذا هند كشمس النهار، وكأنها شمس النهار وحسبتها شمس النهار وهي مثل شمس النهار وتشبه شمس النهار.

٢- بعضها يجوز تسميته استعارة، ولكن تسميته بالتشبيه أقرب وأفضل، وهي تلك الجمل التي يحسن دخول بعض أدوات التشبيه عليها دون بعض وذلك إذا كان المشبه به نكرة نحو: زيد أسد، وهند بدر فيحسن أن تقول: كأن زيدًا أسد، وكأن هندًا بدر وخلته أسدًا وعلمتها بدرًا، ولا يحسن أن نقول: هو كأسد، وهي كبدر، ولذا صار له شبه ما بالاستعارة في عدم تقدير الأداة معها...

٣- بعضها يترجح تسميته استعارة وهي الجمل التي لا يحسن تقدير أداة من أدوات التشبيه فيها إلا بتغيير في بنائها وذلك بأن يكون المشبه به نكرة موصوفة بأوصاف لا تلائمه نحو: فلان بدر يسكن الأرض، وهو شمس لا تغيب... وقول البحتري:

شَمسٌ تَأَلَّقُ والفِراقُ غُرُوبُهَا   عَنَّا وبدرٌ والصُّدُودُ كُسُوفُه(١)

فلا يحسن تقدير الأداة هنا إلا بتغيير في صياغة الكلام فيقال: فلان كالبدر إلا أنه يسكن الأرض، وكالشمس إلا أنه لا يغيب وكالشمس المتألقة إلا أن الفراق غروبها، وكالبدر إلا أن الصدود كسوفه، وذلك لأن دخول الأداة بدون تغيير يؤدي إلى التشبيه بشيء مجهول لا حقيقة له، ولذا غيرت النكرة إلى معرفة ليكون المشبه به هو جنس البدر، لا واحدًا من أفراده، وجيء بالاستثناء لصرف الوصف بسكنى الأرض عن البدر الحقيقي إلى البدر الادعائي وهو الممدوح... وهكذا.

٤- بعضها يتعين حمله على الاستعارة وهي تلك الجمل التي يستحيل تقدير أدوات التشبيه فيها، لأن تقديرها يؤدي إلى التناقض وإفساد غرض المتكلم،

---

(١) تألق: أي تتألق بمعنى تلمع فحذفت التاء، والصدود: الإعراض، والكسوف: قد يطلق على احتجاب القمر كما يطلق على احتجاب الشمس.

وذلك إذا كان المشبه به نكرة موصوفة بصفات لا توجد فيه، ومراعاة التشبيه معها يفسد معنى الكلام، ويذهب بالغرض منه كقول المتنبي:

أسـدٌ دمُ الأسـدِ الْـهِزَبْرِ خِـضَابُه   مـوتٌ فـريصُ الـموت منـهُ يُرعَـدُ

فلا يقال: هو كأسد دم الأسد الهزبر خضابه... لأن مقتضى التشبيه أن يكون المشبه به أقوى من المشبه أو مثله في قوته، وقوله: "دم الأسد الهزبر خضابه، يقتضي أن يكون الممدوح أقوى من الأسد، وهذا تناقض، ولكن حمل البيت على الاستعارة يدفع هذا التناقض حيث تكون الصفات المذكورة منصبة على الممدوح لا على الأسد، وكذا القول في تشبيهه بالموت...

ومن ذلك قول البحتري:

وبـدرٌ أضـاءَ الأرضَ شرقًـا ومغْرِبًـا   وموضـعُ رِجْـلِي مِنْـهُ أَسْـوَدُ مُظْلِـمُ

فلو قلنا كأنه بدر أضاء... أو هو كبدر أضاء الكون إلا موضع قدمي... لأدى إلى التشبيه بمجهول لا وجود له، ولذهب بغرض البحتري وهو أن الممدوح يعم الناس بخيره ويخصه بالحرمان، وحمل البيت على الاستعارة يدفع ذلك ويحقق غرض الشاعر، إذ تكون هذه الصفات جارية على الممدوح لا على البدر، وبذا تتحقق المبالغة التي يقصدها البحتري.

أي هذه الآراء أرجح؟: وأرجح هذه الآراء رأي الجمهور، وهو أن التشبيه البليغ تشبيه وليس باستعارة حيث صرح فيه بطرفي التشبيه... وما يراه عبد القاهر من ترجيح إطلاق اسم الاستعارة على بعض صوره وتحتيم إطلاقها على بعض، يمكن دفعه بأن الكلام فيها مبني على الخيال، وعلى تصور وجود أشياء خيالية وأجناس جديدة تضاف إلى الأشياء الموجودة والأنماط المألوفة، فالمتنبي يتخيل أسدًا دم الأسود خضابه وموتًا فرائص الموت منه ترعد ثم يشبه بهما ممدوحه... وبدر البحتري بدر متخيل يضيء جميع الأرض إلا موضع قدمه، وهكذا... فهنالك بدر يسكن الأرض وشمس لا تغيب وهما من صنع الخيال... والذي ينعم النظر في كلام عبد القاهر يجده يحوم حول هذه الفكرة[١].

---

(١) انظر: أسرار البلاغة ص ٢٦٧، وارجع إلى كتابنا دراسات بلاغية مبحث الاستعارة والتشبيه البليغ.

أمجاز لغوي الاستعارة أم عقلي؟: اختلف البلاغيون في الاستعارة، هل تعد من قبيل المجاز اللغوي، أم هي من قبيل المجاز العقلي؟

فيرى جمهور البلاغيين أنها مجاز لغوي، بمعنى أن التصرف الذي يحدث فيها تصرف في دلالة اللغة؛ حيث يتم بتغيير في دلالة الألفاظ ونقلها من معانيها الأصلية إلى معان أخرى.

ودليلهم على ذلك أن لفظ المشبه به في الاستعارة كالبدر في قولنا: صافحت بدرًا وضع في اللغة للكوكب المضيء، ولم يوضع للمشبه وهو "الرجل المشرق الوجه" ولا لمعنى عام يشمل الكوكب والرجل، وهو "مطلق مشرق"، ولذا كانت دلالته على المشبه عن طريق التشبيه والادعاء ونقل اللفظ من الدلالة على الكوكب المضيء اللامع: إلى الدلالة على الرجل المشرق الوجه الحسن الطلعة، وهذا تصرف لغوي، ولا يقال: كيف يكون هذا تصرفًا لغويًا، ولفظ "البدر" لم يوضع للرجل المضيء، لأنه لو كان لفظ "البدر" موضوعًا للرجل البهي المضيء لكانت هذه الدلالة عن طريق اللغة لا عن طريق التشبيه.

والبلاغيون متفقون على أن هذه الدلالة عن طريق التشبيه والادعاء وكذا لو كان لفظ البدر موضوعًا لمطلق مشرق للزم أن يكون صفة مشتقة، لا اسم جنس واللغويون جميعًا متفقون على أنه اسم جنس... ولذا كانت الاستعارة مجازًا لغويًا.

ويرى بعض البلاغيين أنها مجاز عقلي، بمعنى أن التصرف الذي يحدث فيها تصرف عقلي بحت لا دخل للغة فيه، لأن النقل فيها ليس للألفاظ فقط، بل هو نقل للألفاظ والمعاني معا فلفظ "الأسد" في قولنا... رأيت أسدًا يتكلم، لا ينقل من الأسدية إلى الرجل الشجاع مجردًا عن معناه، بل ينقل معناه إلى المشبه ويجعل الرجل الشجاع بواسطة الادعاء واحدا من أفراد الأسود، وإذا صار واحدًا منهم كان إطلاق اسم الأسد عليه حقيقة، فالتصرف إذًا في تحويل الرجل الشجاع من حقيقة الإنسانية إلى حقيقة الأسدية، بواسطة أمور عقلية هي التشبيه ثم تناسيه وادعاء أنه صار واحدًا من أفراد الأسود، وكلها تصرفات عقلية، ويؤيد ذلك ما يلي:

١ - أن نقل الاسم لو كان مجردًا من معناه لكانت الأعلام المنقولة نحو:

يزيد ومنصور وخالد وصخر، من قبيل الاستعارة، لأنها نقلت من معانيها الأصلية وسمي بها أشخاص دون نقل معانيها معها، ولذا لم يقل أحد بأنها استعارة.

٢- لو كان نقل الاسم في الاستعارة مجردًا عن معناه لما كانت الاستعارة أبلغ من الحقيقة إذ لا أبلغية في نقل اللفظ مجردًا عن معناه.

٣- لو كان نقل الاسم في الاستعارة مجردًا من معناه لما صح أن نقول فيمن قال: عنت لنا ظبية، وأراد فتاة جميلة، إنه جعلها ظبية، أي أثبت لها معناها، كما لا يقال فيمن سمي ابنه صخرًا، إنه جعله صخرًا، لأن الجعل تحول من جنس إلى آخر، ولا تحويل في التسمية، لكن من المسلم به أن من قال: عنت لنا ظبية، وأراد فتاة جميلة، أنه يريد أن يجعلها ظبية، أي: يثبت لها معنى ظبية، ولهذا وبخ المشركون لجعلهم الملائكة إناثًا في قوله عز وجل: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾(١).

٤- لولا ادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به وصيرورته واحدًا من أفراده، لما صح التعجب في قول ابن العميد يصف غلامًا جميلاً قام على رأسه يظلله من الشمس.

قامَـــتْ تُظَلِّلُنِـــي مِـــن الـــشمسِ نفـــسٌ أعـــزُّ عـــليَّ مـــن نَفْـــسي
قامـــت تُظَلِّلُنِـــي ومـــنْ عَجَـــبٍ شَـــمْسٌ تُظَلِّلُنِـــي مـــن الـــشَّمْسِ

لأن ما يوجب التعجب هو الأمر الغريب النادر كشمس حقيقية تظلل من الشمس الحقيقية... ولما صح النهي عن التعجب في قول ابن طباطبا:

لاَ تَعْجَبُـــوا مـــن بِـــلِيَ غِلاَلَتِـــهِ قـــدْ زرَّ أَزْرَارَهُ عَـــلَى الْقَمَـــرِ(٢)

حيث استعار القمر لصاحبه وأدخله في جنس الأقمار فصح لذلك النهي عن التعجب...

---

(١) سورة الزخرف الآية: ١٩.

(٢) البلى: الفساد، والغلالة: ثوب صغير يلاقي البدن يلبس تحت ثوب أوسع منه، وزر: شد، وهم يزعمون أن ثياب الكتان يسرع إليها البلى عند بروزها لضوء القمر، فكيف إذا زرت عليه؟ إن البلى عندئذ يكون أشد سرعة إليها.

ومثله قول الآخر:

تَـرَى الثِّيَـابَ مِـنَ الكِتَّـانِ يَلْمَحُهَـا نُـورٌ مـن الْبَـدْرِ أحيانًـا فيُبْلِيهَـا
فكيـفَ نُنْكِـرُ أن تَبْـتَلى مَعَاجِرُهَـا والْبَـدْرُ في كـلِّ يـومٍ طَـالِعٌ فِيهَـا[١]

حيث استعار البدر للمرأة... وأدخلها في جنس البدر فصارت بدرًا حقيقيًا، فلم يعد غريبًا أن يبلي غطاء رأسها لطلوعها كل يوم فيه، ولا مجال لإنكار هذا البلى...

رد الجمهور: وقد رد الجمهور على هذه الأدلة بأن نقل معنى المشبه به إلى المشبه وادعاء دخوله في جنسه وجعله واحدا من أفراده مبني على التنزيل والافتراض وتناسي التشبيه، وذلك بقصد المبالغة، وليس تحويلاً للمشبه إلى حقيقة المشبه به في الواقع... فاللفظ المستعار لا يخرج عن كونه مستعملاً في غير ما وضع له، وصحة التعجب والنهي في الشواهد المذكورة، لا تقتضي أننا جعلنا المشبه هو نفس المشبه به على الحقيقة، بل جعلناه داخلاً في جنسه على طريق الادعاء لتحقيق المبالغة، وفرق بين جعل الشيء الشيء حقيقة وجعله إياه ادعاء وتخييلاً.

هل قيام القرينة المانعة ينافي الادعاء؟ وقيام القرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي للمشبه به في الاستعارة لا ينافي الادعاء، لأن ادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به وجعله واحدا من أفراده، ليس معناه جعل حقيقة المشبه هي حقيقة المشبه به في الواقع، بل بهذا الادعاء تصبح أفراد المشبه به نوعين: نوع يمثل الحقيقة الأصلية للمشبه به، ونوع يمثل الحقيقة الادعائية والقرينة إنما تمنع إرادة الأصلية، وتعين إرادة الادعائية وتنويع أفراد الجنس الواحد، ليس بدعا في استعمالات العرب بل هو سنة معروفة فنحن نقول عن الرجل الذي تجاوز الحد في الجرأة: إنه ليس بإنسان، وإنما هو أسد، فنجعل أفراد الأسد نوعين، نوع في هيكل الحيوان وجسمه، ونوع في صورة الإنسان، ومما جاء من ذلك قول المتنبي:

نحـن قـومٌ مِـن الْـجِنِّ في زِيِّ نَـاسٍ فـوقَ طَـيْرٍ لـهَا شُـخُوصُ الْـجِمَالِ

فقد جعل الجن نوعين: نوع هو الحقيقة الأصلية للجن وهي الأجسام النارية

---

(١) يبلى: يخلق ويفسد... والمعاجر: جمع معجر، وهو ثوب تشده المرأة على رأسها.

الخفية، ونوع في صورة الإنس، كما جعل الطير نوعين: نوع هو الطير ذو الأجنحة ونوع في صورة الجمال.

وقول عمرو بن معد يكرب:

وخيـــلٍ قـــد دَلَفْـــتُ لَـــهَا بِخَيـــلِ   تحَيَّـــــةُ بيْـــنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيــــعُ

فقد جعل التحية نوعين: نوع بالسلام ونوع بالضرب، وفي البيت استعارة تهكمية؛ حيث نزل مواجهة العدو بالأذى منزلة ملاقاته بالتحية على سبيل السخرية والتهكم، والضرب الوجيع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي للتحية...

ومثله قولهم: عتابك السيف جعلوا العتاب نوعين: عتاب الكلام وعتاب السيف ونزلوا إعمال السيف منزلة العتاب على سبيل الاستعارة التهكمية والسيف قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي للعتاب... ولا يجوز جعل التعبيرين من التشبيه البليغ لتنافي ذلك مع المقصود من الكلام؛ لأنه ليس المراد أن التحية كالضرب والعتاب كالسيف في شدة التأثير، ولكن المراد جعل إعمال السيوف مكان العتاب، والمواجهة بالأذى مكان التحية، قصدًا للسخرية والتهكم...

وكذا قولهم: جوابك الصمم، وأجرك المنع جعلوا الجواب نوعين: نوع بالكلام، ونوع بالصمم والإعراض وجعلوا الأجر كذلك نوعين: نوع متعارف وهو إعطاء المال ونوع غير متعارف وهو المنع، وعدم العطاء... والمراد الثاني على سبيل الاستعارة التهكمية.

ومنه قول عامر بن الحارث النميري:

وبلــــدةٍ لـــيس بهـــا أَنِـــيسُ   إلاَّ الْيَعَـــــافِيرُ وإلاَّ العِـــــيسُ (١)

فقد جعل الأنيس نوعين: متعارف وهو الذي يؤنسك من بني الإنسان وغير متعارف وهو اليعافير والعيس هذا على جعل الاستثناء متصلا، أما على جعله منقطعا، فلا يقدر فيه دخول المستثني في المستثنى منه إلا على رأي بعضهم.

---

(١) المراد بالبلدة: المفازة، واليعافير: جمع يعفور وهو ولد البقرة الوحشية، والعيس: جمع أعيس ومؤنثه عيساء وهي الإبل التي يخالط بياضها صفرة.

وكذا القول في الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[١]؛ حيث جعل المال والبنين نوعين: نوع هو الأمتعة والنقود والرجال. ونوع هو القلب السليم، هذا على جعل الاستثناء متصلاً، أما على جعله منقطعًا، فلا تنويع في الآية إلا على رأي بعضهم -كما قلنا- وعلى كل فليس في الآية تشبيه ولا استعارة.

الفرق بين الاستعارة والكذب: يزعم البعض أن الاستعارة تدخل في الكذب، وهذا زعم مخطئ لأن الاستعارة تفارق الكذب من جهتين:

الأولى: أن الاستعارة مبنية على التأويل، وذلك بادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به وصيرورته فردًا من أفراده، فيصبح المشبه به نوعين: متعارف وغير متعارف على نحو ما مر بك... أما الكذب فلا تأويل فيه... بل إن الكاذب يتبرأ من التأويل.

الثانية: أن الاستعارة لابد فيها من قرينة تمنع إرادة المعنى الأصلي للفظ المستعار وتصرفه إلى المستعار له، أما الكاذب فلا يقيم قرينة ولا ينصب دليلاً على إرادة غير الظاهر، بل يجد ويبذل قصارى جهده ليبرز ويظهر صحة باطله.

هل تقع الاستعارة في أعلام الأشخاص؟: الأصل في الاستعارة ألا تقع في أعلام الأشخاص كخالد وعمرو وزيد ومكة والمدينة والقاهرة وأسيوط، وذلك لأن هذه الأعلام وضعت للدلالة على ذوات معينة، فهي تفيد التشخيص والتعيين ولا تفيد الجنسية المقتضية للعموم، والاستعارة تقتضي العموم، ووجود أفراد كثيرين يدخلون تحت جنس واحد، إذ هي تقوم على ادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به وجعله فردًا من أفراده... لكن إذا اشتهر علم الشخص بوصف وعرف به صار بذلك شبيهًا بأسماء الأجناس التي تصدق على كثيرين وعندئذ تجوز استعارته، كما تستعار أسماء الأجناس، مثال ذلك أن "حاتمًا" قد اشتهر بالكرم حتى صار إذا

---

(١) سورة الشعراء ٨٨، ٨٩.

أطلق لفظ "حاتم" فهم منه معنى الكرم فأصبح بذلك عامًا، وكأنه قد وضع لذي الجود مطلقًا، وبهذا تصح استعارة لفظ "حاتم" لكل شخص كريم.

وكذلك القاهرة قد اشتهرت بزحامها وكثرة ضوضائها فإذا رأيت مدينة مزدحمة، كثيرة الضوضاء، صح أن تستعير لها لفظ القاهرة فتقول لصاحبك انظر: نحن نسير في القاهرة ويزعجنا زحامها وضوضاؤها...

☆☆☆

أقسام الاستعارة

الاستعارة التحقيقية: وهي الاستعارة التي يكون المعنى المراد بها وهو المستعار له أي المشبه، له تحقق ووجود يدركه الحس أو العقل، وليس أمرًا خياليًا أو وهميًا، ولهذا سميت تحقيقية، وتنقسم عند الجمهور إلى قسمين:

مكنية وسيأتي الحديث عنها، وتصريحية وهي ما يصرح فيها بلفظ المشبه به المستعار، كقولنا: رأيت أسدًا يخطب الناس، فالمعنى المراد وهو الرجل الشجاع له تحقق ووجود فهو مدرك بالحس، وقد صرح فيها بلفظ المشبه به كما ترى...

ومنها قول زهير بن أبي سلمى:

لَدَى أسدٍ شاكي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ ... لَهُ لُبَدٌ أظفارُه لم تُقَلَّمِ

فقد استعار لفظ الأسد للبطل الجسور المدجج بسلاحه الذي يقذف به في المعارك لقوته وخبرته، وحين جعل البطل أسدًا جعل له لبد الأسد وأظفاره المخيفة التي لم تقلم...

وقول البحتري:

وصاعِقَةٍ في كفِّهِ يَنْكَفِي بهَا ... عَلَى أَرْؤُسِ الأَعْدَاءِ خَمْسُ سَحَائِبِ

فقد استعار الصاعقة لنصل السيف لتشابهها فيما يوقعان من أذى... ثم استعار لفظ السحائب لأصابع الممدوح لتشابهها في الجود والخير.

وقول أبي دلامة يذم بغلته ويصور سيرها:

أرَى الشَّهْبَاءَ تَعْجِنُ إذْ غَدَوْنَا ... بِرِجْلَيْهَا وتَخْبِزُ باليَدَينِ[1]

فقد شبه حركة رجليها بحركة يدي العاجن في الانزلاق وعدم الاستقرار فرجلاها لا يثبتان على الأرض، بل ينزلقان إلى الأمام وكذلك يدا العاجن لا يثبتان في مكان، بل ينزلقان لرخاوة العجين إلى الأمام، ثم شبه حركة يديها وهما لا يتقدمان إلى الأمام، بل ينثنيان إلى الخلف نحو بطنها في تقوس واعوجاج، بحركة

(١) الشهباء: البغلة البيضاء، غدونا: دخلنا الغداة وهي أول النهار.

يدي الخابز؛ حيث يثنيهما إلى صدره في تقوس ليستجمع قوته ويقذف بأقراص العجين داخل التنور، فالشاعر قد استعار العجن لحركة الرجلين والخبز لحركة اليدين، ثم اشتق منهما «تعجن» و«تـخبز» على سبيل الاستعارة التبعية... فالمعنى المجازي المراد في هذه الشواهد وهو البطل الشجاع ونصل السيف وأصابع الممدوح وحركات الدابة، له تحقق ووجود إذ هو من المشاهدات الحسية.

ومما يدرك بالعقل قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾(١)، أي: من الضلالات إلى الهدى فقد استعيرت "الظلمات" للضلال لتشابههما في عدم اهتداء صاحبهما، واستعير "النور" للإيمان لتشابههما في الهداية، والمستعار لـهمـا وهـمـا الضلال والإيمـان كل منهمـا محقق عقلاً...

أما قوله عز وجل: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾(٢)، فيحتمل أن تكون الاستعارة تحقيقية حسية، أو تحقيقية عقلية، وذلك أنه صرح بالمشبه به وهو "اللباس"، فلو جعلنا المستعار له ما أصاب أهل القرية من هم وحزن، وهول وفزع، واضطراب في التفكير، بسبب ما حل بهم من أحداث؛ كانت الاستعارة تحقيقية عقلية، ولو جعلناه ما أصابهم من الإعياء وصفرة الوجوه وهزال الجسم بسبب تلك الأحداث، كانت الاستعارة حسية تحقيقية، والجامع بين "اللباس" والمستعار له في كل هو الإحاطة والشمول فقد أحاطت هذه الأحداث بأهل القرية وتمكنت منهم وشملتهم كما يشمل اللباس صاحبه ويحيط به.

وتنبه إلى دقة التعبير القرآني في الآية الكريمة، فالقوم كانوا آمنين مطمئنين يأتيهم رزقهم رغدًا من كل مكان، فكفروا بأنعم الله عز وجل، فكان مقتضى صنيعهم شدة المؤاخذة وشمولها، ولذا عبر بالإذاقة ليفيد شدة الإصابة، وباللباس

---

(١) سورة إبراهيم: ١.

(٢) سورة النحل: ١١٢.

ليفيد الإحاطة والشمول، ولو قيل: فكساها الله لباس الجوع والخوف لأفاد الإحاطة والشمول دون الشدة، وكذا لو قيل: فأذاقها الله طعم الجوع والخوف، لأفاد شدة الإصابة دون الإحاطة والشمول... لذا آثر النظم الكريم التعبير بالإذاقة واللباس، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف، ليفيد الأمرين معًا: شدة الإصابة وشمولها وإحاطتها...

***

الاستعارة المكنية والاستعارة التخييلية

والاستعارة المكنية هي التي لا يصرح فيها بلفظ المشبه به، بل يطوي ويرمز له بلازم من لوازمه، ويسند هذا اللازم إلى المشبه... ولهذا سميت استعارة مكنية، أو استعارة بالكناية، لأن المشبه به يحذف ويكنى عنه بلازم من لوازمه... وإثبات لازم المشبه به للمشبه هو ما يسمى بالاستعارة التخييلية وهي قرينة المكنية.

ومن ذلك قول أبي ذؤيب الهذلي:

وإذا المنيَّةُ أنشبَتْ أظفارَها ألفيت كلَّ تميمةٍ لا تنفَعُ

فقد شبه المنية بالسبع ثم طوى المشبه به ورمز له بلازمه وهو الأظفار وأثبت هذا اللازم للمشبه، فالمنية أو السبع استعارة مكنية وإثبات الأظفار لها استعارة تخييلية.

هذا وقد اختلف البلاغيون في تحديد مفهوم الاستعارتين: المكنية والتخييلية، فيرى جمهور البلاغيين أن المكنية هي لفظ المشبه به المستعار في النفس للمشبه والمحذوف المدلول عليه بشيء من لوازمه.... والتخييلية هي إثبات لازم المشبه به للمشبه، فيقال في إجراء الاستعارتين في البيت المذكور: شبهت المنية بالسبع بجامع الاغتيال في كل، ثم تُنوسي التشبيه وادعى دخول المشبه في جنس المشبه به ثم قدر في النفس حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الأظفار على سبيل الاستعارة المكنية... ثم أثبت الأظفار للمنية على سبيل الاستعارة التخييلية.

ويرى الخطيب أن المكنية هي التشبيه المضمر في النفس، المدلول عليه بإثبات

لازم المشبه به للمشبه، من غير أن يكون للمشبه أمر ثابت حسًا أو عقلاً، استعير له لازم المشبه به وأطلق عليه... فيقال في البيت المذكور: شبه الشاعر في نفسه المنية بالسبع ثم تناسى التشبيه، وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به، ثم أثبت لازم المشبه به وهو "الأظفار" للمشبه، وليس للمشبه وهو المنية شيء محقق حسًا أو عقلاً، استعير له لفظ الأظفار.

ونلاحظ أنه أطلق الاستعارة المكنية على التشبيه المضمر في النفس وهو فعل من أفعال المتكلم... وقد عرفنا أن الاستعارة لفظ استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة، والألفاظ خلاف الأفعال، فلا وجه لتسمية التشبيه المضمر في النفس استعارة.

وواضح أن الخطيب يوافق الجمهور في سبب تسمية هذه الاستعارة بالمكنية وهو عدم التصريح بالمشبه به والدلالة عليه بلازمه، ويوافقهم أيضًا في تحديد مفهوم الاستعارة التخييلية وهي إثبات لازم المشبه به للمشبه، وليس للمشبه شيء محقق حسًا أو عقلاً استعير له هذا اللازم، ولذا كانت هذه الاستعارة تخييلية، وهي قرينة الاستعارة المكنية فهما متلازمان... أما مخالفته لهم ففي تحديد مفهوم الاستعارة المكنية، إذ هي عنده فعل من أفعال المتكلم فلا وجه لتسميتها استعارة وعند الجمهور من قبيل الاستعارة التحقيقية، لأن لفظ المشبه به يستعار لشيء محقق هو المشبه كاستعارة السبع للمنية في البيت المذكور.

ويرى السكاكي أن الاستعارة المكنية هي لفظ المشبه المستعمل في المشبه به بادعاء أن المشبه به هو عين المشبه أي من جنسه، فيقال في بيت أبي ذؤيب: شبهت المنية بالسبع ثم تُنوسي التشبيه وادَّعى أن المنيةَ فردٌ من أفرادِ السبعِ، وأن السبعَ صار نوعين: متعارف وهو الحيوان المفترس، وغير متعارف وهو الموت الذي ادعيت له السبعية، ثم استعير اسم المشبه وهو الموت الذي ادعيت له السبعية، فصح بهذا أنه أطلق اسم المشبه وهو المنية، وأريد به المشبه به وهو السبع... فهي من قبيل المجاز اللغوي كما عند الجمهور.

ويرى أن الاستعارة التخييلية، ما كان معناها صورة وهمية لا تحقق لها حسًا

ولا عقلاً، كالأظفار في البيت فإنه لما شبه المنية بالسبع في الاغتيال، أخذ الوهم في تصويرها بصورته، فاخترع لها صورة الأظفار، ثم أطلق عليها لفظ أظفار السبع... فالمشبه الصورة الخيالية للأظفار والمشبه به الصورة الحقيقية لها والمستعار اللفظ الموضوع للصورة الحقيقية، والقرينة إضافتها إلى المكنية... ولا تلازم عنده بين المكنية والتخييلية، فقد توجدان معًا كما في البيت، وقد توجد التخييلية من غير المكنية كقولهم: أظفار المنية التي كالسبع نشبت بفلان... ففي "أظفار" استعارة تخييلية وجدت مع تشبيه صريح.

ونلاحظ أن هذه الاختلافات في تحديد مفهوم الاستعارتين ترجع إلى توجيه كل منهما، وكلها -كما رأينا- توجيهات محتملة قائمة على التصور والتخيل... وإليك أمثلة متنوعة من شواهد الاستعارتين:

يقول لبيد:

وغداةِ ريحٍ قد كَشَفْتُ وقِرَّةٍ ... إذْ أصبحتْ بيدِ الشِّمَالِ زِمَامُهَا(١)

جعل للشمال يدا وللقرة زماما بأن شبه الشمال في تصريفها القرة والتحكم في طبيعتها بالإنسان الذي يتصرف في الأمور... وشبه القرة بالبعير بجامع الانقياد للغير، ثم تناسى التشبيه، وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به ثم أثبت لازم المشبه به وهو اليد والزمام للمشبه، ولا يخفى ما في ذلك من المبالغة في تصرف الريح تصرف الإنسان القادر، وانقياد القرة لها انقياد البعير المذلل...

ومنها قول الآخر:

وإذا العنايةُ لاحَظَتْكَ عيونُها ... نَمْ فالمخاوفُ كُلُّهُنَّ أمانُ(٢)

أثبت للعناية عيونًا بأن شبهها بالإنسان ثم تناسى التشبيه وادعى أن المشبه

---

(١) الواو: واو رب، والقرة: البرد، والشمال: الريح الباردة... يفخر بأنه يطعم الناس ويوقد لهم النار ليمنع عنهم عادية البرد.

(٢) لاحظ الشيء: رعاه، والمعنى: إذا قدر لك أن تكون ملحوظًا بعناية الله فلن يمسك ضر، وكنت بمأمن من كل شر.

فرد من أفراد المشبه به، ثم أثبت لازم المشبه به للمشبه قصدًا إلى المبالغة... وكذا القول في قول الحجاج" إني أرى رءوسًا قد أينعت وحان قطافها" أثبت للرءوس قطافًا وإيناعًا أي: نضجًا وهما من خصوصيات الثمار والأزهار.

وقول المتنبي:

ولما قلَّتِ الإبِلُ امْتَطَيْنَا إلى ابْنِ أبي سُلَيْمَانَ الْخُطُوبَا[١]

جعل الخطوب تمتطى... والذي يمتطى هو الحيوان المعروف.

وقول أبي تمام:

لَمَّا انْتَضَيْتُكَ لِلْخُطُوبِ كَفَيْتَهَا وَالسَّيفُ لا يَكْفِيكَ حَتَّى يُنْتَضَى[٢]

جعل ممدوحه سيفا ينتضى ويلجأ إليه عند الشدة وعند النوازل ثم طوى المشبه به ورمز له بلازمه وهو الانتضاء.

وقول الآخر:

عَضَّنَا الدَّهْرُ بِنَابِهْ لَيْتَ مَا حَلَّ بِنَا بِهْ[٣]

جعل للدهر نابًا يعض به ولا ناب له إنما الناب للحيوان المعروف.

وقول الضبي خال الفرزدق:

إذا مَا الدَّهْرُ جَرَّ على أُنَاسٍ كَلاَكِلَهُ أنَاخَ بِآخَرِينَ[٤]

شبه الدهر بالبعير... ثم حذف المشبه به بعد تناسي التشبيه وجعل المشبه فردًا من أفراده، رامزًا له بلوازمه وهي الكلاكل والجر والإناخة، وأثبت هذه اللوازم للمشبه وهو الدهر.

---

(١) قلت الإبل: عزت، وامتطينا: ركبنا، والخطوب: الأمور الشديدة.

(٢) انتضى السيف: جرده من غمده.

(٣) بنابه: الناب في آخر الشطر الأول ناب الحيوان، وفي نهاية البيت الباءان، حرفا جر، و«نا» ضمير المتكلمين، والهاء ضمير يعود للدهر.

(٤) الكلاكل: جمع كلكل، وهو الصدر، وأناخ أبرك، يقال: أناخ الإبل. أبركها، ومثلها تنوخ، واستناخت: بركت.

وقول السري الرفاء:

وَقَـدْ كَتَبَـتْ أَيْـدِي الرَّبِيـعِ صَـحَائِفًا كـأنَّ سطورَ السَّرْوِ حُسْنًا سُطُورُهَا(١)

جعل للربيع أيادي يكتب بها صحائف ذات سطور جميلة، وتلك من خصائص الإنسان الذي يكتب ويسطر.

وقول الآخر:

ولـئن نَطَقْـتُ بِـشُكْرِ بِـرِّكَ مُفْـصِحًا فلـسانُ حـالِي بالـشِّكايةِ أَنْطَـقُ

جعل للحال لسانًا ينطق بالشكوى، تشبيهًا لها بالإنسان الناطق ويجوز أن يكون: "لسان حالي" من إضافة المشبه به إلى المشبه فيكون تشبيهًا لا استعارة.

وقول زهير بن أبي سلمى:

صَحَا القلبُ عن سلمَى وأُقْصِرَ باطِلُهْ وعُـرِّى أفـراسُ الـصِّبَا وَرَواحِلُـهْ(٢)

وذلك على جعل "الصبا" مأخوذا من الصبوة، وهي الفساد والجهل والانهماك في اللذات، فيكون قد شبه "الصبا" بجهة من الجهات التي يسافر إليها كالحج والتجارة، انتهت حاجته منها فعاد إلى داره ورفع عن الأفراس سروجها وعن الإبل رحالها... ثم تناسى التشبيه وادعى دخول المشبه في أفراد المشبه به الذي طوى ورمز له بلوازمه وهي الأفراس والرواحل التي عريت، ثم أسندت تلك اللوازم إلى المشبه وهو "الصبا" على سبيل التخييل...

أما إذا جعل "الصبا" مأخوذًا من الصباء وهو الشباب وصغر السن فيجوز جعله استعارة مكنية أيضًا على معنى أن الشباب قد ولى وانقضى، فيكون قد شبهه بجهة لا يذهب إليها... ثم طوى المشبه به وأسند لازمه وهو الرواحل والأفراس إلى المشبه وهو "الصبا" ويجوز جعله استعارة تصريحية بتشبيه الغرائز المنطلقة في سن

(١) السرور: شجر عال ملتف الأغصان.

(٢) صحا: أي أفاق من السكر وهو مستعار هنا للسلو وزوال العشق وأقصر: أي: امتنع عن قدرة، وعرى: عطل، والرواحل: جمع راحلة وهي الشديد من الإبل الذي يقوى على الأحمال والأسفار.

الشباب والتي تدفع إلى الهوى وارتكاب المفاسد، بالأفراس والرواحل المنطلقة إلى الأماكن البعيدة... واستعارة الرواحل والأفراس لتلك الغرائز على سبيل الاستعارة التصريحية العقلية، أو يكون المشبه هو الأسباب الموصلة لارتكاب المفاسد من مال وأصحاب... واستعارة الأفراس والرواحل لهذه الأسباب المحسوسة على سبيل الاستعارة التصريحية الحسية والقرينة هي إضافة الأفراس والرواحل للصبا.

ومن شواهد الاستعارة المكنية في النظم الكريم قوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾[(١)]، فقد شبه الذل بطائر، ثم حذف الطائر ورمز له بلازمه وهو الجناح، وأثبت هذا اللازم للمشبه، ولعلك تشعر بما وراء الاستعارة في الآية الكريمة من حث للمؤمن على الخضوع لوالديه، وأن يكون في خضوعه وبره كالطائر الذي يرفرف بجناحيه حنوا وحنانا...

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾[(٢)]، يقول الزمخشري في بيان الاستعارة في الآية الكريمة: "فإن قلت: من أين ساغ استعمال النقض في إبطال العهد؟، قلت: من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة، لما فيه من إثبات الوصلة بين المتعاهدين... وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها، أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روادفه فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه"[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾[(٤)]؛ حيث شبه الغضب بكائن حي، يحث موسى عليه السلام ويحركه، وقد حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو السكوت، وأثبت هذا اللازم للغضب على سبيل الاستعارة التخييلية.

هذا ولازم المشبه به الذي يثبت للمشبه ينبغي أن يكون له اختصاص قوي بوجه الشبه في المشبه به حتى تتحقق المبالغة المطلوبة... وهذا اللازم على نوعين:

---

(١) سورة الإسراء الآية: ٢٤.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٧

(٣) الكشاف ج ١ ص ٧٥.

(٤) سورة الأعراف آية: ١٥٤.

الأول: ما يتحقق به كمال وجه الشبه في المشبه به كقولنا: ظهر وجه الحق، فالمشبه به المطوي هو الإنسان المشرق الوجه، وقد أثبت لازمه وهو "الوجه" إلى المشبه وهو "الحق" وهذا اللازم يتحقق به كمال الإشراق في المشبه به، لأن الوجه - و مظهر الإشراق والوضوح في الإنسان...

ومن ذلك بيت الهذلي السابق:

وإذا المنيةُ أنشبَتْ أظفَارَهَا أَلْفَيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

لأن الأظفار وهي لازم المشبه به الذي أثبت للمشبه، هي التي يكمل بها الاغتيال في السبع؛ لأن فتكه بها أقوى من فتكه بالأنياب...

الثاني: ما يتحقق به قوام وجه الشبه ووجوده في المشبه به، كقولنا: مشت بنا أقدام الزمن إلى المصير المحتوم، فقد طوى المشبه به وهو الإنسان، وأثبت لازمه وهو "الأقدام" إلى المشبه وهو "الزمن" وهذا اللازم لا يتحقق وجود وجه الشبه وهو الانتقال والذهاب إلى الغاية في المشبه به المحذوف "الإنسان" إلا بذكره ووجوده...

ومنه قول الشاعر:

ولئنْ نَطَقْتُ بِشُكرِ بِرِّكَ مُفْصِحًا فلسانُ حالِي بالشِّكايةِ أَنْطَقُ

لأن اللسان وهو لازم المشبه به الذي أثبت للمشبه، لا يوجد وجه الشبه وهو "الدلالة الكاملة على الشيء" في المشبه به المطوي "الإنسان" إلا بوجوده وذكره في الصياغة...

***

الاستعارة الأصلية والاستعارة التبعية

وتنقسم الاستعارة باعتبار اللفظ المستعار إلى أصلية، وتبعية؛ **فالأصلية**: ما كان اللفظ المستعار فيها اسم جنس، يدل على واحد غير معين من جنسه، سواء كان اسم عين، كالأسد والثعلب والبحر والغيث والسهم، أو اسم معنى وهو المصادر، كالقتل والنوم واليقظة، ويدخل في الاستعارة الأصلية أسماء الأعلام التي اشتهرت بصفة معينة، لأنها صارت لشهرتها بالصفة كاسم الجنس بالتأويل وذلك نحو:

"حاتم" الذي اشتهر بالكرم، فصح استعارته لكل رجل كريم، لأن شهرته بالكرم جعلته كالموضوع لمطلق ذات متصفة بالكرم فصار بهذه الشهرة اسم جنس تأويلاً...

تقول في استعارة اسم الذات: ضمت الأم زهرتها إلى صدرها، تريد طفلتها، وتقول: أسود المعركة، أي: الشجعان، وبحور العلم، أي: العلماء، وثعالبة الاستعمار: أي الماكرين، فالمستعار في هذه الأمثلة اسم ذات... وتقول في استعارة اسم المعنى: آلمني قتل فلان أباه وذبحه أخاه، تريد: الأذى والإذلال، وتقول: سباحة الفكر؛ أي: تنقله في أمور شتى، ونوم العقل، أي توقفه عن التفكير، وخياطة الدرع، أي: سرده، ويقظة الضمير، أي تنبهه لأداء الواجب، ومنه قوله عز وجل: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾[١]، أي نفاق فالمستعار هنا اسم معنى، ويقال في إجراء هذه الاستعارة شبه الأذى والإذلال بالقتل والذبح بجامع الإيلام الشديد في كلٍ، ثم ادعى أن الأذى والإذلال داخلان في جنس القتل والذبح وفردان من أفرادهما، ثم استعير القتل والذبح للأذى والإذلال وكذا يقال في بقية الشواهد.

وقد سميت هذه الاستعارة بالاستعارة الأصلية، لأنها أكثر وجودًا في الكلام من التبعية، ولأن التبعية مبنية عليها وتابعة لها، فهي لها أصل- كما سترى.

ومنها بالإضافة لما سبق قول الشاعر:

فتـــىً كُلَّـــمَا فاضـــتْ عُيُـــونُ قبيلـــةٍ دمًـا ضَـحِكَتْ عنـهُ الأحاديـثُ والـذِّكْرُ

حيث استعار الدم للدموع التي تفيض من العيون وتفيد هذه الاستعارة فداحة الخطب وشدة ما حل بالقبيلة فقد فاضت عيونها دماء لا دموعًا من هول الموقف، وهذا بالتالي ينبئ بعظم الممدوح الذي يبدد الأهوال ويغيرها بكرمه وشجاعته إلى أمن سرور.

وقول كثير عزة:

رَمَتْنِي بِسَهْمٍ رِيشُهُ الْكُحْلُ لَمْ يَضِرْ ظَـواهِرَ جِلْـدِي وهـوَ للقلـبِ جـارِحُ

---

(١) سورة البقرة آية: ١٠.

حيث شبه النظرة الثاقبة التي رمته بها فتاته بالسهم النافذ بجامع قوة التأثير في كل، ثم حذف المشبه وادعى أنه فرد من أفراد المشبه به، فاستعير له لفظه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.

والاستعارة التبعية: ما كان اللفظ المستعار فيها فعلاً أو اسمًا مشتقًا أو حرفًا كقولنا: نطقت الحال بكذا... وطار فلان إلى المعركة... ونام عقل فلان... فالمراد: دلت الحال، وأسرع فلان، وغفل عقله وتوقف عن الفهم، فاللفظ المستعار هنا فعل، وتقرير الاستعارة فيه أن يقال: شبهت الدلالة الواضحة بالنطق في إيضاح المعنى، ثم استعير النطق للدلالة الواضحة، فصار النطق بالاستعارة معناه: الدلالة الواضحة، ثم اشتق من النطق: نطق بمعنى "دل" على سبيل الاستعارة التبعية: وكذا القول في "طار" و "نام".

ومن استعارة المشتقات قولنا: فلان عقله نائم، وفلان عقله يقظان، وعظيم فعالك ناطق بكل حالك، وهذا مقتول فلان، وقوله عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[1]، فالمراد: فلان عقله غافل وفلان عقله منتبه، وعظيم فعالك دال، وهذا مأذيُّ فلان... وكل نفس تحس بشدة الموت عند الاحتضار كما يحس الذائق للشراب المر ما فيه من مرارة... ويقال في إجراء الاستعارة في هذه المشتقات شبهت الغفلة بالنوم بجامع عدم الإدراك في كل ثم استعير النوم للغفلة، فصار النوم بالاستعارة معناه الغفلة، ثم اشتق من النوم: نائم، بمعنى: غافل... وكذا القول في: "يقظان"، و "ناطق" و "مقتول"، و "ذائقة".

ومن استعارة الحروف: قولنا: فلان في نعمة، فالمراد: أنه متمتع بالنعمة تمتعًا تامًا، كأنه في داخلها.

لماذا كانت الاستعارة في الأفعال والمشتقات والحروف تبعية؟

وعدت الاستعارة في الأفعال والمشتقات تبعية لما يلي:

أولاً: أن الاستعارة قائمة على التشبيه، والتشبيه يقتضي أن يكون المشبه والمشبه به موصوفين بوجه الشبه، لأن الوجه وصف جامع بين الطرفين، ولا يصلح

---

(١) سورة آل عمران: ١٨٥.

للموصوفية إلا الحقائق الثابتة في الخارج كالجسم واللون والأسد، أو في العقل كالعلم والجود والذكاء، فيقال: جسم صغير، وعلم واسع، أما الأفعال والمشتقات فلا ثبوت لها لا خارجًا ولا عقلاً، إذ هي متجددة متغيرة لدخول الزمن المتغير في مفهوم الأفعال ولزومه للمشتقات، ولذا لا تصلح أن تكون موصوفًا، وبالتالي لا تصلح للتشبيه، فيتحتم أن يجري التشبيه أولاً في المعاني الثابتة القابلة للوصفية وهي المصادر، ثم يستعار المصدر المشبه به للمصدر المشبه، ويشتق منه الفعل أو اسم الفاعل أو اسم المفعول بعد أن يحمل المعنى الجديد لمصدره الذي انتقل إليه بالاستعارة، فيكون الفعل أو المشتق حينئذ تابعًا لمصدره في حمل المعنى الجديد -كما رأينا في إجراء الاستعارة- ولا يعترض على ذلك بأن العرب قد وصفت المشتقات فقالوا: شجاع باسل وجواد فياض، وبأن الحركة والزمان متغيران وغير ثابتين، وقد وصفا فقيل: حركة بطيئة وزمان عجيب، لأننا نقول: إن "باسل وفياض" وصفان آخران للموصوف الذي وصف بالشجاعة وبالجود... والحركة والزمان قد تقررا في الذهن وتحددا فيه، ومن هنا صح وصفهما.

ثانيًا: أن جريان الاستعارة في الأفعال والمشتقات تابع لجريانها في مصادرهما، لأن الأفعال والمشتقات لا تنفك معانيها عن معاني أصولها وهي المصادر، فإذا تغير معنى الأصل بالاستعارة تغير تبعًا لذلك معنى الفرع المشتق منه، وقد اعتبر البلاغيون التشبيه والاستعارة في المصدر قبل اعتبارهما في الفعل والمشتقات، لأن المصدر هو المعنى القائم بالذات، فهو الجدير بأن يعتبر فيه التشبيه والاستعارة قبلاً.

أما الحروف فقد عدت الاستعارة فيها تبعية؛ لأن الحروف لا يدل على معنى مستقل بل يدل على معنى في غيره، ولذا لا يصلح للتشبيه ولا للاستعارة، بل يقع التشبيه والاستعارة في متعلق معناه؛ لأنه هو الذي يستقل بالدلالة...

ومتعلق معنى الحروف -عند الخطيب- هو مدخوله، وعند الجمهور هو المعنى العام الذي يفسر به الحرف، ويتضح ذلك في قولنا: "فلان في نعمة" فالخطيب يشبه مدخول الحرف وهو "النعمة" بظرف تحل فيه الأشياء بجامع مطلق ارتباط وتعلق في كل، ويدل على التشبيه بلفظ "في" الذي هو لازم من لوازم المشبه به وهو الظرف... والجمهور يشبه الارتباط الحاصل بين النعمة وصاحبها بالظرفية التي

هي ارتباط حاصل بين الظرف والمظروف، ثم يسري التشبيه من هذا العام إلى أفراده فيستعار اللفظ "في" من فرد من أفراد المشبه به لفرد من أفراد المشبه على سبيل الاستعارة التبعية في الحروف.

وإليك بعض شواهد هذه الاستعارة، قال ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ رَجُلٌ مُمْسِكٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً طَارَ إِلَيْهَا...** »(١)؛ حيث شبه العدو بالطيران بجامع قطع المسافة بسرعة كل، ثم استعير الطيران للعدو، فصار العدو بالاستعارة معناه: الطيران، ثم اشتق من الطيران: طار بمعنى عدا على سبيل الاستعارة التبعية.

ومنه قول امرأة ترثي قتيلاً:

لو يَشَا طَارَ بِهِ ذو مَيْعَةٍ   لاحِقُ الآطالِ نَهْدٌ ذو خُصَلٌ(٢)

أرادت: عدا به مسرعًا.

وقول الآخر:

فطِرْتُ بِمُنْصُلي في يَعْمَلاتٍ   دَوامي الأَيْدِ يَخْبِطْنَ السَّريحَا(٣)

أراد أنه قام بسيفه مسرعًا إلى نوقه فعقرها، وسالت الدماء على أيديها وأخذت تضرب بأقدامها القيود المقيدة بها من شدة الجراح... فالاستعارة في البيتين تبعية كما في الحديث ولا يخفي عليك إجراؤها.

وقول البحتري:

يتراكمُونَ على الأَسِنَّةِ في الوَغَى   كالفجرِ فاضَ على نُجُوم الغيْهَبِ(٤)

---

(١) الهيعة: الصيحة المفزعة، وأصلها من هاع يهيع إذا جبن، والمراد: أنه رجل مستعد للجهاد كلما سمع صيحة مستغيث من المسلمين أسرع إليه ليقاتل معه... والحديث رواه مسلم في الإمارة برقم "١٢٥/ ١٨٨٩".

(٢) الميعة: النشاط. الآطال، جمع إطل وهو الخاصرة، ولاحقها: ضامرها، والنهد: القوي والخصل جمع خصلة وهي الشعر المجتمع.

(٣) المنصل: السيف، واليعملات: النوق المطبوعة على العمل جمع يعملة، والسريح: السير الذي يشد على أرجلها.

(٤) يتراكمون: يجتمعون بكثرة وازدحام، والأسنة: الرماح، والوغى: الحرب، والغيهب: الظلمة، وجعلهم كالفجر نظرًا لما عليهم من الدروع اللامعة.

يريد أنهم بواسل يندفعون بشدة وصبر إلى مواطن الموت كما ينبسط الفجر دفعة فينشر ضوءه على الكون... وقد استعار الفيض لانبساط الفجر إذ شبه انبساط الفجر وسرعة انتشار ضوئه بفيضان الماء، ثم استعاره له واشتق منه "فاض" بمعنى. انبسط وانتشر بسرعة.

وقول أبي الطيب يمدح أبا فراس الحمداني:

نَثَـرْتَهُمُ فـوقَ الأُحَيْـدِبِ نَثْـرَةً   كما نُثِرَتْ فوقَ العروسِ الدَّرَاهِمُ(١)

أراد أن ممدوحه هزم أعداءه شر هزيمة، فشتت شملهم وفرقهم فانتشروا في غير نظام كما تنثر الدراهم فوق العروس... فقد شبه تفرق أجسامهم وتساقطها بتفرق الأجسام الصغيرة ونثرها بجامع التفرق والتساقط على غير نظام في كل، ثم استعير النثر من المشبه به للمشبه واشتق منه "نثر" بمعنى فرق، على سبيل الاستعارة التبعية في الفعل.

وقول القطامي:

لمْ تَلْـقَ قومًـا هُـمُ شرٌّ لإخْـوَتِهِم   مِنَّـا عَـشِيَّةَ يَجْـرِي بالـدَّمِ الـوَادي

نَقْـرِيهِمُ لـهَذَميَّاتٍ نَقُـدُّ بهـا   مـا كـان خـاط علـيهم كـلُّ زرَّادِ(٢)

يصف قومه بالشجاعة وأنهم أشد خطرًا على الأعداء عند احتدام المعركة واشتداد القتال فهم يطعمونهم سيوفًا تشق دروعهم وتفري ضلوعهم، وقد استعار لذلك القرى للضرب بالسيف بجامع الترحيب والإكرام في كل، واشتق منه نقري بمعنى نضرب على سبيل الاستعارة التبعية التهكمية، ثم استعار الخياطة للسرد بجامع ضم الأطراف في كل، واشتق منها الفعل "خاط" بمعنى: سرد على سبيل الاستعارة التبعية في الفعل.

---

(١) الأحيدب: جبل ببلاد الروم.

(٢) لإخوتهم: المراد: لأعدائهم، ونقري: نطعم والمراد هنا الضرب بالسيف، واللهذميات: جمع لهذم وهو السيف القاطع والنسبة فيها للمبالغة، والزراد: صانع الزرد، وهو الدرع، وإسناد الجري إلى الوادي مجاز عقلي، ونقد: نقطع.

ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[(١)]، نزل الإنذار منزلة التبشير لقصد التهكم والسخرية، فشبه الإنذار بالتبشير بجامع إدخال السرور في كل، ثم استعير التبشير للإنذار واشتق منه الفعل بشَّر بمعنى أنذر على سبيل الاستعارة التبعية التهكمية.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾[(٢)]، فقد شبه التفريق بالتقطيع بجامع إزالة الاتصال في كل، ثم استعير التقطع للتفريق، واشتق منه الفعل "قطع" بمعنى فرق.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾[(٣)]، المراد: بل نورد الحق على الباطل فيذهبه ويمحوه؛ فإذا هو ذاهب، فقد استعير "القذف" للإيراد، و "الدمغ" للمحو والإزالة، و "الزهاق" للذهاب، ثم اشتق منها "نقذف" و"يدمغ" و "زاهق" على سبيل الاستعارة التبعية.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾[(٤)]، المراد: السفيه الغويّ حيث شبه السفه والغيّ بالحلم والرشد، ثم استعير: الحلم والرشد للسفه والغي، واشتق منهما، حليم ورشيد، بمعنى: سفيه وغوي على سبيل الاستعارة التبعية التهكمية.

هذا وكما تقع الاستعارة التبعية في مادة الأفعال وهي حروفها الدالة على الحدث على نحو ما رأينا- فقد تقع في صيغتها وهي هيئتها الدالة على الزمان كصيغتي الماضي والمضارع... من ذلك قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾[(٥)]، فأمر الله لم يأت بعد، بدليل قوله: ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾، فكان الأصل أن يقال: يأتي أمر الله، ولكن عبر بالماضي مجازًا ليفيد أن هذا الأمر محقق الوقوع، فقد شبه الإتيان

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٢١.

(٢) سورة الأعراف آية: ١٦٨.

(٣) سورة الأنبياء آية: ١٨.

(٤) سورة هود آية: ٨٧.

(٥) سورة النحل آية: ١.

في المستقبل بالإتيان في الماضي بجامع تحقق الوقوع، ثم استعير الإتيان في الماضي للإتيان في المستقبل واشتق منه "أتى" بمعنى "يأتي" على سبيل الاستعارة التبعية في صيغة الفعل.

ومن الاستعارة التبعية في الحروف قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾(١)، فاللام في قوله: "ليكون" لام العلة وهي موضوعة لترتب ما بعدها على ما قبلها وقد استعملت هنا في غير ما وضعت له؛ لأن ما بعدها ليس مترتبا على ما قبلها، فهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدوا وحزنا بل التقطوه ليكون لهم قرة عين يفرحون به، ففي "لام التعليل" في الآية الكريمة استعارة تبعية يقال في إجرائها على رأي الخطيب: شبهت العداوة والحزن بالفرح والسرور بجامع ترتب كل منهما على الالتقاط رجاء أو واقعًا ودل على التشبيه بذكر لازم المشبه به وهو اللام للمشبه.

وعلى رأي الجمهور: شبه مطلق ترتب علة واقعية... انتهى إليها الالتقاط بمطلق ترتب علة رجائية غائية، فسرى التشبيه من هذين الكليين إلى جزئياتهما، ثم استعيرت اللام الموضوعة لجزئ من جزئيات المشبه به وهو التقاط موسى ليكون قرة عين، لجزئ من جزئيات المشبه، وهو التقاطه ليصير عدوًا وحزنًا.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾(٢)، فلفظ "في" مستعمل في غير ما وضع له، لأن جذوع النخل لا تصلح للظرفية الحقيقية، لكن لما كانت هذه الجذوع متمكنة منهم، لأن مراد فرعون شدة التعذيب وإحكام الصلب، شبهت الجذوع بالظرف الحقيقي في هذا التمكن، واستعمل فيها لفظ "في" على سبيل الاستعارة التبعية.

ويقال في إجرائها على رأي الخطيب: شبهت الجذوع بالظرف بجامع التمكن ثم استعير لفظ "في" وهو جزئية من جزئيات المشبه به واستعمل في المشبه... وعلى رأي الجمهور: شبه مطلق الارتباط بين السحرة المؤمنين والجذوع بمطلق الارتباط

---

(١) سورة القصص آية: ٨.

(٢) سورة طه آية: ٧١.

بين الظرف والمظروف بجامع التمكن، فسرى التشبيه من الكليين إلى الجزئيات، ثم استعير لفظ "في" من جزئيات المشبه به لجزئ من جزئيات المشبه.

ومنها مناداة القريب بلفظ البعيد "يا" لغرض بلاغي كغفلة المنادي وعدم تنبهه فنقول: "يا فلان" لمن هو قريب منا... وكذلك ينادي الرب عز وجل بلفظ البعيد "يا" فيقال: يا رب وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، وذلك لغرض بلاغي هو إحساسنا بالذنوب وشعورنا بالبعد عن مواطن الزلفى... فقد شبه نداء القريب بنداء البعيد، فسرى التشبيه من الكليين إلى الجزئيات، واستعير "يا" من جزئيات المشبه به لجزئ من جزئيات المشبه على سبيل الاستعارة التبعية في الحروف... وكذا مناداة البعيد بلفظ القريب.

***

الوفاقية والعنادية

وتنقسم الاستعارة باعتبار إمكان اجتماع الطرفين في شيء واحد وعدم اجتماعهما إلى قسمين: استعارة وفاقية واستعارة عنادية.

فالوفاقية: هي التي يمكن اجتماع طرفيها أي: المستعار له والمستعار منه في شيء واحد لما بينهما من التوافق... كما في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[(١)]، وقوله جل وعلا ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾[(٢)]، وقوله عز وجل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[(٣)]، فقد استعير المرض للنفاق، والعمى للكفر، والحياة للهداية، وبين المستعار منه والمستعار له توافق لأنه يمكن اجتماعهما في شيء واحد، فالمرض والنفاق يجتمعان في قلب إنسان، والعمى والكفر يمكن اجتماعهما في شخص كافر، والحياة والهداية يجتمعان في المؤمن... والجامع بين المرض والنفاق أن كلا منهما يفسد ما يصاحبه، فالمرض يفسد الأبدان والنفاق يفسد العقائد، والجامع بين العمى والكفر أن كلا منهما يوقع صاحبه في المهالك والمخاطر، والجامع بين الحياة والهداية ما يترتب على كل من الفائدة والنفع.

---

(١) سورة البقرة آية: ١٠.

(٢) سورة فصلت آية: ١٧.

(٣) سورة الأنعام آية ١٢٢.

ومنها قول الشاعر:

ولقدْ سموتُ بهمَّتي وسمَا بهَا طلبي المكارمَ بالْفِعَالِ الأَفْضَلِ
لأَنَالَ مَكْرُمةَ الْحَياةِ وَرُبَّمَا عَثَرَ الزمانُ بذي الدَّهاءِ الأَحْوَلِ

فقد استعار "الحياة" لبقاء الذكر الطيب والأثر الحسن وهما متوافقان.

والعنادية: ما لا يمكن اجتماع طرفيها في شيء واحد لتنافيهما، كما في الآية السابقة ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾؛ فقد استعير الموت للضلال بجامع ما يترتب على كل من عدم الانتفاع، ولا يمكن اجتماع الموت والضلال في شيء واحد...

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾(١)، فقد استعير ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ للكفرة الأحياء لعدم انتفاعهم بصفة الحياة فلم يعتد بها فيهم... ولا يمكن اجتماع الموت والحياة في شيءٍ واحدٍ... وقول المتنبي:

فلمْ أرَ بَدْرًا ضاحكًا قَبْلَ وجهِهَا ولمْ ترَ قَبْلِي مَيِّتًا يتكلمُ

فقد استعار "الميت" لمن أسقمه الحب وأضناه العشق، ولا يمكن اجتماع العشق والموت في شيء واحد.

ونلاحظ في الشواهد أن الاستعارة قد بنيت على ترك الاعتداد بوجود الصفة في المشبه لفقدان ثمرتها إذ إن الغرض من الاستعارة إلحاق الناقص بالكامل في وجه الشبه...

هذا وقد تبنى الاستعارة على تنزيل التضاد الحاصل بين الطرفين منزلة التناسب، لقصد التمليح أو التهكم وتسمى عندئذ بالاستعارة العنادية التمليحية أو العنادية التهكمية" فمن ذلك قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٢)، فقد استعيرت "التبشير" للإنذار بعد تنزيل التضاد الحاصل بينهما منزلة التناسب لقصد السخرية والتهكم، والجامع بين التبشير والإنذار: إحداث المسرة لكل وإن كانت المسرة في البشارة محققة وفي الإنذار متخيلة.

---

(١) سورة النمل آية: ٨٠.

(٢) سورة آل عمران آية ٢١.

وقوله عز وجل: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾[١]، فقد استعيرت "الهداية" للجر بعنف وقهر بجامع ما يترتب على كل من الخير، وإن كان تنزيليا في المستعار له، وقوله تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾[٢]، أي: الذليل المهان، فقد استعير العزة والكرامة للذلة والمهانة استعارة عنادية تهكمية، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[٣]، أي: السفيه الغوي، وقول القطامي: "نقريهم لهذميات..." وقول عمرو بن معد يكرب "تحية بينهم ضرب وجيع" وقولنا: عتابك السيف، وقد مرت بك هذه الشواهد.

ومن العنادية التمليحية قولنا للبخيل في مقام المزاح والمداعبة: من يجهل أن جودك عم الورى... فقد استعير "الجود" للبخل، بجامع الإفاضة بالخير في كل، وذلك بتنزيل التضاد الحاصل بينهما منزلة التناسب، فالإفاضة موجودة في المستعار منه على وجه التحقيق وموجودة في المستعار له تنزيلا....

ومن ذلك قول أبي تمام:

أُنبِئْتُ عُتبَةَ يَعْوي كَيْ أُشَاتِمَهُ ... اللهُ أَكْبَرُ أنّي اسْتَأْسَدَ الأَسَدُ
ما كنتُ أَحْسَبُ أنَّ الدهرَ يُمهِلُنِي ... حتى أرَى أحدًا يهجوهُ لا أحدُ

فقد استعار الأسد للجبان استعارة عنادية تمليحية، إذ الجامع وهو الشجاعة موجودة في الأسد حقيقة وفي الجبان تنزيلاً... كما استعير العواء وهو صوت الذئب لصوت عتبة وصراخه، واشتق منه يعوي بمعنى: يصرخ، على سبيل التهكُّمِ أو التمليح والمداعبة.

وقول الآخر:

سليمانُ ميمونُ النَّقيبةِ حازمٌ ... ولكنَّهُ وَقْفٌ عليهِ الْهَزَائِمُ

فقد استعار الهزائم للانتصارات استعارة عنادية تمليحية، إذ مراد الشاعر أن سليمان لا يحزم أمرًا ولا يحرز نصرًا، ولا يتحقق على يديه خير...

---

(١) سورة الصافات آية: ٢٣.
(٢) سورة الدخان آية: ٤٩.
(٣) سورة هود آية: ٨٧.

المطلقة والمجردة والمرشحة

وتنقسم الاستعارة باعتبار ذكر الملائم لأحد الطرفين وعدم ذكره إلى ثلاثة أقسام: مطلقة ومجردة ومرشحة.

فالاستعارة المطلقة: هي التي لم تقترن بما يلائم المستعار له ولا المستعار منه، أو اقترنت بما يلائمهما معًا، كقولنا: طلع البدر من جانب الخدر، نريد المرأة الحسناء، فقد استعير "البدر" للحسناء ولـم يذكر في الجملة ملائم للمستعار له ولا للمستعار منه، وأما قولنا: "من جانب الخدر" فهو قرينة للاستعارة ولا يعد ملائمًا للمستعار له... ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾[١]، فقد استعير الطغيان للزيادة بجامع مجاوزة الحد في كل، ولا يوجد في الآية ملائم لأحدهما... ونقول: رأيت بحرًا يتكلم، فنستعير البحر للعالم ولا ملائم لأحدهما في الجملة، أما "يتكلم" فقرينة للاستعارة وليس ملائمًا.

ومما اقترنت فيه الاستعارة بملائم لكل منهما قول كثير عزة:

رَمَتْنِي بسَهْمٍ ريشُهُ الكُحْلُ لَمْ يَضِرْ ظواهرَ جلدي وهوَ للقلبِ جارحُ[٢]

فقد استعير "السهم" للنظرة بجامع قوة التأثير، وقد ذكر في البيت ملائم للمستعار منه وهو "ريشه" وملائم للمستعار له وهو "الكحل"...

وقول زهير:

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ لَهُ لُبَدٌ أظفارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ

فقد استعير "الأسد" للبطل الشجاع وذكر ملائم للبطل وهو شاكي السلاح وملائم للأسد وهو "اللبد والأظافر" أما مقذف فإذا أريد به: أنه يقذف به في الحروب لخبرته وتجاربه كان من ملائمات البطل. وإذا أريد به أنه ضخم الجثة مليء باللحم فهو من ملائمات "الأسد"...

---

(١) سورة الحاقة آية: ١١.

(٢) ريشه: الريش: من قولهم: راش السهم إذا ألصق عليه الريش ليكون أحكم في الرماية.

ومنه قول الآخر:

سَقَاكِ وحيَّانَا بِكِ اللهُ إنَّمَا ... عَلَى الْعِيس نَوْرٌ وَالْخُدُورُ كمائِمُهُ[١]

حيث استعير "النور" للنساء، ويلائم النساء الخدور، ويلائم النور الكمائم، ومنه قولنا: "رأيت غيثًا غزيرًا يعطى باليمين وباليسار" "فغزيرا" يلائم "الغيث" المستعار منه و "يعطي باليمين وباليسار" يلائم الرجل الجواد، المستعار له.

والاستعارة المجردة: هي التي اقترنت بما يلائم المستعار له وذلك بعد استيفاء القرينة كما في قول البحتري:

يُؤَدُّون التَّحِيَّةَ مِنْ بَعِيدٍ ... إلى قَمَرٍ من الإيوانِ بادِ[٢]

حيث استعير "القمر" للإنسان الجميل ثم وصف بما يلائم المستعار له، وهو قوله "من الإيوان باد" أي: مطل، وقد استوفت الاستعارة قرينتها قبل هذا الوصف وهي قوله: "يؤدون التحية من بعيد".

وقول الآخر:

وعدَ الْبَدْرُ بِالزِّيَارَةِ لَيْلاً ... فإذا مَا وَفَى قَضَيْتُ نُذُورِي

استعار "البدر" للمحبوبة، والقرينة قوله "وعد" ثم ذكر ما يلائم المستعار له من الزيارة والوفاء بها على سبيل التجريد فهي استعارة مجردة... ومن ذلك قولنا: "هذا عالم يستضاء برأيه في مواجهة المشكلات وحلها "فقد استعير المصباح المضيء للرأي الصائب ثم حذف المستعار منه وهو المصباح ورمز له بلازمه: "يستضاء" على سبيل الاستعارة المكنية... وقد ذكر في العبارة ما يلائم المستعار له: "الرأي" وهو مواجهة المشكلات وحلها... وكذا قول القائل: "رحم اللهُ امرأً ألجم نفسه بإبعادها عن شهواتها" حيث استعير ما يقاد وهو البعير من الإبل أو الجواد من الخيل «للنفس» بجامع الانقياد في كل استعارة مكنية والقرينة إضافة الإلجام للنفس ثم ذكر ملائم للمستعار له وهو "إبعادها عن شهواتها".

---

(١) العيس: الإبل، والنور: الزهر... والخدور: مفردها: خدر، والكمائم: مفردها كمي.

(٢) الإيوان: القصر، وباد: ظاهر.

ومنها قول كثير:

غَمْرُ الرِّدَاءِ إذا تَبَسَّمَ ضاحِكًا غَلِقَتْ لضَحْكَتِهِ رِقابُ الْمَالِ(١)

استعار الرداء للمعروف بجامع أن كلا منهما يصون صاحبه، والقرينة ما ذكره من المال وتبسم الممدوح عند الجود به، وقد ذكر في البيت ملائم للمستعار له وهو إضافة "غمر" بمعنى كثير إلى الرداء... أما إذا جعلت "غمر" بمعنى واسع كانت من قبيل الاستعارة المرشحة الآتية، وذلك أن الكثرة تلائم المعروف المستعار له والسعة تلائم الرداء المستعار منه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾(٢)؛ حيث استعير "اللباس" للأحداث والمصائب التي حلت بأهل القرية، أو لما علا وجوههم وأجسادهم من صفرة وهزال... وقد ذكر في الآية "الإذاقة" بمعنى "الإصابة" وهي من ملائمات المستعار له، فالإذاقة بمعنى الإصابة تلائم الأحداث والمصائب وما علا الوجوه من صفرة، ولا تلائم اللباس... والسر البلاغي الكامن وراء مجيء الآية على التجريد هو أن المقام اقتضى التعبير عن أمرين وهما: شدة الإصابة، وشمولها وإحاطتها بهم، فهؤلاء القوم كانوا آمنين مطمئنين يأتيهم الرزق رغدًا من كل مكان فكفروا بأنعم الله فاستحقوا إحاطة العقاب الشديد بهم، ولو قيل: فأذاقها الله طعم الجوع... أو فكساها الله لباس الجوع، ليكون ترشيحًا، لأفاد الأول الشدة دون الشمول ولأفاد الثاني الشمول دون الشدة، فآثر النظم الكريم التعبير بالإذاقة واللباس لإفادة الأمرين معًا، شدة الإصابة والإحاطة والشمول.

والاستعارة المرشحة: هي ما قرنت بما يلائم المستعار منه بعد استيفاء القرينة كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾(٣)؛ حيث

(١) غمر: مأخوذ من قولهم: غمر الماء إذا كثر، وثوب غامر أي واسع، وغلقت: تمكنت من أيدي السائلين، يقال: غلق الرهن في يد المرتهن إذا لم يقدر الراهن على فكه... وفي "رقاب المال" استعارة مكنية.

(٢) سورة النحل الآية: ١١٢.

(٣) سورة البقرة الآية: ١٦.

استعير الشراء للاختيار والاستبدال، ثم ذكر الربح والتجارة وهما يلائمان المستعار منه، وذلك مما يقوي الاستعارة ويحقق المبالغة في التصوير والتخييل ودعوى دخول المستعار له في جنس المستعار منه وكأن الكلام على الحقيقة، ولهذا سميت بالاستعارة المرشحة، إذ الترشيح معناه في اللغة التقوية...

ومنها قول المتنبي:

رَمَيْتَهُمُ ببحرٍ من حديدٍ   له في البرِّ خلفَهُمُ عُبابُ[١]

استعير "البحر" للجيش القوي، والقرينة قوله: "من حديد" أما قوله: "رميتهم" فلا تصح قرينة لأنه قد يرميهم ببحر من الكرم، ثم ذكر ما يلائم المستعار منه وهو "العباب والبر" فخيل للسامع أن المراد هو البحر حقيقة...

وقول الضبي خال الفرزدق:

إذا ما الدَّهْرُ جرَّ على أُناسٍ   كَلاَكِلَهُ أناخَ بآخرِينَ[٢]

استعار الجمل للدهر استعارة مكنية، وتم استيفاء قرينتها بإضافة لازم المستعار منه "الجر والكلاكل" إلى المستعار له "الدهر" ثم ذكر جملة "أناخ بآخرين" وهي من ملائمات المستعار منه...

ومنها قول الآخر:

يُنَازِعُني رِدَائي عبدُ عمروٍ   رُوَيْدَكَ يا أخَا عَمْرو بْنِ بَكْرِ

ليَ الشِّطْرُ الذي مَلَكتْ يميني   ودونَكَ فَاعْتَجِرْ منهُ بِشِطْرِ[٣]

استعار الرداء للسيف بجامع أن كلا منهما يصون صاحبه، وتم استيفاء

---

(١) عباب: العباب: كثرة الماء والمطر الكثير وعباب السيل معظمه وارتفاعه وكثرته، وقيل: عبابه: موجه.

(٢) الكلاكل: جمع كلكل وهو الصدر، وأناخ: أبرك، يقال: أناخ الإبل وتنوخها أي. أبركها، واستناخت الإبل بركت...

(٣) رويد: مصدر بمعنى تمهل، واعتجر: من الاعتجار وهو الاعتمام، يقال: اعتجرت المرأة أي لبست المعجر وهو ثوب تشده على رأسها، والمراد بالشطر الذي ملكت يمينه: قائم السيف وبالشطر الآخر: صدره، أي: سيضربه على رأسه بصدر سيفه.

القرينة بقوله: "لي الشطر الذي ملكت يميني"؛ لأن ما يكون باليمين هو السيف الذي يحارب به لا الرداء... ثم ذكر الاعتجار وهو ما يلائم المستعار منه "الرداء".

وإذا عرفنا أن الاستعارة مبنية على تناسي التشبيه وادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به، وضح لنا أن الترشيح أبلغ من التجريد ومن الإطلاق، لأن التناسي فيه أقوى وأتم، ودعوة الاتحاد فيه أظهر وأوضح، فقد صار المشبه نفس المشبه به، وصرنا نصفه بأوصافه ونتبعه بملائماته...

فعندما يقول أبو تمام:

ويـــصعدُ حتـــى يظـــنَّ الـــجهو   لُ بـــأنَّ لـــهَ حاجَـــةً في الـــسماءِ

تراه قد أمعن في تناسي المشبه، إذ جعل الصعود المعنوي والارتقاء إلى مراتب المجد، صعودًا حسيًا، وبالغ في ذلك بذكر ما يلائم المشبه به، فجعل الجاهل الذي لا يعرف همم الممدوح يظن أن له حاجة في السماء فهو يصعد لينال تلك الحاجة... وعليه قول بشار:

أتتْنِـــي الـــشمسُ زائـــرةً   ولمْ تـــكُ تَـــبْرَحُ الفَلَكَـــا

حيث استعيرت الشمس للمحبوبة، ثم أمعن في تناسي التشبيه وادعى أنها غادرت مكانها في السماء وأقبلت إليه زائرة ولم تك قبل ذلك تبرح الفلك، فبنى الكلام على أنها شمس حقيقية.

ولهذا صح التعجب في قول المتنبي:

كَـبُرَتْ حـولَ ديـارِهم لـما بـدَتْ   منهـا الشُّمُوسُ ولـيسَ فيهَـا المشْرِقُ

وقوله أيضًا:

فلـــما رآني مُقْـــبلاً هـــزَّ نفـــسَهُ   إليَّ حُـسَامٌ كُـلُّ صـفح لَـهُ حـدُّ
ولم أرَ قـبلِي مـن مَـشَى البـدرُ نحـوَهُ   ولا رجـلاً قامـتْ تُعَانِقُـهُ الأُسْـدُ

فقد استعار الشموس والبدر والأسد لممدوحيه. ثم بنى كلامه على تناسي التشبيه وأمعن في التناسي فجعل الممدوحين بدورًا وشموسًا وأسدًا على الحقيقة ولهذا ساغ التعجب.

وساغ التعجب أيضًا في قول ابن العميد:

قَامَتْ تُظَلِّلُنِي مِنَ الشَّمْسِ نَفْسٌ أعزُّ عليَّ من نَفْسِي
قَامَتْ تُظَلِّلُنِي وَمِنْ عَجَبٍ شَمْسٌ تُظَلِّلُنِي من الشَّمْسِ

والنهي عنه في قول ابن طباطبا:

لاَ تَعْجَبُوا من بِلَى غِلالَتِهِ قد زَرَّ أزْرَارَهُ على القَمَر

فلولا بناء الكلام على المبالغة والإمعان في تناسي التشبيه وادعاء أنها شمس وقمر على الحقيقة لما ساغ التعجب في الأول والنهي عنه في الثاني.

هذا وكما يقع الترشيح في الاستعارة فيؤدي إلى المبالغة والإمعان في تناسي التشبيه، فقد يقع أيضًا في التشبيه كما في قول ابن الأحنف:

هي الشمسُ مَسْكَنُهَا في السماء فَعَزِّ الفُؤَادَ عَزَاءً جَمِيلاً
فلنْ تستطيعَ إليهَا الصعودَ ولنْ تستطيعَ إليكَ النزولاَ

شبه محبوبته بالشمس ثم رشح التشبيه بأن جعل مسكنها في السماء.

وقول الفرزدق:

أبي أحمدُ الغيْثَيْنِ صَعْصَعَةُ الذي متى تخْلِفِ الجوزاءُ والدَّلْوُ يُمْطِرِ (١)

شبه جده "صعصعة" بالغيث تشبيهًا ضمنيًا بل فضل جده على الغيث، ثم رشح التشبيه بقوله: "يمطر" فهو ملائم للتشبيه به.

وقول عدي بن الرقاع يصف حمارين وحشيين:

يتعاوَرَان من الغبار مُلاَءَةً بيضاءَ محكمةً همُا نسجَاهَا
تُطوَى إذا وردَا مكانًا محْزَنًا وإذا السنابكُ أسْهَلَتْ نَشَرَاها (٢)

---

(١) أحمد الغيثين: أحقهما بالحمد، والمراد بالغيثين، أبوه والغيث الحقيقي والجوزاء، والدلو: برجان في السماء يكثر فيهما المطر.

(٢) يتعاوران: يتناولان، تطوى: تزول، والمكان المحزن: الذي تغلظ أرضه فلا يثار غبار، والسنابك: أطراف الحوافر، وأسهلا: وردا المكان السهل.

شبه الغبار المثار بالملاءة ثم رشح التشبيه بذكر النسج والطي والنشر.

❊ ❊ ❊

الاستعارة العامية المبتذلة والبعيدة الغريبة

الاستعارة العامية المبتذلة هي ما قرب فيها الجامع واتضح بحيث يدركه العامة، كاستعارة "الأسد" للرجل الشجاع، والبحر للكريم الجواد والبدر للحسناء... ولوضوح الجامع وقربه في الاستعارة المبتذلة لا يهتم بها البلغاء، ولا تستحسن إلا في مقام الإرشاد والوعظ وتقرير المسائل العلمية ومخاطبة العامة.

أما الاستعارة البعيدة الغريبة: فهي ما بعد فيها الجامع ودق واحتاج في إدراكه والوقوف عليه إلى كثرة تفكير وإطالة نظر ودقة ملاحظة... وترجع غرابة الاستعارة إلى أحد العوامل الآتية:

الأول: كون الجامع بين المستعار له والمستعار منه أمرًا عقليًا كإزالة الحجاب في استعارة النور للحجة الواضحة والرأي الصائب في نحو قولنا: "هذا عالم يستضاء برأيه وتنير حجته".

ثانيًا: أن يشتمل الجامع على شيء من التفصيل والتركيب.

ثالثًا: أن يكون المشبه به نادر الحضور في الذهن عند حضور المشبه، ويتضح لنا ذلك في الشواهد الآتية:

يقول طفيل الغنوي:

وجعلـــتُ كُـــورِي فـــوقَ ناجيَـــةٍ يقتـــاتُ شَـــحْمَ سَـــنَامِهَا الرَّحْـــلُ(١)

استعار الاقتيات وهو تناول الطعام بالفم لإذهاب الرحل شحم السنام وذلك لكثرة احتكاكه به، والجامع بينهما: إزالة الأثر إزالة تدريجية مع طول الوقت، وهذا محقق في الاقتيات وفي إذهاب الرحل شحم السنام، ومرجع الغرابة إلى التفصيل في الجامع حيث لم ينظر إلى مجرد الإزالة، بل إلى حصولها بالتدريج شيئًا

---

(١) الكور: رحل البعير، والناجية: الناقة السريعة القوية.

فشيئًا، ومما يحسن الاستعارة في البيت أن الشحم نفسه مما يقتات فالسامع يتخيل أن الاقتيات حقيقة، فإذا ما انتهى إلى آخر البيت "الرحل" وضح له المجاز وبرز له الشيء من حيث لم يتوقعه.

ومن ذلك قول ابن المعتز:

حتى إذا ما عَرَفَ الصَّيْدَ الضَّارْ وأذِنَ الصُّبْحُ لَنا بالإبصارْ(١)

استعار "الإذن" للتمكن من الرؤية بعد العجز عنها... ومرجع الغرابة إلى ما في الجامع وهو "القدرة على فعل الشيء بعد زوال المانع من فعله" من تفصيل لا يدرك إلا بعد إدراك أن الليل كان مانعًا من الرؤية، بالإضافة إلى أن هذا الجامع أمر عقلي، والعقليات المركبة دقيقة الإدراك بالنسبة إلى الحسيات.

وقول الآخر يصف رقة النسيم:

بِعُرضَ تنُوفَةٍ للريحِ فيهَا نَسِيمٌ لا يُرَوِّعُ في التُّرَابِ(٢)

استعار الترويع بمعنى الإفزاع والإخافة لإثارة الريح التراب بجامع الحركة الهوجاء في كل... ومرجع الغرابة في البيت إلى كون المستعار له بعيد الحضور في الذهن عند ذكر المستعار منه... فصار الجمع بينهما غريبًا دقيقًا.

وقول ابن المعتز:

يُنَاجِيني الإخلافُ من تحت مَطْلِهِ فَتَخْتَصِمُ الآمالُ واليأسُ في صَدْرِي(٣)

استعار المناجاة للخطور في الذهن بجامع خفاء الدلالة في كل وهو جامع عقلي لذا كانت الاستعارة غريبة... ثم استعار الاختصام لحلول الأمل في صدره مرة ثم اليأس مرة أخرى، كأنهما يتنازعان، بجامع مطلق التدافع بين شيئين متعارضين... ولنا أن نجعل الاستعارتين في البيت من قبيل الاستعارة بالكناية

---

(١) الضار: تخفيف الضاري وهو الذي اعتاد الصيد، والصيد مفعول مقدم والضار فاعل مؤخر، والمعنى أنه عرف ما يصيده لذهاب الظلام ويروى: "انصار" في مكان "الضار" أي: انضم وجمع قواه للانقضاض، يصف بذلك بازي الصيد.

(٢) التنوفة: الصحراء أو الأرض الواسعة وعرضها: جانبها.

(٣) الإخلاف: عدم الوفاء، والمطل: التأخير في إجابة المطلوب.

وذلك بتشبيه الإخلاف بإنسان يتحدث من خلف ستار، والأمل واليأس بمتخاصمين، يتنازعان مكانا للإقامة فيه، وهذا أجمل وأكثر إبرازًا للخيال الذي يريده الشاعر...

ومنه قول آخر يصف فرسًا:

عَوَّدْتُه فيما أزورُ حبائبي إهمالَهُ وكذاكَ كلُّ مُخَاطِرِ
وإذا احتبَى قَرْبُوسُهُ بِعِنَانِهِ علكَ الشَّكِيمَ إلى انْصِرَافِ الزَّائِرِ (١)

استعار الاحتباء وهو ضم الرجل ركبتيه وجمعه ظهره وساقيه بثوب لضم اللجام مقدم السرج إلى فم الفرس والجامع هو الهيئة المركبة من انضمام شيئين بواسطة شيء آخر وترجع غرابة الاستعارة إلى ما في هذا الجامع من التفصيل فضلا عن كون المشبه به نادر الحضور في الذهن عند حضور المشبه لتباعد الهيئتين، هيئة الفرس، وهيئة الإنسان الجالس محتبيًا.

***

تحول الاستعارة المبتذلة إلى غريبة

قد يتصرف المتكلم في الاستعارة المبتذلة تصرفًا يحولها من الابتذال إلى الغرابة، وذلك بأن يتضمن الكلام الذي وردت فيه مجازًا آخر، أو تتعدد الاستعارات، أو يتعلق بها أمر يزيد من المبالغة التي أفادتها أو يتوخى في بناء الجمل ونظم الكلام ما يؤدي إلى دقة التصوير وإبراز الخيال.

انظر إلى قول كثير:

ولما قضينا من مِنًى كُلَّ حاجةٍ ومَسَّحَ بالأركانِ مَنْ هو مَاسِحُ
وشُدَّتْ إلى دُهْمِ الْـمَهَارَى رحالُنَا فلم ينظرِ الغادي الذي هو رَائحُ
أخذنا بأطرافِ الأحاديثِ بيننَا وسالتْ بأعناقِ المطيِّ الأَبَاطِحُ (٢)

---

(١) القربوس: السرج أو مقدمته، والعنان، سير اللجام، وعلك: مضغ، الشكيم الحديدة المعترضة في فم الفرس.

(٢) الأباطح: جمع بطحاء وهي الصحراء.

تجد أنه قد استعار السيلان للسير اللين السهل في قوله: "وسالت" وهي استعارة مبتذلة قريبة المأخذ، ولكنه أزال ابتذالها، بالجمع بينهما وبين المجاز العقلي في إسناد السيلان، إلى الأباطح ليفيد امتلاءها بالركبان حتى كأنها هي التي تسير، ثم بإدخال حرف الجر "الباء" على الأعناق ليدل على شدة السير وسرعته فإن مظهر السرعة في الإبل حركة أعناقها وبهذا تحولت الاستعارة من عامية مبتذلة إلى خاصية غريبة.

ونحوه قول ابن المعتز:

سالتْ عليهِ شعابُ الحيِّ حينَ دَعا أنصارَهُ بِوُجُوهٍ كالدنانيرِ (١)

حيث استعار "السيلان" لسرعة سير القوم إلى الممدوح حين دعاهم وهي استعارة مبتذلة، أزال الشاعر ابتذالها بأمور ثلاثة:

أولها: المجاز العقلي وهو إسناد السيلان إلى الشعاب ليدل على امتلائها بهم.

ثانيًا: تعليق الجار والمجرور "عليه" بالفعل "سال" ليدل على حبهم وإخلاصهم في طاعتهم له، فسيرهم كان عليه ومن أجله.

ثالثًا: تشبيه وجوههم بالدنانير في الإشراق والبهجة ليدل على شجاعتهم ورغبتهم في نصرته وإجابته، وبهذا تحولت الاستعارة في البيت من الابتذال إلى الغرابة.

وقول الآخر:

فرعاءُ إنْ نهضَتْ لِحَاجَتِهَا عَجِلَ الْقَضِيبُ وأبطأَ الدِّعْصُ (٢)

استعار "القضيب" للقامة، و "الدعص" للردف وهما استعارتان مبتذلتان، وقد أزال الشاعر ابتذالهما بتلك الأمور:

أولاً: وصف القضيب بالعجلة والدعص بالإبطاء إذ أكد الوصفان رشاقة القامة وعظم الردف.

---

(١) الشعاب: جمع شعب وهو الطريق في الجبل والناحية، والحي: القوم.

(٢) الفرعاء: الطويلة، والقضيب: الغصن، والدعص: كثيب الرمل المتجمع.

ثانيًا: إسناد عجل إلى القضيب وأبطأ إلى الدعص، أديا إلى المبالغة في رشاقة قامتها وضخامة عجزها.

ثالثًا: الطباق بين "عجل" و"أبطأ" أبرز حسن القامة والردف فالضد يظهر حسنه الضد.

رابعًا: تعدد الاستعارة.

ومن ذلك قول امرئ القيس:

فقلـــتُ لـــهُ لمـــا تمطَّـــى بـــصُلْبِهِ   وأردفَ أعْجَـــازًا ونـــاءَ بكَلْكَـــلِ[(١)]

فقد استعار "الصلب" لوسط الليل وجعله يتمطى ليزداد طوله، واستعار "الصدر" لأوله وجعله ثقيلا يقعده عن الحركة، واستعار الأعجاز لآخره، وجعلها تترادف وتتوالى ليدل على طول الليل وامتداده... فكل استعارة من هذه الاستعارات الثلاث إذا انفردت صارت عامية مبتذلة، ولكن اجتماعها حقق غرض الشاعر وهو إبراز طول ليله ورسم صورة متكاملة بين ليله والبعير أو الفرس، ولذا صارت الاستعارات في البيت غريبة بعيدة.

* * *

هذا والاستعارة تجري في الكلام على النحو الآتي:

١-استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسي، كقوله تعالى: **﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾**[(٢)]؛ حيث استعير لفظ "العجل" من الحيوان المخصوص، للصنم الذي صنعه السامري من الذهب بجامع الشكل والصوت، فالمستعار له والمستعار منه ووجه الشبه من المحسوسات، وقوله عز وجل: **﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾**[(٣)]، فقد استعير الموج وهو حركة ماء البحر واضطرابه لحركة الخلائق المجتمعة يوم البعث بجامع ما في كل من اضطراب وحركة مشاهدة، وقوله تعالى:

---

(١) تمطى: تمدد.. والصلب: عظم الظهر، والأعجاز: جمع عجز وهو مؤخر الشيء.

(٢) سورة طه آية: ٨٨.

(٣) سورة الكهف آية: ٩٩.

﴿ وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾[١]؛ حيث استعير شواظ النار للشيب بجامع البياض والإنارة، ثم حذف المستعار منه ورمز له بلازم من لوازمه وهو "الاشتعال" على طريقة الاستعارة المكنية.

أو بوجه عقلي، كما في الآية السابقة إذا جعلت الاستعارة تبعية في لفظ "اشتعل" حيث استعير الاشتعال لانتشار الشيب في الشعر بجامع سرعة الانتشار مع تعذر التلافي، فالطرفان حسيان والجامع عقلي، وكما في قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ ﴾[٢]، استعير السلخ وهو: "إزالة جلد الحيوان بعد ذبحه ليظهر اللحم، لإزالة ضوء النهار حتى يظهر الليل ويحل الظلام، بجامع مطلق ترتب أمر على أمر، فالطرفان حسيان والجامع بينهما عقلي...

وقوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴾[٣]، استعيرت المرأة العقيم "التي لا تلد" للريح التي لا تمطر بجامع عدم ظهور الأثر في كل، ثم حذف المستعار منه ورمز له بلازم من لوازمه هو "العقم" على سبيل الاستعارة المكنية، فالطرفان حسيان والجامع عقلي... ويجوز اعتبار الاستعارة تبعية بتشبيه ما في الريح من عدم تلقيح السحاب كي يمطر بالحالة التي في المرأة المانعة لـها من الإنجاب وهي العقم، ثم استعير "العقم" للحالة التي في الريح واشتق منه "عقيم" بمعنى لا ينتج أثرًا... وعندئذ يكون كل من الطرفين والجامع عقليًا.

٢-استعارة محسوس لمعقول، ولا يكون الجامع إلا عقليًا، كقوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[٤]، فالآية خطاب للنبي ﷺ بأن يبلغ الأمانة ويوضح أمر الدين وضوحًا تامًا لا يعود معه إلى خفاء كما لا يلتئم الزجاج بعد كسر... فقد استعير الصدع الحسي وهو كسر الزجاج، للتبليغ الذي لا ينمحي أثره وهو عقلي، بجامع قوة التأثير في كل، ثم اشتق منه "اصدع" بمعنى بلغ تبليغًا يبقى أثره...

---

(١) سورة مريم آية: ٤.
(٢) سورة يس آية: ٣٧.
(٣) سورة الذاريات آية: ٤١.
(٤) سورة الحجر آية: ٩٤.

وقوله عز وجل: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ ﴾[١]، فالآية تتحدث عن اليهود، والضرب في اللغة يستعمل للإلصاق وللإحاطة، يقال: ضرب الطين على الحائط أي: ألصقه بها، وضرب الخيمة أي: أقامها لتحيط بهم... وعلى ذلك فقد استعير الضرب في الآية من إحاطة القبة أو الخيمة، أو من لصوق الطين بالحائط ولزومه له لإحاطة الذلة بهم أو للصوقها ولزومها لهم، واشتق من الضرب ضرب بمعنى أحاط أو لزم، فالمستعار له في الآية عقلي، والمستعار منه حسي.

وقوله تعالى: ﴿ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ ﴾[٢]، استعيرت الزلزلة وهي التحريك بشدة وعنف لشدة ما أصابهم من الألم والمشاق... وقوله عز وجل: ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾[٣]، استعير النبذ وهو الإلقاء والقذف باليد، للتناسي والإهمال.

٣-استعارة معقول لمعقول ولا يكون الجامع إلا عقليًا، كقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾[٤]، استعير الرقاد للموت بجامع عدم ظهور الأفعال التي يعتد بها في كلٍ، والرقاد والموت وعدم الظهور من المعاني العقلية.

٤- استعارة معقول لمحسوس... ولا يكون الجامع إلا عقليًا، كقوله عز وجل: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾[٥]، استعير الطغيان وهو التعالي والتكبر، لزيادة الماء وارتفاعه بجامع تجاوز الحد في كل، واشتق منه الفعل "طغى" بمعنى زاد وارتفع على سبيل الاستعارة التبعية... فالمستعار منه "الطغيان" أمر عقلي... والمستعار له الزيادة والارتفاع. أمر حسي والجامع كما ترى من الأمور العقلية.

* * *

(١) سورة آل عمران آية ١٢.

(٢) سورة البقرة آية: ١١٤.

(٣) سورة آل عمران آية: ١٨٧.

(٤) سورة يس آية: ٥٢.

(٥) سورة الحاقة آية: ١١.

قرائن الاستعارة

لابد للاستعارة، ولكل مجاز من وجود قرينة تمنع إرادة المعنى الأصلي الذي وضع له اللفظ، فالقرينة هي ما ينصبه المتكلم دليلاً على أنه أراد باللفظ غير معناه الوضعي، وهي إما لفظية، كقولنا: رأيت بحرًا يتصدق وأسدًا يخطب وقمرًا يتكلم، فالألفاظ "يتصدق" ويخطب ويتكلم "دلت على أن المراد بالبحر والأسد والقمر غير معانيها الأصلية. وإما غير لفظية كدلالة الحال في قولنا: "رأيت بحرًا" والمخاطب يرى رجلاً كريمًا مقبلاً، فقد دلت الحال على إرادة الرجل الكريم ومنعت إرادة المعنى الأصلي للفظ "البحر" وكدلالة الاستحالة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾[1]، فقد استعير "الطغيان" للزيادة وارتفاع الماء، والقرينة استحالة صدور الطغيان بمعناه الأصلي من الماء.

هذا ويقرر البلاغيون أن القرينة في الاستعارة التصريحية شيء له علاقة بالمشبه وفي المكنية شيء له علاقة بالمشبه به، وتأتي القرينة في الاستعارة التصريحية الأصلية على وجوه أهمها:

١-أن تكون معنى واحدًا لا تعدد فيه وهذا هو الأكثر كقولنا: رأيت أسدًا يقاتل وظبية تغني وبحرًا ينفق.

٢-أن تكون أكثر من معنى، وكل واحد كافٍ في الدلالة على الاستعارة كما في قول الشاعر:

فــإنْ تَعَـافُوا الْعَـدْلَ والإِيمَـانَا فــإنَّ في أيْمَانِنَـا نيرانَـا

فقد استعيرت النيران للسيوف، والقرينة تعلق الفعل "تعافوا" بكل من العدل والإيمان، ويكفي في الدلالة على عدم إرادة النيران تعلقه بأحدهما، فالاستعارة لا تتوقف على الأمرين مجتمعين، ولكن المعنى الذي يريده الشاعر يتوقف عليهما معًا؛ فمراده أن يقول: إما أن تدفعوا الجزية وهي عدل وإما أن تؤمنوا بالله ورسوله فإن

(١) سورة الحاقة آية: ١١.

كرهتم العدل والإيمان حاربناكم فإن في أيدينا سيوفا تبرق كالنيران، وبعض البلاغيين يمنع تعدد القرينة ويرى أنها لا تكون إلا معنى واحدًا وما عدا ذلك يكون تجريدًا أو ترشيحًا على نحو ما رأيت في الاستعارة المجردة والاستعارة المرشحة.

٣-أن تكون القرينة عدة معان ملتئمة مرتبطة لا يصلح واحد منها بانفراده أن يكون قرينة، كما في قول البحتري:

وصــاعقةٍ مــن نــصلهِ تنكفِــي بِهَــا عــلى أَرْؤُسِ الأَقْــرَانِ خَمْــسُ سَــحَائبِ

فقد استعيرت "السحائب" لأصابع الممدوح بجامع الجود والعطاء، والقرينة ما ذكره من وجود صاعقة ناشئة من نصل سيفه، تنقلب على رءوس أقرانه وأن الذي يقلبها عدده خمسة، وهي أصابع يده فهذه الأمور مجتمعة هي القرينة ولا يكفي واحد منها ليكون قرينة مستقلة.

كما تأتي القرينة في الاستعارة التبعية على وجوه:

أولها: أن يكون إسناد الفعل إلى الفاعل لا يتأتى على الحقيقة، كقولهم نطقت الحال بكذا، وكلمتني عيناه، وأخبرتني أسارير وجهه، فالنطق لا يتأتى من الحال، وكذا التكليم والإخبار لا يتأتيان من العينين والأسارير فدل ذلك على استعارة النطق والتكليم والإخبار للدلالة الواضحة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾(١) فالطغيان لا يتأتّـى من الماء، وقد دل ذلك على استعارة الطغيان لارتفاع الماء وفيضانه...

ثانيها: ألا يتأتى إسناد الفعل إلى نائب الفاعل على الحقيقة، كقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾(٢)، فالضرب بمعنى نصب الشيء أو الصك بالطين لا يتأتى تعلقه بالذلة فدل ذلك على استعارة الضرب للإحاطة أو الملازمة.

ثالثها: ألا يتأتى تعلق الفعل بمفعوله على الحقيقة، كقول ابن المعتز:

جُمِــعَ الْــحَقُّ لنَــا في إمــامٍ قتــلَ البُخْــلَ وأَحْيَــا الــسَّمَاحَا

---

(١) سورة الحاقة آية: ١١.

(٢) سورة آل عمران آية: ١١٢.

"فقتل وأحيا" لا يتأتى تعلقهما بالبخل أو السماح، وهذا دليل على استعارة القتل للإزالة والإحياء للإذاعة والنشر...

وكقول كعب بن زهير:

صَبَحْنَا الْخَزْرَجِيَّةَ مُرْهَفَاتٍ أَبَادَ ذوِي أُرُومَتِهَا ذوُوهَا[(١)]

استعار التصبيح بالتحية للطعن بالسيوف المرهفة بعد تنزيل الطعن منزلة التحية على طريقة الاستعارة التهكمية، والقرينة أن الفعل "صبح" لا يتأتى تعلقه بالمفعول الثاني "مرهفات" على الحقيقة...

ومثله قول القطامي السابق.

نَقْرِيهِم لَهْذَمِيَّاتٍ نقُدُّ بهَا ما كان خاطَ عليهم كُلُّ زرَّادِ

رابعها: ألا يتأتى تعلق الفعل بكل من مفعوليه على الحقيقة كقول الحريري.

وَأَقْرَى المسامِعَ إما نَطَقْتَ بيانًا يقود الْحَرُونَ الشَّمُوسَا[(٢)]

استعار القرى للإلقاء على المسامع بيانًا مؤثرًا ساحرًا والقرينة أن الفعل "أقرى" لا يتأتى تعلقه بالمسامع والبيان على الحقيقة، وهذه الاستعارة توحي بعذب حديثه وحلاوة منطقه وفصاحة كلامه فهو يغذي المسامع كما يقري الطعام.

خامسها: ألا يتأتى تعلق الجار والمجرور بالفعل على الحقيقة، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[(٣)]، فالجار والمجرور "بعذاب" لا يتأتى تعلقه بالفعل "بشر" على الحقيقة فدل ذلك على استعارة التبشير للإنذار بعد تنزيل التضاد بينهما منزلة التناسب على سبيل الاستعارة التبعية التهكمية.

سادسها: امتناع تعلق الفعل بكل ما تقدم على الحقيقة كما في قول الشاعر:

تَقْرِي الرياحُ رياضَ الْحَزْنِ مُزْهرةً إذا سرىَ النومُ في الأجفانِ إيقاظَا[(٤)]

---

(١) الخزرجية: الخزرج من الأنصار، ومرهفات: السيوف المرهفة أي المرققة، والأرومة: الأصل، والضمير المضاف إليه يعود إلى الخزرجية، والضمير في "ذروها" يعود إلى مرهفات.

(٢) أقرى: مأخوذ من القرى وهو طعام الضيف، والحرون والشموس: بمعنى واحد وهو الذي لا ينقاد لك.

(٣) سورة التوبة آية: ٣٤.

(٤) الحزن: الأرض الغليظة، وإيقاظها: مفعول ثان لتقري وهي استعارة تصريحية لتفتح الأزهار.

استعير القري لفعل الرياح وتأثيرها على الرياض فتتفتح أزهارها والقرينة أن الفعل "تقري" لا يتأتى إسناده إلى الرياح ولا يتأتى تعلقه بالرياض ولا بالإيقاظ... وفي هذه الاستعارة إيحاء بحسن الرياح ورقتها وجمال أثرها في الرياض، ففعلها قري للرياض وإطعام...

وأما القرينة في الاستعارة المكنية فهي إثبات لازم المشبه به للمشبه وهو ما يسمى بالاستعارة التخييلية، ففي قوله عز وجل: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾(١)، شبه الشيب بشواظ النار ثم حذف المشبه به ورمز له بلازم من لازمه وهو "اشتعل"، والقرينة هي إثبات اشتعل للشيب "المشبه" وهذا الإثبات يسمى استعارة تخييلية... وفي قولك: نطقت الحال" شبهت الحال بإنسان وحذف المشبه به ورمز له بلازمه "نطق" والقرينة إثبات هذا اللازم للمشبه "الحال"(٢).

وفي قول أبي ذؤيب.

وإذا المنيَّةُ أنْشَبَتْ أظفَارَهَا — ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

استعارة مكنية حيث شبهت المنية بالسبع بجامع الاغتيال في كل وحذف المشبه به ورمز له بلازمه وهو "الأظفار" والقرينة هي إثبات "الأظفار" للمنية ويسمى هذا الإثبات استعارة تخييلية.

☆☆☆

---

(١) سورة مريم آية: ٤.

(٢) ويصح أن تكون الاستعارة في المثال تبعية حيث استعير النطق للدلالة، واشتق من النطق «نطق» بمعنى «دل» على سبيل الاستعارة التبعية في الفعل.

المجاز المركب

المجاز المركب هو التركيب المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة بين المعنى الموضوع له التركيب والمعنى المستعمل فيه، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي، فإذا كانت العلاقة المشابهة، سمي المجاز استعارة تمثيلية، وإن كانت غير المشابهة سمي مجازًا مركبًا مرسلاً... والمراد بالوضع هنا ما تعورف على فهمه من التركيب.

ويتضح من هذا أن المعنيين في المجاز المركب وهما المعنى الأصلي الذي دل عليه التركيب دلالة حقيقية، والمعنى المجازي الذي استعمل فيه وأريد منه، كلاهما يكون هيئة منتزعة من أمرين أو من أمور عدة، وهذا هو الفرق بينه وبين المجاز المفرد؛ إذ المجاز المفرد يكون في الكلمة المفردة، فمعنياه الأصلي والمجازي مفردان، كما أن اللفظ الذي تجوز فيه مفرد.

الاستعارة التمثيلية

هي اللفظ المركب المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة، كقولك للرجل يتشدد في الأمر الصغير، ويتسامح في الأمر الخطير: "أراكَ تُنْفِقُ الدِّينَارَ وتَحْرِصُ على الدِّرْهَمِ"، شبهت حاله في تمسكه بصغائر الأمور وتسامحه في جسامها بحال من يبدد الدينار ويحرص على الدرهم بجامع أن كلا منهما يترك ما ينفع إلى ما هو قليل النفع، ثم استعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية، والقرينة حالية تفهم من سياق الكلام... ومن ذلك قولك لمن يتردد في الأمر: "مَالِي أَرَاكَ تُقَدِّمُ رِجْلاً وتُؤَخِّرُ أُخْرَى" شبهت صورة المتردد في الأمر بصورة تردد من قام ليذهب في أمر، فهو تارة يريد الذهاب فيقدم رجلا، وتارة لا يريد فيحجم ويتأخر، ثم استعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه على طريق الاستعارة التصريحية التمثيلية.

والاستعارة التمثيلية كثيرة الاستعمال في كلام العرب نثره وشعره، وفي القرآن الكريم، وفي الحديث الشريف... فمن ذلك قولهم للرجل يبذل جهده في عمل لا يثمر شيئًا" أراكَ تَنْفُخُ فِي رَمَادٍ... وَتَضْرِبُ في حَدِيدٍ بَارِدٍ... وتَخُطُّ عَلَى الْـمَـاءِ"

مثلوا حاله بحال من ينفخ في الرماد، "فلا يخرج نارًا، ومن يضرب في حديد بارد، فلا يتشكل بالشكل الذي يريد، ومن يخط على الماء فلا يترك أثرًا...

ومنها قولهم للرجل يحتال على صاحبه حتى يصرفه عن الأمر الذي يتمسك به: "مَا زالَ يَفْتِلُ لَهُ في الذِّرْوَةِ وَالْغَارِبِ حَتَّى لاَنَ... ومَا زَالَ يَنْزِعُ الْقُرَادَ مِنَ الْبِعَيرِ حَتَّى سَكَنَ"(١)، مثلوا حاله مع صاحبه بحال من يحتال على البعير الهائج بحك شعر سنامه وما يليه إلى العنق حتى يهدأ... وبحال من ظل ينزع القراد من البعير حتى سكن...

ومنها قولهم: لمن يقدم النصح للذي لا يفهمه أو للذي لا يعمل به: "لاَ تَنْثُرِ الدُّرَّ أَمَامَ الْخَنَازِيرِ" مثلوا حاله بحال من يضع الدر أمام الخنازير بجامع أن كليهما لا ينتفع بالشيء النفيس الذي ألقي إليه.

ومنها قول المتنبي يمثل حال من عابوا شعره لأنهم لم يرزقوا الذوق السليم لفهم الشعر الرائع والنظم العجيب:

وَمَنْ يَكُ ذا فمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ ... يَجِدْ مُرًّا بهِ الماءَ الزُّلاَلاَ

وقوله: يمثل حال من لا يحسن اختيار العامل فيجعل غير الثقة على أمواله فيبعثرها ويضيعها:

وَمَنْ يَجْعَلِ الضُّرْغَامَ للصَّيْدِ بازَه ... تَصَيَّدَهُ الضُّرْغَامُ فيمَا تَصَيَّدَا(٢)

وقول الآخر يمثل حال من يضيع الأموال التي ورثها، لأنها آلت إليه بلا تعب:

ومَنْ مَلَكَ البلادَ بغيرِ حَرْبٍ ... يهُونُ عليهِ تسليمُ البلادِ

ومنها قول ابن ميادة يمثل حال إكرام الممدوح له، وحال إهانته إياه:

ألم تَكُ في يمنى يديك جَعَلْتَنِي ... فلا تجْعَلَنِّي بعدَها في شِمَالِكَ

---

(١) الذروة: السنام، والغارب: العنق.

(٢) الضرغام: الأسد، والباز: ضرب من الصقور التي تصيد، يقال: باز وبازى وباز وبأز وجمعه: بزاة... انظر لسان العرب مادة: بزا.

وقول الآخر يمثل حال الرجل الذي لا يقول إلا حقًا ولا يخبر إلا بالصدق.

إذا قالتْ حذامِ فَصَدِّقُوهَا فإنَّ القولَ ما قالتْ حذامِ

ومنها قول الشماخ يمثل حال "عرابة" في حرصه على المجد واعتزازه به، وإقدامه عليه وسموه إليه، واقتداره على نيله:

رأيتُ عَرَابَةَ الأَوْسِيَّ يسمُو إلى الخيراتِ منقطعَ القرينِ

إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لمجدٍ تلقَّاهَا عَرابَةُ باليمينِ

ولا يخفى عليك أن الشبه مأخوذ من مجموع التلقي واليمين على حد قولهم: تلقيته بكلتا اليدين، ولهذا لا تصلح "اليمين" أو اليد أو الكف حيث يقصد التجوز فيها وحدها، فلا يقال: هو عظيم اليد أو عظيم اليمين، بمعنى عظيم القدرة، ولا يقال: عرفت يمينك على هذا، بمعنى عرفت قدرتك عليه...

ومنها قول الآخر يمثل حال المصلح الذي يفسد الغير ما يصلحه:

متى يبلُغِ البُنْيَانُ يومًا تمامَهُ إذا كنتَ تَبنيهِ وغيرُك يهْدِمُ؟

ومما جاء من ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾(١)، مثلت الآية الكريمة حال الأرض يوم القيامة والله عز وجل يتصرف فيها بأمره وقدرته تغييرًا وتبديلاً بحال الشيء يكون في قبضة القابض يتصرف فيه كيف يشاء... ومثلت حال السموات وقد طواها الله بقدرته بحال الكتاب المطوي في يمين صاحبه... والجامع فيها وقوع كل تحت قدرة صاحبه وإرادته...

وقوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾(٢)، مثلت الآية حال المتعجل بالحكم قبل إذن الله به بحال المتقدم بين يدي متبوعه حين المشي بجامع عدم المتابعة في كل...

يقول الزمخشري: "وحقيقة قولهم: جلست بين يدي فلان أن يجلس بين

---

(١) سورة الزمر الآية: ٦٧.

(٢) سورة الحجرات الآية: ١.

الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريبًا منه، فسميت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما توسعًا، كما يسمى الشيء باسم غيره إذا جاوره وداناه في غير موضع، وقد جرت هذه العبارة ههنا على سنن ضرب من المجاز وهو الذي يسميه أهل البيان تمثيلاً ولجريها هكذا فائدة جليلة ليست في الكلام العريان، وهي تصوير الهجنة والشناعة، فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة، والمعنى: ألا تقطعوا أمرا إلا بعدما يحكمان به ويأذنان فيه، فتكونوا إما عاملين بالوحي المنزل، وإما مقتدين برسول الله ﷺ "[١].

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾[٢]، فقد عدها بعض البلاغيين من قبيل الاستعارة التمثيلية؛ حيث شبهت حال الغضب الذي أثار موسى بعض الوقت ثم هدأ بحال رجل أثار غيره ثم سكت بجامع التحول من حال إلى حال... والأولى حمل الآية على الاستعارة المكنية؛ حيث شبه الغضب بإنسان يثير غيره ثم حذف المشبه به ورمز له بلازمه وهو السكوت ويقوي ذلك أن المذكور في الآية الكريمة لفظ "الغضب" وهو مشبه وليس مشبهًا به.

وعد بعض البلاغيين الآية من قبيل التبعية في الفعل، بأن استعير السكوت للسكون، واشتق منه سكت بمعنى: سكن... وبعضهم يجعلها من قبيل القلب، وأن الأصل: ولما سكت موسى عن الغضب، كما نقول: خرق الثوب المسمار والأصل: خرق المسمار الثوب... وهناك قراءتان أخريان للآية الكريمة: إحداهما ولما سكن عن موسى الغضب، والثانية: ولما سُكن بالبناء للمفعول، والأولى -كما قلت- أن تعد الآية من قبيل الاستعارة المكنية لأن ذلك يصور مدى تمكن الغضب من موسى عليه السلام وكأنه كان يغريه على ما فعل، ويقول له: قل لقومك كذا، وألق الألواح، وجر برأس أخيك إليك، ولا تجد هذا المعنى في حمل الآية على الاستعارة التبعية ولا في القراءتين الأخريين[٣].

---

(١) الكشاف جـ٣ ص٥٥٢.

(٢) سورة الأعراف آية: ١٥٤.

(٣) ارجع إلى الكشاف جـ٢ ص ١٢٠.

وتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾[١]،نجد أن المقام يقتضي حمل الآية الكريمة على الاستعارة التمثيلية، إذ المراد: الحث على النظر والتقريع على تركه، وقد ذكر بعض المفسرين أن المراد بالقلب: العقل، ولكن البلاغيين لم يرتضوا هذا التفسير وإن كان المرجع عند التحصيل إليه، وذلك لإخلاله بالمراد، وبينوا أن الكلام مبني على تخييل أن من لا ينتفع بقلبه فلا ينظر ولا يعي يكون بمنزلة من عدم قلبه جملة، وهذا يتفق مع ما تريده الآية من الحث على النظر والتقريع على تركه[٢].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾[٣]؛ حيث مثلت حال المتمسك بدين الله وعهده بحال المعتمد على حبل قوي يمنعه من السقوط، ويجوز جعل الاستعارة في الآية مفردة؛ حيث شبه دين الله بالحبل القوي بجامع الحفظ من الضرر في كل واستعير لفظ الحبل للدين... ويكون قوله تعالى: "واعتصموا" ترشيحًا للاستعارة لأنه من ملائمات المشبه به...

ومما جاء من الاستعارة التمثيلية في الحديث النبوي قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تمرة من كسب طيِّب -ولا يقبل الله إلا الطيب- فإن الله يتقبَّلُها بيمينه ثم يُرَبيِّها لصاحبها كما يُرَبِّي أحدُكُمْ فَلُوَّهُ حتى تكونَ مِثْلَ الجبل»[٤]، مثلت حال الصدقة القليلة من الكسب الطيب عند الله تعالى، في محبته لها ورضاه عنها، بالشيء المحبوب يوضع في اليد اليمنى اعتزازًا به وحرصًا عليه.

ومن الاستعارة التمثيلية: الأمثال السائرة، الواردة عن العرب فيستعار موردها لمضربها، ومعلوم أن الأمثال لا تغير، فيستعار موردها الذي قيلت فيه لمضربها الذي تضرب فيه بلا تغيير ولا تبديل، من ذلك قولهم: «أَحَشَفًا وَسُوءَ

---

(١) سورة ق آية: ٣٧.

(٢) انظر الإيضاح جـ٣ ص ١٥١.

(٣) سورة آل عمران آية: ١٠٣.

(٤) الفلو: المهر أو الفصيل، والحديث رواه البخاري في الزكاة رقم ١٤١٠، ومسلم في الزكاة أيضًا رقم ٦٤/ ١٠١٤.

كَيْلَةٍ»، يضرب مثلاً لـمن يظلم من جهتين وأصل مورده أن رجلاً اشترى تمرًا من آخر، فوجده رديئًا وناقص الكيل، فقال: "أحشفًا وسوء كيلة" فصار يضرب مثلاً لـمن ظلم من جهتين.

ومن أمثالهم أيضًا: "رمَى عُصْفُورَيْنِ بِحَجَرٍ" يضرب لمن يحتال فيدرك أمرين بتدبير واحد... ومنها "الصَّيْفَ ضَيَّعَتِ اللَّبَنَ"، ويضرب لمن يطلب أمرًا بعد فوات الأوان... ومنها: "عِنْدَ جُهَيْنَةَ الْخَبَرُ الْيقِينُ"، ويضرب لمن يعرف الشيء على حقيقته ووجهه، ومنها: "إنَّك لا تجني منَ الشَّوْكِ الْعِنَبَ" ويضرب لمن يفعل الشر وينتظر مجازاته بالخير... ومنها: "قَطَعَتْ جَهِيزَةُ قَوْلَ كُلِّ خَطِيبٍ" ويضرب لمن يأتي بالقول الفصل في مواطن النزاع.

المجاز المركب المرسل

والمجاز المركب المرسل هو اللفظ المركب المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾(١)، فالله عز وجل يعلم ما وضعت وامرأة عمران تعرف أنه تعالى لا يخفى عليه شيء فهي لم ترد الإخبار بما وضعت وإنما أرادت أن تبدي حزنها وتحسرها لعدم مجيئه ذكرًا حيث كانت قد وهبته ونذرته لخدمة بيت الله... تبدي حزنها وتحسرها لعدم مجيئه ذكرًا حيث كانت قد وهبته ونذرته لخدمة بيت الله... فهو مجاز علاقته اللزومية إذ يلزم من إخبارها بوضع الأنثى أنها حزينة متحسرة...

ومنه قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾(٢)، أراد عليه السلام إظهار ضعفه وإبراز وهنه، إذ يلزم من إخباره بأنه قد وهن عظمه واشتعل رأسه شيبًا، إبراز ضعفه وإظهار وهنه... والقرينة مقام الخطاب؛ حيث يعلم زكريا عليه السلام أن الله لا تخفى عليه خافية، فليس في حاجة إلى إخبار...

---

(١) سورة آل عمران آية: ٣٦.

(٢) سورة مريم آية: ٤.

وقوله عز وجل: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[١]، أراد عليه السلام إظهار الغبطة والسرور، فهو مجاز مركب علاقته اللزومية إذ يلزم من إخباره بأن الله قد آتاه من الملك وعلمه من تأويل الأحاديث، إبداء سروره وإظهار غبطته، والقرينة أن الله عز وجل عليم بذات الصدور، ويوسف عليه السلام يعرف أنه تعالى في غنى عن إخباره، ولا تخفى عليه خافية.

وأرى أن المعاني المشار إليها في الآيات الكريمة ونحوها، قد فهمت من السياق وقرائن الأحوال، فهي من مستتبعات التراكيب[٢]... ووجه الدلالة عليها الوقوف على ما يرمي إليه السياق ومعرفة قرائن أحواله، ولذا لا أجد داعيًا للقول بالمجاز المرسل المركب، وأرى أن يقصر المجاز في التركيب على الاستعارة التمثيلية.

☆☆☆

(١) سورة يوسف آية ١٠١.

(٢) انظر كتابنا: "علم المعاني" جـ ١ ص ٣٨، ٣٩.

خصائص الاستعارة ومزاياها البلاغية

من أهم خصائص الاستعارة تجسيد المعنويات وتشخيص المجردات، وبث الحياة فيما لا حياة فيه، فتصبح المعنويات والأمور المجردة شاخصة أمام الأعين، ويصير فاقد الحياة بالاستعارة حيا متحركًا...

ولننظر في قول الله عز وجل: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ [١]، فقد استعير التنفس لظهور نور الصبح، وانتشار ضوئه، وفرق بين الظهور وانتشار الضوء وبين التنفس، إن الاستعارة بثت في الصبح الحياة وأضفت عليه صفات الكائن الحي، وفيها بالإضافة إلى ذلك إيحاء بثقل الليل وكربه وهمومه، وكأن في ظهور ضوء الصبح إزاحة لهذه الكربات وإزالة لتلك الهموم، وكأن الصبح يلتقط أنفاسه بزوال ظلمات الليل.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧﴾ [٢]، استعير الشهيق للصوت الفظيع، وقوله عز وجل: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ [٣]، استعير القذف للإيراد، والدمغ للإذهاب، ولا يخفى ما في الاستعارتين من بث الحياة في جهنم، وإبرازها في صورة كائن حي امتلأ غيظًا، يريد أن يبتلع الكفرة، ومن تجسيد الحق والباطل، حتى كأن الحق قذيفة أصابت الباطل فقضت عليه ومحقته...

ولننظر في قول أبي العتاهية مهنئًا المهدي بالخلافة:

أَتَتْـــهُ الـــخِلافةُ مُنْقَـــادةً ... إليـــه تجُـــرِّرُ أذيالَـــهَا

وفي قول البارودي:

إذا اسْـتَلَّ مِـنْهُمْ سـيدٌ غـربَ سـيفهِ ... تَفَزَّعـتِ الأفـلاكُ والْتَفَـتَ الـدَّهْرُ [٤]

نجد أن الخلافة والأفلاك والدهر، قد تحولت بالاستعارة إلى كائنات حية تفزع وتتلفت وتمشي في عجب وحياء، وقد صار للخلافة المنقادة أذيال تجررها.

---

(١) سورة التكوير آية ١٧، ١٨.

(٢) سورة الملك آية ٦، ٧.

(٣) سورة الأنبياء آية ١٨.

(٤) غرب السيف: حده واستل: انتزع.

وتأمل قول أبي ذؤيب.

وإذا المنيةُ أنشبَتْ أظفارَها ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

تجده قد أبرز المنية وهي معنى عقلي في صورة محسة مشاهدة إذ جعلها سبعًا يفتك وينشب أظفاره.

ومن خصائص الاستعارة، الإيجاز، فهي تعطي المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة يسيرة، على نحو ما ترى في قول ابن المعتز:

أَثْمَرَتْ أغصانُ راحتِهِ بِجِنَانِ الْحُسْنِ عُنَّابَا

فقد استعيرت الأغصان للأصابع والعناب للأنامل والمعنى: أثمرت أصابع يده الشبيهة بالأغصان بنانا مخضوبة كالعناب، وهذا الإثمار في جنة من جنان الحسن، وهي فتاته التي يصف جمالها... ولا يخفى عليك ما أحدثته الاستعارة من إيجاز مع حسن بيان وجمال تصوير(١).

ومنها المبالغة في تأكيد المعنى وتفخيمه؛ لأنها قائمة على تناسي التشبيه وادعاء أن المشبه صار فردًا من أفراد المشبه به، ولذا كان قولنا: رأيت بدرًا، وأضاء محمد الأرض شرقًا وغربًا، أبلغ من قولنا: محمد كالبدر، وهو التشبيه الذي بنيت عليه الاستعارة، وذلك أن الاستعارة قد صيرت محمدًا فردًا من أفراد البدور، مبالغة وادعاء.

وتأمل قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾(٣)، فقد استعير الطغيان لزيادة الماء وارتفاعه، واستعير العتو للشدة، والاستعارة فيهما أبلغ لأن في الطغيان دلالة على الغلبة والقهر، والعتو شدة فيها تمرد... وقد يتبع المستعار بملائمات

(١) كما لا يخفى عليك جمال التشبيه البليغ الذي أضيف فيه المشبه به إلى المشبه في قوله: بجنان الحسن.

(٢) سورة الحاقة آية: ١١.

(٣) سورة الحاقة آية: ٦.

المستعار منه ويبالغ في ذلك حتى ينزل منزلة الحقيقة على نحو ما مر بك في الاستعارة المرشحة.

ومن خصائص الاستعارة أيضًا: حسن البيان وتحريك المشاعر وتنبيه العقول وتنشيط الأذهان، ولا يخفى عليك إدراك ذلك فيما مر بك من شواهد... ففي قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾(١)، تجد أن التعبير عن ظهور الشيب وانتشاره بالاشتعال، قد أبرز الشيب في صورة واضحة بينة، تجذب المشاعر وتنبه العقول إلى أن انتشار الشيب لا يمكن تلافيه ودفعه كما أن شواظ النار لا يتلافى.

هذا والاستعارة –كما رأينا– مبنية على التشبيه، فيشترط لحسنها أن يكون التشبيه حسنًا. وحسن التشبيه –كما مر بنا– يحصل بكون وجه الشبه كثير التفصيل، وكون المشبه به نادر الحضور في الذهن عند حضور المشبه فيه، وأن يحقق الغرض منه. فكذلك الاستعارة تحسن إذا كان الجامع بين المستعار له والمستعار منه مفصلا، كاستعارة الاحتباء لصورة ضم اللجام مقدم السرج إلى فم الفرس واستعارة الاقتيات لإذهاب الرحل شحم السنام على نحو ما رأيت في الاستعارة الغريبة... وإذا كان المستعار منه نادر الحضور في الذهن عند حضور المستعار، كاستعارة الطغيان لارتفاع الماء، في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ وتحسن كذلك إذا كان الغرض منها محققًا، كاستعارة قولهم: "أراك تنفخ في رماد، وتضرب في حديد بارد" لمن يجهد نفسه في عمل لا فائدة فيه، فقد كشفت هذه الاستعارة المركبة عن حال ذاك الذي يجهد نفسه في عمل لا فائدة فيه.

ومعلوم أن الاستعارة قائمة على تناسي التشبيه وادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به، ولذا فهي تحسن عندما لا يذكر في الكلام سوى المشبه به نحو: رأيت قمرًا يتحدث، أما إذا ذكر في الكلام ما يشم منه رائحة التشبيه، بأن يذكر المشبه بوجه ينبئ عن الاستعارة، لا عن التشبيه، فإن ذلك يقلل من حسنها كما في قول الشاعر:

---

(١) سورة مريم آية: ٤.

لا تعجبُوا من بلىَ غِلاَلَتهِ قد زرَّ أزْرَارَهُ على القمر

فقد استعير القمر للممدوح، وذكر في البيت الضمير العائد على المشبه وهو الضمير المضاف إليه في "غلالته" و "أزراره" ولكن ذكره -كما ترى- بوجه لا ينبئ عن التشبيه بل ينبئ بالاستعارة فقلل ذلك من حسنها. أما إذا ذكر بوجه ينبئ بالتشبه كقولنا: محمد أسد، ورأيت رجلاً مثل الأسد، وهذا رجل أسد، فإن هذا يذهب بالاستعارة على أرجح الأقوال ويعود بالكلام إلى التشبيه.

هذا في الاستعارة التصريحية، أما في المكنية، فمن الواضح أنه يصرح فيها بلفظ المشبه ويسند إليه لازم المشبه به.

ومما يقلل من حسن الاستعارة أيضًا غموض وجه الشبه الجامع بين المستعار له والمستعار منه؛ لأن الاستعارة مبنية على تناسي التشبيه، فإذا أضيف إلى هذا التناسي غموض وجه الشبه، تضاعف الخفاء، وصارت الاستعارة ألغازًا وتعمية، أما التشبيه فيحسن فيه خفاء وجه الشبه -كما مر بك- لإمكان تقريبه بذكر المشبه، أو إزالة الخفاء بذكر الوجه والتصريح به...

فيجوز أن نقول: هذا الرجل كالأسد في نتن الفم لزوال الخفاء بذكر وجه الشبه، ولا يجوز أن نقول: رأيت أسدًا، ونريد رجلاً أبخر نتن الفم، ونقول: "الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة" ولا نقول: رأيت إبلاً مائة لا أجد فيها راحلة، ونريد رجالاً كثيرين ليس بينهم إلا رجل واحد متميز بصفة الكمال، وذلك لخفاء وجه الشبه في الاستعارة، وزوال هذا الخفاء بذكر المشبه في التشبيه.

وإذا قوي وجه الشبه ووضح وضوحًا تامًا بين المشبه والمشبه به كتشبيه العلم بالنور في البياض والإشراق، وتشبيه الشبهة والبدعة بالظلام في السواد، فعندئذ تحسن الاستعارة ولا يحسن التشبيه لأنه يصبح كتشبيه الشيء بنفسه... فيحسن أن نقول: "امتلأ قلبي نورًا" ونريد: علمًا ومعرفة، و "صار فلان في قلبه ظلمة" ونريد: شبهة وشكًا ولا يحسن أن نقول: "امتلأ قلبي علمًا وإيمانًا كالنور" وصار في قلب فلان شك وشبهة كالظلمة.

***

الاستعارة بين النقاد

مما تقدم يتضح لنا أن حسن الاستعارة يتوقف على عدة أمور أهمها: حسن التشبيه الذي بنيت عليه، وقرب وجه الشبه ووضوحه، وألا يذكر في الكلام ما يشم منه رائحة التشبيه، فإن فقد أمر من هذه الأمور قلل فقدانه من حسن الاستعارة وروعتها...

وقد حاول النقاد وضع ضوابط للاستعارة بحيث يعد الخروج عن تلك الضوابط عيبًا وقبحًا، وأهم تلك الضوابط:

١- أن تكون هناك مناسبة في العرف والعادة بين المستعار له والمستعار منه.

٢- أن يكون هناك وجه جامع بين المستعار له والمستعار منه، وكلما قرب هذا الوجه حسنت الاستعارة، وكلما بعد وغمض قلل ذلك من حسنها، فإن اشتد غموض الوجه وبعد جدًّا عُدَّ ذلك عيبًا.

٣- مدى قبول النفس والأذواق للاستعارة أو نفورها منها...

وتبعًا لاختلاف العادات والأعراف، واختلاف الأذواق التي تقبل الاستعارة أو ترفضها؛ فقد اختلف العلماء والنقاد في قبولها وردها، وفي استحسانها وعيبها، فما لا يرتضيه أحدهم يقبله الآخر، وما يعيبه هذا يستحسنه ذاك، وإليك نماذج متعددة يتضح لك من خلالها ما ذكرنا...

يقول المتنبي متغزلاً:

مَسَرَّةٌ في قلوبِ الطِّيبِ مَفْرَقُها وحَسْرَةٌ في قلوبِ الْبِيضِ والْيَلَبِ (١)

ويقول مادحًا:

تجَمَّعَتْ في فُؤادِهِ هِمَمٌ مِلءُ فُؤادِ الزَّمانِ إحداها

عاب النقاد عليه جعله للطيب والبيض واليلب قلوبًا، وللزمان فؤادًا،

---

(١) البيض: السيوف، واليلب: الدروع تتخذ من الجلود.

وقالوا: هذه استعارة لم تجر على وجه شبه قريب ولا بعيد... وإنما تصح الاستعارة وتحسن إذا جرت على وجه من المناسبة، وطرف من الشبه والمقاربة.

وقد قبل صاحب الوساطة هذه الاستعارات، وأجاب بأن لما قاله المتنبي نظيرًا في أشعارهم، كقول أبي رميلة:

هُمْ ساعدُ الدَّهْرِ الَّذِي يُتَّقَى بهِ   وما خيرُ كَفٍّ لا تنوءُ بساعِدِ

وقول ابن أحمر:

وَلِهَتْ عليه كلُّ مُعْصِفَةٍ   هوجاءَ ليس لِلُبِّها زَبْرُ(١)

وقول الكميت:

ولما رأيتُ الدَّهرَ يَقْلِبُ ظَهْرَهُ   على بَطْنِهِ فعْلَ الْمُمَعَّكِ بالرَّمْلِ(٢)

فهؤلاء قد جعلوا للريح لُبًّا، وللدهر ساعدًا وظهرًا وبطنًا، ولم ينكر عليهم، فكيف ينكر على المتنبي ما صنع؟

ويمكن أن نضيف إلى ما ذكره القاضي الجرجاني من الاستشهاد بتلك الأبيات، وقياسه عليها قبوله الاستعارة في بيتي المتنبي، يمكن أن نضيف إليه أن الاستعارة في الأبيات المذكورة من قبيل الاستعارة المكنية التي تبنى -غالبًا- على التشخيص والتجسيد ونقل عناصر الطبيعة والمعنويات من عالمها إلى العالم الحي المتحرك بغض النظر عن التدقيق ومحاولة التماس وجه شبه، أو إدناء وتقريب المستعار له من المستعار منه...

ومن ذلك قول امرئ القيس عن الليل:

فَقُلْتُ لَهُ لما تمطَّى بصُلْبِهِ   وأردَفَ أعجازًا وناءَ بكَلْكَلِ

فقد استحسنه الآمدي وجعله من أجود الاستعارات، لأن امرأ القيس

---

(١) الزبر: أصله طي البئر وإذا طويت تماسكت واستحكمت وقد استعير هنا للريح والمراد: انحرافها وهبوبها وأنها لا تستقيم على مهب واحد فهي كالناقة الهوجاء وهي التي كأن بها هوجا من سرعتها.

(٢) الممعك: المتمرغ في الرمل أو التراب.

وصف أحوال الليل الطويل، فذكر امتداد وسطه وتثاقل صدره، وترادف أعجازه، فلما جعل له وسطا ممتدًا وصدرًا ثقيلاً وأعجازًا مرادفة لوسطه، استعار له اسم "الصلب" وجعله متمطيًا من أجل امتداده، واسم "الكلكل" وجعله نائيا لتثاقله، واسم "العجز" من أجل نهوضه...

وما استحسنه الآمدي جعله ابن سنان وسطًا، فذكر أن بيت امرئ القيس ليس من جيد الاستعارة ولا رديئها، بل هو من الوسط بينهما، لأنها استعارات مبني بعضها على بعض، وإنما تحمد الاستعارة وتستجاد إذا كانت غنية بنفسها غير مفتقرة إلى غيرها...

وقد رد ضياء الدين بن الأثير رأى ابن سنان ورفض تعليله ونقضه، فذكر أن الاستعارة المبنية على استعارة أخرى من أبعد الاستعارات وأجودها طالما وجدت المناسبة المطلوبة وقد ورد ذلك في النظم الكريم، انظر في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾(١)، فهذه ثلاثة مجازات ينبني بعضها على بعض، الأول: التعبير بالقرية عن الأهل مجازًا مرسلا علاقته المحلية، والثاني: استعارة الذوق للإصابة، والثالث: استعارة اللباس لما أحاط بهم وعلا وجوههم من صفرة وهزال، وقد وجد بينها التناسب التام كما لا يخفى.

ويعيب أبو هلال العسكري ويستقبح الاستعارة في قول الحطيئة:

سَقَوْا جارَكَ العَيْمَانَ لمَّا جَفَوْتَهُ وَقَلَّص عن بَرْدِ الشَّرَابِ مَشَافِرُهُ(٢)

وفي قول مزرد:

فمَا رقَدَ الوِلْدانُ حتَّى رَأَيْتُهُ على البكر يَمْريه بساقٍ وحَافِرِ(٣)

ولعل سبب عيبه واستقباحه يرجع إلى إطلاق لفظ "المشفر" الخاص بالبعير

---

(١) سورة النحل آية: ١١٢.

(٢) العيمان: شديد العطش إلى اللبن.

(٣) البكر: الفتى من الإبل، ويمريه: يستخرج ما عنده من الجري.

على شفة الإنسان، ولفظ "الحافر"، الخاص بذوات الأربع على قدم الإنسان، دون أن يكون لهذا الإطلاق غرض أو فائدة.

ولكن عبد القاهر يخالف العسكري في ذلك، على نحو ما مر بنا في المجاز المرسل الذي علاقته "الإطلاق والتقييد"؛ حيث يرى أنه خال من الفائدة، إذ يطلق المقيد عن قيده ويقيد بقيد آخر كاستعمال المرسن الموضوع للدلالة على "أنف البعير" في الدلالة على أنف الإنسان في قول رؤبة.

ومُقْلةً وحاجِبًا مُزَجَّجًا وفاحِمًا ومَرْسِنًا مُسَرَّجًا

ولكنه قد يتحول إلى مجاز مفيد وعندئذ يخرج من دائرة المجاز المرسل إلى دائرة الاستعارة كما في بيتي الحطيئة ومزرد، فالحطيئة أراد أن يصف نفسه بسوء الحال وقبح المآل الذي آل عليه بمعاشرة الزبرقان بن بدر، فاستعار من أجل هذا مشفري البعير لشفتيه تهكما بالزبرقان الذي أضاع ضيفه، وإذا رجعنا إلى شعر الحطيئة وجدنا أن ذمه وتقبيحه لنفسه ليس بمستبعد عليه... وكذلك لا يستبعد عبد القاهر أن يكون مزرد أراد باستعارة الحافر للقدم أن يصف ضيفه بسوء الحال في مسيره وتقاذف نواحي الأرض به، وأن يبالغ في شدة حرصه على تحريك بكره واستخراج كل طاقته ومجهوده...

ونظير ذلك قول الفرزدق في الهجاء:

فلو كُنْتَ ضَبِّيًّا عَرَفْتَ قَرَابَتي ولكنَّ زنجيٌّ غليظُ الْمَشَافِرِ

وقول الآخر:

سَأَمْنَعُهَا أو سوفَ أجْعَلُ أمْرَهَا إلى مَلِكٍ أظلافُهُ لم تَشَقَّقِ

وقول الله عز وجل: ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾(١)، فقد استعيرت المشافر للشفاء، والأظلاف للأظافر والخرطوم للأنف بهدف الذم والتقبيح على نحو ما رأينا في المجاز المرسل...

---

(١) سورة القلم آية: ١٦.

وعاب كثير من النقاد قول أبي تمام:

لا تَسْقِنِي ماءَ الْمَلاَمِ فإنَّني ... صبٌّ قد اسْتَعْذَبْتُ ماءَ بُكَائِي

وقوله:

لمْ تُسقَ بعدَ الهوَى ماءً أقلَّ قذًى ... من ماء قافِيةٍ يَسْقيكَهُ فَهِمُ

حيث جعل لكل من "الملام" و "القافية" ماء على سبيل الاستعارة المكنية، وهو مما لا يستساغ، لأن للاستعارة حدا تصلح فيه فإذا جاوزته فسدت وقبحت، وليست الاستعارة في البيتين كقولهم: هذا ثوب له ماء... ولفظ له ماء... وفلان حلو الكلام... وعذب المنطق... وحلو المنظر، لأنهم لم يجعلوا الماء مشروبًا بالاستعارة كما في البيتين ولم يريدوا حلاوته على اللسان ولا عذوبته في الفم، بل يريدون عذبا في النفوس وحلوا في القلوب والأعين.

ويرى الآمدي أن الاستعارة في البيتين مقبولة ومستساغة، ويوضح ذلك بأن الشاعر قصد إلى المشاكلة بين الماءين: "ماء أقل قذى وماء قافية" و "ماء الملام وماء البكاء" على نحو قوله عز وجل: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[١]، فقد أطلقت السيئة الثانية على المجازاة والعقاب من باب المشاكلة، كما أنه يجوز أن يسقى القول وأن يشرب الكلام على سبيل الاستعارة فلا يكون ذلك شربًا بالفم، بل بالنفس والقلب وعندئذ نكون قد استعرنا السقي والشرب لقبول النفس واستساغتها أو عدم استساغتها على حد قولهم: أغلظت لفلان القول وجرعته منه كأسًا مرة، وسقيته منه أمر من العلقم.

ومن الاستعارات التي اتفق كثير من النقاد على عيبها ورفضها، قول أبي تمام:

فضَرَبْتُ الشِّتَاءَ في أَخْدَعَيْهِ ... ضَرْبةً غادرَتْهُ عَوْدًا رَكوبًا[٢]

وقوله:

يا دهرُ قَوِّمْ من أَخْدَعَيْكَ فقد ... أَضْجَجْتَ هذا الأَنَامَ من خُرُقِكَ

---

(١) سورة الشورى آية: ٤٠.

(٢) عوذا: الجمل المسن... والأخدعان: غرقان في العنق.

فقد جعل لكل من "الشتاء" و"الدهر" أخدعين وهو مما لا يستساغ ولا تقبله الأذواق...

وكذا جعله للمعروف كبدا في قوله:

إلى ملكٍ في أيكةِ المجد لم يزلْ   على كَبِدِ الْمَعْرُوفِ من نَيْلِهِ بَرْدُ

وجعله للعرض كعبًا وللمال خدًا في قوله:

بلونَاكَ أما كعبُ عِرْضِكَ في العُلاَ   فَعَالٍ ولكنَّ خَدَّ مالِكَ أَسْفَلُ

وجعل ذي الرمة للدجى يافوخًا في قوله:

تَيَمَّمْنَ يَافُوخَ الدُّجَى فَصَدَعْنَهُ   وجَوْزَ الفلاَ صَدْعَ السُّيُوفِ القواطِعِ

وجعل العباس بن الأحنف للدمع أعجازا وللدم أعناقا في قوله:

ولي جُفُونٌ جفاهَا النومُ فاتَّصَلَتْ   أعجازُ دَمْعٍ بأعناقِ الدَّمِ السَّرِبِ

وجعل الرضي للزمان عرنينا في قوله:

مَلِكٌ سمَا حتَّى تحلَّق في العلا   وأذلَّ عِرْنِينَ الزَّمانِ السامي[(١)]

وجعل تأبط شرًا للموت أنفًا ومنخرًا رثيما أي: داميا في قوله:

نحُزُّ رقابَهم حتى صَدَعْنَا   وأنفُ الموتِ مِنْخَرُهُ رَثِيمُ

وجعل أبي نواس للمال رجلا وصوتًا قد بُحَّ في قوله:

مَا لِرِجْلِ المالِ أَمْسَتْ   تَشْتَكِي مِنْكَ الكَلاَلاَ

وقوله:

بُحَّ صَوْتُ المالِ مِمَّا   مِنكَ يشكُو وَيَصِيحُ

ومراده من ذلك أن المال يتظلم من إهانته إياه بالإضاعة وكثرة الإنفاق، فالمعنى حسن والتعبير عنه قبيح... والجيد في هذا المعنى قول مسلم بن الوليد:

تظلَّمَ الْمَالُ والأَعْدَاءُ مِنْ يَدِهِ   لا زَالَ للْمَالِ والأَعْدَاءِ ظَلاَّمَا

---

(١) العرنين: الأنف أو ما صلب منه.

ومن الملاحظ في هذه الشواهد، أن الاستعارة فيها من قبيل الاستعارة المكنية، وأن ما عابه النقاد واستقبحوه هو الاستعارة التخيلية أي: إثبات لازم المشبه به للمشبه، وكأنهم رأوا في هذا الإثبات خروجًا عن المألوف والمعهود الذي اعتاده العرب، فقد اعتادوا جعل الدهر إنسانًا، ووصفوه بالوفاء والغدر، وجعلوا له ساعدًا، وألفوا جعل المنية سبعًا، وتخيلوا لها أظفارًا... ولكنهم لم يجعلوا للدهر أخدعا ولم يتكلموا عن استه، ولم يجعلوا للمعروف كبدًا ولا للدجى يافوخًا، ولا للعرض كعبا، ولا للمال رجلا... وقد أدرك النقاد ذلك فأرادوا ألا يشتط الأدباء في تصوراتهم، وتخييلهم ويتجاوزوا حدود التصورات المألوفة والتخييلات المعروفة لدى العرب.

ولا يعني ذلك أن ما عابه النقاد مقصور على الاستعارات المكنية، بل تجاوزها إلى الاستعارات التصريحية إذا ما جاءت مجافية للأذواق السليمة والطباع القويمة ونفرت عنها النفوس الزكية.

ومن ذلك قول زيد بن مفرغ يهجو عبيد الله بن زياد:

وَيَوْمَ فَتَحْتَ سَيْفَكَ مِنْ بَعِيدٍ أَضَعْتَ وكلُّ أَمْرِكَ للضَّيَاع

فقد عاب النقاد استعارة "الفتح" لسل السيف.

ومنه ما ورد أن المهلب قال لرجل من الأزد: متى أنت؟ قال: "أكلتُ من حياةِ رسول الله ﷺ سنتين "فقال له" "أطْعَمَك اللهُ لَحْمَكَ" فقد عاب عليه استعارة الأكل للإدراك، لأنها استعارة تنفر منها النفوس ولا تقبلها الأذواق.

☆☆☆

الفصل الثالث
الكناية

الكناية في اللغة أن تتكلم بالشيء وتريد غيره، يقال: كنيت بكذا عن كذا إذا تركت التصريح به، فبابه: كنى يكنى كرمي يرمى، وقد ورد: كنا يكنو كدعا يدعو... أنشد الجوهري:

وإنّي لأكنُو عن قُدُورٍ بغيرِهَا   وأُعْرِبُ أحيانًا بهَا وأصارِحُ[(١)]

أما المصدر فهو "كناية"، ولم يسمع كناوة" ولذا فإن كنيت أفصح من "كنوت"

والكناية في اصطلاح علماء البيان: لفظ أطلق وأريد به لازم معناه، مع جواز إرادة المعنى الأصلي...

فالمتكلم يترك اللفظ الموضوع للمعنى الذي يريد التحدث عنه ويلجأ إلى لفظ آخر موضوع لمعنى آخر تابع للمعنى الذي يريده فيعبر به عنه.

يقول عبد القاهر: "الكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه"[(٢)]، وليس هنالك ما يمنع من إرادة المعنى الأصلي للفظ مع المعنى الكنائي المراد...

مثال ذلك قولهم: "هو طويل النجاد"[(٣)] يريدون: طويل القامة، و"كثير رماد القدر" يريدون: كثير القرى "وهي نئوم الضحى"، يريدون أنها مخدومة مترفة، وقولنا: "قابلت فلانًا فلوى عنقه"، أي أعرض، "وواجهته بالحق فاحمر وجه، أي: أصابه الخجل... ففي هذه الأمثلة أطلق لفظ الملزوم، وأريد به لازمه، فطول النجاد يستلزم طول القامة ويدل عليها، وكثرة الرماد، تستلزم كثرة الطهي وكثرة الطهي

(١) قدور: اسم امرأة.

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٠٥.

(٣) النجاد: حمالة السيف.

تستلزم كثرة القرى وتدل على الكرم، وكثرة النوم في الضحى تستلزم الترف والرفاهية، ولي العنق يستلزم الإعراض ويدل عليه، وحمرة الوجه عند المواجهة تستلزم الخجل، وإرادة اللوازم في هذه الأمثلة لا يمتنع معها إرادة الملزوم وحصوله، فطول القامة لا يمتنع معه طول النجاد وإرادة الكرم والضيافة، لا يمتنع معهما كثرة الرماد وكون المرأة مترفة مخدومة لا يمتنع معه نومها حتى الضحى، ولي العنق لا تمتنع إرادته مع الإعراض، وكذا حمرة الوجه يجوز إرادتها مع إرادة الخجل...

علاقة الكناية

واستخدام اللفظ في غير معناه الذي وضع له لا يتم إلا عند وجود علاقة تربط بين المعنيين: المعنى الكنائي الذي استخدم فيه اللفظ، والمعنى الأصلي الذي كني به، كما هو الحال في المجاز، والعلاقة هنا في الكناية هي علاقة الردف والتبعية، أو بمعنى آخر علاقة التلازم بين المعنى الذي يدل عليه ظاهر اللفظ والمعنى المراد منه.

ففي قول الله عز وجل ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾[١]، عبر عن الشعور بالتحسر والندم على ما فات، بالعض على اليدين، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾[٢]، عبر عن نفس المعنى وهو "الندم والتحسر" بتقليب الإنسان كفيه، والعلاقة بين "الندم والتحسر"، و"عض اليدين" أو "تقليب الكفين" هي التلازم الذي يرجع إلى ما عرف عن الإنسان وطباعه، فقد عرف عنه أنه إذا ندم عض على يديه، أو قلب كفيه متحسرًا على ما فات، كما أن من طباعه، حمرة الوجه عند الخجل وتقطيبه عند الغضب.

---

(١) سورة الفرقان آية: ٢٧.

(٢) سورة الكهف آية: ٤٢.

وفي قول الشاعر:

يُـذْكُونَ نـارَ الْقِـرَى في كـلِّ شـاهقةٍ   يُلْقَى بهَا الـمنْدَلُ الـهِنْدِيُّ مَحْطُومًا[١]

كنى عن الكرم بإذكاء النيران في الأماكن العالية لإرشاد الضيوف، والعلاقة بين المعنيين التلازم الذي يرجع إلى ما عرف عن العرب، فمن عادتهم، إيقاد النيران في الأماكن المرتفعة يرشدون بها القادم إليهم...

وفي قول المتنبي يمدح سيف الدولة ويشيد بشجاعته:

فَمَسَّاهُم وبَسْطُهُم حريرٌ   وصبَّحَهُم وبَسْطُهم تُرابُ

وَمَنْ في كفِّهِ منهمْ قَنَاةٌ   كمَنْ في كفِّهِ منهمْ خِضَابُ

كنى عن ثراء العدو وسيادته قبل أن يلقاه سيف الدولة، بأنه يفترش الحرير "وبسطهم حرير"، وكنى عن إذلاله وخضوعه، بقوله: "وبسطهم تراب" كما كنى عن الرجل في البيت الثاني بقوله: "ومن في كفه منهم قناة"، وعن المرأة بقوله: "من في كفه منهم خضاب"، والعلاقة بين المكنى به والمكنى عنه، التلازم الذي يرجع في البيت الأول إلى العرف والعادات والتقاليد، فمن عادة الثرى أن يفترش الحرير ومن عادة الذليل أن يفترش التراب... ويرجع في البيت الثاني بالإضافة إلى العرف والعادات إلى خصوصيات الأفعال، فحمل السلاح يختص بالرجل، وخضاب الكف يختص بالمرأة...

وبهذا يتضح لنا أن التلازم القائم بين المعنيين: المكنى به والمكنى عنه، يرجع في الغالب إلى العرف الذي تعارف عليه القوم، وإلى طباع الإنسان والحيوان وطبائع الأشياء الأخرى، وإلى خصائص الأفعال، ثم إلى عادات العرب وتقاليدهم التي ألفوها.

ما الفرق بين الكناية والمجاز؟

ويختلف أسلوب المجاز عن أسلوب الكناية في أن أسلوب المجاز يشتمل على قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلي للفظ، فقولنا: "عجبت من الجيفة كيف يطغى"

---

(١) المندل الهندي: عود طيب الرائحة يستجلب من الهند، والمحطوم: المكسر.

مجاز مرسل علاقته: اعتبار ما سيئول إليه الإنسان بعد موته حيث أطلق لفظ "الجيفة" وأريد بها الإنسان الحي، والقرينة أن الجيفة يستحيل أن تطغى، وتلك القرينة تمنع إرادة المعنى الأصلي للجيفة.

وكذلك الاستعارة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾[١]،... وفي قوله عز وجل: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾[٢]، القرينة فيهما تمنع إرادة المعنى الأصلي "للطغيان" وتمنع إرادة المعنى الحقيقي للذل...

أما القرينة في أسلوب الكناية فإنها لا تمنع إرادة المعنى الأصلي للفظ ففي الشواهد المتقدمة لا تمنع القرينة من أن يعض الظالم المتندم على يديه يوم القيامة وأن يقلب صاحب الجنة التي صارت خاوية كفيه حال ندمه... وأن تجتمع الحمرة والخجل، وكثرة الرماد والكرم... إلا إذا عرض عارض خارجي يمنع إرادة المعنى الأصلي في الكناية فعندئذ يمتنع إرادته بسبب هذا العارض.

كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[٣]، وذلك على القول بأن الكاف أصلية وأن الآية تفيد نفي المثلية عن الله عز وجل بطريقة الكناية، إذ نفى مثل المثل يستلزم نفي المثل، ويمتنع في الآية إرادة المعنى الأصلي، وهذا الامتناع ليس بسبب القرينة، بل بسبب عارض خارجي وهو إفادة ثبوت المثل لله عز وجل وذلك محال... ويجوز جعل "الكاف" صلة "زائدة" فلا يكون في الآية كناية

عندئذ.

أقسام الكناية

وتنقسم الكناية باعتبار المعنى المكنى عنه وهو المعنى المراد إلى ثلاثة أقسام:

١-**كناية عن موصوف**: وذلك بأن يذكر في الكلام صفة أو عدة صفات لها

---

(١) سورة الحاقة الآية: ١١.

(٢) سورة الإسراء الآية: ٢٤.

(٣) سورة الشورى الآية: ١١.

اختصاص ظاهر بموصوف معين، ويقصد بذكرها الدلالة على هذا الموصوف كما في قوله عز وجل: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[١]؛ حيث كنى عن المرأة بصفتين تختصان بها اختصاصًا بينا وهما: التنشئة في الحلية، وعدم الإبانة في الخصام.

وكقول المتنبي في الكناية عن المرأة وعن الرجل:

ومَــــنْ في كفِّـــهِ مـــنهمْ قنـــاةٌ   كمَــــنْ في كفِّـــهِ مـــنهمْ خِـــضَابُ

فحمل القناة من خصائص الرجل وخضاب الكف من خصائص المرأة.

وقول عمرو بن معد يكرب:

الـــضَّاربِينَ بِكُــلِّ أَبْــيَضَ مخِـْـذَمٍ   والطَّـــاعِنِينَ مجـــامِعَ الأَضْـــغَانِ[٢]

كنى بمجامع الأضغان عن القلب، ويكنى عنه أيضًا بمواطن الأسرار، وبمكان اللب، ومكان الحقد، ومكان الرعب...

انظر إلى قول أبي نواس يصف الخمر:

فَلَـــمَّا شَرِبْنَـــا ودبَّ دبِيبُهَـــا   إلى مَـوْطِنِ الأسرارِ قلــتُ لَــهَا قِفِــي

وقول البحتري في وصف طعنة أصاب بها ذئبًا.

فَأَتْبَعْتُهَـــا أُخْـــرَى فأَضْـــلَلْتُ نَـــصْلَهَا   بحيثُ يكونُ اللُّبُّ والرُّعْبُ والـحِقْدُ[٣]

ومن ذلك قولهم في الكناية عن الخمر "أم المصائب" لشهرة الخمر عند العقلاء بجلب المصائب وتوليد الكوارث... وفي الكناية عنْ النساء "ذوات الخلاخل" وفي الكناية عن الدينار "الأصفر الرنان" وفي الكناية عن الصدر: "موطن الحلم" وعن اللغة العربية بأنها "لغة الضاد".

---

(١) سورة الزخرف آية: ١٨.

(٢) المخذم: القاطع من السيف... والأضغان: جمع ضغن وهو الحقد.

(٣) أضللت: غيبت... والنصل: حديدة الرمح والسهم.

يقول شوقي:

إنَّ الَّــذِي مَـــلأَ اللُّغَـــاتِ محَاسِـــنًا جعـــلَ الْـــجَمَالَ وسِرَّهُ في الـــضَّاد

وقولهم في الكناية عن السفينة: "ابنة اليم" لملازمتها ماء البحر... كما يكنى عنها بذات الألواح والدسر، قال عز وجل: ﴿وَحَمَلْنَهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾[1]، كنى عن السفينة بذات الألواح والدسر... ونلاحظ في الشواهد والأمثلة المذكورة أن الصفة أو الصفات التي صرح بها لها مزيد اختصاص بالموصوف الذي كنى بها عنه ولازمة لـمعناه، وواضحة الدلالة عليه ولذا ساغ الكناية بها عنه.

٢-**كناية عن صفة**: وذلك بأن يذكر في الكلام صفة أو عدة صفات بينها وبين صفة أخرى تلازم وارتباط، بحيث ينتقل الذهن بإدراك الصفة أو الصفات المذكورة إلى الصفة المكنى عنها المرادة... كما في قولهم: "فلان طاهر الذيل، ونقي الثوب"، كناية عن العفاف والطهر، فطهارة الذيل ونقاء الثوب، صفتان يلازمهما عادة صفة العفاف والطهر... وقولهم: "فلان شب عن الطوق"، كناية عن اجتيازه مرحلة الطفولة إلى مرحلة اليفاعة والشباب، فالشب عن الطوق صفة تلازمها عادة صفة اجتياز مرحلة الطفولة. وكذا قولهم: "ضرب فلان كفا بكف" كناية عن الندم والتحسر و "أصبح فلان يمشي على عكاز" كناية عن ضعفه وكبر سنه و "فلان كثير الرماد" و "جبان الكلب... ومهزول الفصيل" كناية عن الكرم والجود و "فلان طويل النجاد" كناية عن طول القامة و "حدثني بلغة المدفع" كناية عن القوة "ونظر إلى الدنيا بمنظار أسود" كناية عن التشاؤم، و "فلان ناعم الأظفار" كناية عن قلة الخبرة والتجربة...

ومن شواهدها في النظم الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾[2]، كنى عن صفتي التكبر والفخر بتصعير الخد والمرح في الأرض لما بين الصفتين المذكورتين والصفتين المكنى عنهما من تلازم وارتباط...

---

(١) سورة القمر الآية: ١٣.

(٢) سورة لقمان آية: ١٨.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾(١)، كنى عن ندمهم على ما فعلوه من عبادة العجل بالسقوط في الأيدي وهو عض الأصابع، لأن هذا من شأن النادم عند شعوره بخطئه، وتلاحظ مدى دقة النظم الكريم في التعبير عن شدة الندم، فالرءوس هي التي سقطت على الأيدي لتعض الأصابع، والشأن في ذلك أن الأصابع هي التي ترتفع إلى الأفواه... وفي هذا إنباء بشدة شعورهم بالندم فقد خارت قواهم ومالت رءوسهم وهوت... ونظير الآية في التعبير عن الندم قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾(٢)، وقوله عز وجل: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾(٣).

واقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٤)، تجد في الآية كنايتين، الأولى: كناية عن موصوف في قوله (ذات الشوكة) فقد كنى به عن الحرب والنفير، والثانية: كناية عن صفة في قوله (ويقطع دابر الكافرين) فقد كنى به عن صفة الاستئصال والإبادة.

ومن شواهد الكناية عن صفة في أشعارهم قول الحماسي في الكناية عن ضخامة الأرداف وعظم الثدي وضمور الخصر والبطن:

أَبَتِ الرَّوَادِفُ والثُّدِيُّ لِقُمْصِهَا ... مَسَّ البُطُونِ وأَنْ تمَسَّ ظُهُورَا

وقول المتنبي في الكناية عن صفتي "العزة والسيادة" و "الفقر والحاجة":

فمَسَّاهُم وَبُسْطُهُمْ حَرِيرٌ ... وَصَبَّحَهُمْ وَبُسْطُهُمُ تُرَابُ

وقول الآخر في الكناية عن صفة الكرم:

ومَا يكُ فيَّ من عَيْبٍ فَإِنِّي ... جَبَانُ الْكَلْبِ مَهْزُولُ الفَصِيلِ(٥)

---

(١) سورة الأعراف آية ١٤٩.

(٢) سورة الفرقان آية: ٢٧.

(٣) سورة الكهف آية: ٤٢.

(٤) سورة الأنفال آية: ٧.

(٥) الفصيل: ولد الناقة، وهزاله بحرمانه من لبنها لنحرها للضيوف أو إطعامهم لبنها وإيثارهم به.

وقول عمر بن أبي ربيعة في الكناية عن طول الجيد:

بعيـدةُ مَهْـوَى الْقُـرْطِ إِمَّـا لنوفـلٍ   أَبُوهَـا وإمـا عبـدِ شـمسٍ وهاشـمِ(١)

وقول النابغة الذبياني في مدح الغساسنة:

رِقَـاقُ النِّعَـالِ طَيِّـبٌ حُجُـزَاتُهُم   يُحَيَّـوْنَ بالرَّيْحَـانِ يـومَ السَّبَاسِبِ(٢)

ففي البيت ثلاث كنايات، **الأولى**: الكناية عن الترف والسيادة برقة النعال، فهم لا يمشون حتى يخصفوا نعالهم ويجعلوها سميكة، وإنما يركبون الخيل، ويلزم من ذلك الترف والسيادة، **والثانية**: الكناية بطيب حجزاتهم عن صفة العفة والطهارة، **والثالثة**: الكناية عن رقة أمزجتهم وحسن أذواقهم ومحافظتهم على التقاليد المرعية، بقوله: "يحيون بالريحان يوم السباسب".

وقول طرفة بن العبد في الكناية بصغر الرأس عن الذكاء:

أَنَـا الرَّجُـلُ الضَّرْبُ الـذي تَعْرِفُونَـهُ   خَشَاشٌ كـرأسِ الْحَيَّةِ الْمُتَوَقِّدِ(٣)

فهم يكنون بصغر الرأس عن الذكاء كما يكنون بعظمها وضخامتها عن الغباء والبلادة، وبعرض القفا عن صفة البله:

٣-**كناية عن نسبه**: وذلك بأن يريد المتكلم إثبات صفة لموصوف معين أو نفيها عنه؛ فيترك إثبات هذه الصفة لموصوفها، ويثبتها لشيء آخر شديد الصلة وثيق الارتباط به، فيكون ثبوتها لما يتصل به دليلاً على ثبوتها له.

كقولهم في مقام المدح: "المجد بين ثوبيه والكرم بين برديه" أرادوا نسبة المجد والكرم له، فعدلوا عن التصريح بذلك إلى جعل المجد بين ثوبيه والكرم بين برديه، ليفهم المخاطب إثباتها للممدوح، إذ ليس بين البردين أو الثوبين سواه، فالتعبير كناية عن نسبة المجد والكرم إلى الممدوح.

---

(١) القرط: ما تتزين به المرأة بلبسه في الأذن ومهواه: المسافة من شحمة الأذن إلى الكتف.

(٢) حجزة الإزار: موضع شده من الوسط، والريحان: الزهر الطيب الرائحة، والسباسب: يوم عيد عند النصارى يسمى يوم الشعانين وكان الغساسنة يدينون بالنصرانية.

(٣) الضرب: الخفيف اللحم، والخشاش: الصغير الرأس، والمتوقد: سريع الحركة.

ومن ذلك قول زياد الأعجم:

إن السَّمَاحَةَ والْمُرُوءَةَ والنَّدَى   في قُبَّةٍ ضُرِبَتْ على ابْنِ الْحَشْرَجِ (١)

كنى عن نسبة هذه الصفات إلى ابن الحشرج بجعلها في قبة مضروبة عليه، لأنه إذا أثبت الشيء في مكان الرجل وحيزه فقد أثبت له، وذلك لاستحالة قيام الوصف بنفسه ووجوب قيامه بموصوف صالح للاتصاف به.

وقول أبي نواس:

فمَا جازَهُ جُودٌ ولا حلَّ دُونَهُ   ولكِنْ يسيرُ الجودُ حيثُ يَسِيرُ

كنى عن نسبة الجود إلى الممدوح بإثباته للمكان الذي يوجد به ويحل فيه، فلا يتجاوزه ولا يحل دونه... ويلاحظ ما في البيت من خيال بديع؛ حيث صور لنا الجود في صورة حي متحرك يسير لسير الممدوح، ويسكن لسكونه.

وقول الآخر يمدح ابن العميد:

والمجدُ يدعُو أنْ يَدُومَ لِجيدِهِ   عِقْدُ مَسَاعِي ابنِ الْعَمِيدِ نِظَامُه (٢)

صور المجد غادة حسناء، قد تحلى جيدها بعقد، حباته مساعي ابن العميد وهو يدعو الله أن يدوم هذا العقد ويبقى في جيده... فكنى عن نسبة المجد وثبوته لابن العميد: بكون مساعيه خيوط قد انتظم بها عِقْدَ المجد، وكنى عن الدعاء بدوام بقاء ابن العميد، بدعاء المجد أن يدوم العقد ويبقى في جيده...

ومنها قولهم: "العرب لا تخفر الذمم" يريدون نفي ذلك عن العربي، لأنه إذا نفى عن العرب نقض العهد، فقد نفى عنه إذ هو واحد منهم، وقولهم: "أيفعت لِدَاتُهُ وبلغت أترابه" كناية عن نسبة اليفاعة والبلوغ إليه بنسبتها إلى أقرانه ونظرائه.

وقولهم: "مثلك لا يبخل"، كنوا عن نفي البخل عنه وتأكيد هذا النفي بنفيه

(١) القبة: ما كانت فوق الخيمة في العظم والاتساع وهي خاصة بالرؤساء والسادة. وابن الحشرج: هو عبد الله بن الحشرج أمير نيسابور.

(٢) المساعي: المكارم مفردها: مسعاة، ونظام العقد: ما به يكون منتظمًا، وهو سلكه الذي يسلك فيه.

عن نظيره المشارك له في أخص صفاته، لأن نفي البخل عن هذا المماثل يستلزم تأكيد نفيه عن المخاطب...

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1]، على أن الكاف أصلية، فقد كنى عن نفي وجود المثل لله عز وجل بنفي وجود مثل المثل، لأن نفي مثل المثل يستلزم نفي المثل.

ومنها قول الشنفري:

يَبِيتُ بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللَّوْمِ بَيْتُهَا ... إِذَا مَا بُيُوتٌ بِالْملاَمَةِ حُلَّتِ

ففي البيت أربع كنايات:

أولاها: عن صفة العفة وقد كنى عنها بالنجاة من اللوم إذا النجاة من اللوم تستلزم النجاة من موجباته، كالزنا والفواحش، وذلك يستلزم العفة.

والثانية: عن نفي العفة في الشطر الثاني وكنى عن ذلك بحلول الملامة.

والثالثة: عن نسبة العفة إلى فتاته، وقد كنى عنها بنسبتها إلى بيتها.

والرابعة: عن نفي العفة عن أصحاب تلك البيوت بنفيها عن بيوتهم...

ففي كل شطر من شطري البيت كنايتان قد جعلت إحداهما طرفا للثانية، النجاة من اللوم طرف لإثبات النجاة منه إلى البيت المستلزم إثبات العفة له، وحلول الملامة طرف لإثبات الحلول إلى البيوت المستلزم نفي العفة عنها.

ونظير ذلك وهو اجتماع كنايتين في جملة واحدة: قولنا: "كثر الرماد في ساحة عمرو" فكثرة الرماد كناية عن صفة الكرم، وإثبات الكرم في ساحة عمرو -المعبر عنه بكثرة الرماد- كناية عن نسبة الكرم إليه، فقد اجتمعت كنايتان في جملة واحدة، وجعلت إحداهما وهي كثرة الرماد طرفا للثانية وهي إثبات كثرة الرماد في ساحة عمرو... وما من شك في أن وجود نوعين من الكناية في جملة واحدة مما يزيد الكلام حسنًا ويضفي عليه جمالاً.

* * *

(١) سورة الشورى آية: ١١.

الكناية القريبة والكناية البعيدة

وتنقسم الكناية باعتبار القرب والبعد بين المعنيين: المكنى عنه والمكنى به إلى قسمين: كناية قريبة وكناية بعيدة.

فالكناية القريبة: هي ما تقارب فيها المعنيان بحيث يكون الانتقال من المعنى المكنى به إلى المكنى عنه بلا واسطة، كالانتقال من عض الإصبع أو تقليب الكفين إلى الندم، ومن طول النجاد إلى طول القامة، ومن بعد مهوى القرط إلى طول الجيد، ومن التنشئة في الحلية إلى المرأة في قوله عز وجل: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[1]، وكالانتقال من منع الروادف والثدي قميص المرأة من أن يمس ظهرها وبطنها إلى ضخامة الأرداف وضمور البطن وعظم الثدي في قول الحماسي:

أَبَتِ الرَّوَادِفُ والثُّدِيُّ لِقُمْصِهَا ... مَسَّ الْبُطُونِ وأن تمسَّ ظُهُورَا

وكالانتقال من كون السماحة والمروءة والندى في قبة مضروبة على ابن الحشرج إلى نسبة هذه الصفات إليه في قول زيادة الأعجم:

إنَّ السمَاحَة والمُرُوءَة والنَّدَى ... في قُبَّةٍ ضُرِبَتْ على ابنِ الْحَشْرَجِ

وهذه الكناية القريبة، قد تكون واضحة لا تحتاج في إدراكها إلى نظر وتفكر كما في الشواهد المذكورة، وقد تكون خفية تحتاج في إدراكها إلى شيء من التأمل والنظر، لكون التلازم بين المعنيين المكنى به والمكنى عنه مبنيًا على عرف لم يبلغ حد الشهرة العامة... وذلك كالانتقال من عرض القفا إلى صفة البله، فإن تجاوز الحد في عرض القفا من لوازم البله، وكالانتقال من ضخامة الرأس إلى الغباء، ومن صغرها إلى الذكاء... وكالانتقال من أداء التحية بالريحان يوم السباسب إلى رقة الأمزجة وحسن الذوق والمحافظة على التقاليد في قول النابغة يمدح الغساسنة:

رِقَاقُ النِّعَالِ طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ ... يُحَيَّوْنَ بالرَّيْحَانِ يومَ السَّبَاسِبِ

أما الانتقال من رقة النعال إلى الترف والسيادة، ومن طيب الحجزات إلى

---

(١) سورة الزخرف آية: ١٨.

العفة، فمن الكناية البعيدة لاحتياج هذا الانتقال إلى وسائط، فرقة النعال تستلزم عدم المشي بها، وعدم مشيهم بها، يستلزم ركوب الخيل، وركوبهم الخيل، يستلزم الشرف والسيادة وطيب الحجزات يستلزم ابتعادهم عن الفواحش والموبقات وابتعادهم عنها يستلزم العفة... فهما كنايتان بعيدتان.

الكناية البعيدة: والكناية البعيدة هي ما تباعد فيها المعنيان بحيث يصير الانتقال من المعنى المكنى به إلى المعنى المكنى عنه لا يتم إلا بواسطة أو بعدة وسائط، كالكنايتان المذكورتان في الشطر الأول من بيت النابغة السابق... وكالانتقال من النجاة من اللوم إلى العفة بواسطة النجاة من موجبات اللوم، أي الابتعاد عن الفواحش والموبقات في قول الشنفري:

يَبِيــتُ بِمَنْجَــاةٍ مِــن اللَّــوْمِ بَيْتُهَــا   إِذَا مَــا بُيُــوتٌ بِالــمَلاَمَةِ حُلَّــتِ

فالنجاة من اللوم تستلزم النجاة من موجباته والنجاة من موجباته تستلزم العفة.

وكالانتقال من كثرة الرماد إلى صفة الكرم في قولنا: فلان كثير الرماد: إذ ينتقل من كثرة الرماد إلى صفة الكرم بعدة وسائط، فكثرة الرماد تستلزم كثرة إيقاد النار تحت القدور، وتلك تستلزم كثرة الطبخ، وهذه تستلزم كثرة الأكلة، وكثرتهم تستلزم كثرة الضيوف، وهذا دليل الكرم.

ومن الكنايات البعيدة عن صفة الكرم قول الشاعر:

ومَــا يــكُ فيَّ مــن عَيْــبٍ فَــإِنِّي   جَبَــانُ الْكَلْــبِ مَهْــزُولُ الفَــصِيلِ

فقد انتقل من جبن الكلب إلى الكرم بوسائط عدة، إذ جبن الكلب عن النباح يستلزم استمرار تأدبه، وهذا يستلزم دوام مشاهدته وجوها غريبة في بيت صاحبه، وذلك يدل على أن صاحبه مقصد الداني والقاصي، وهذا يدل على اتصافه بالجود والكرم وكذا ينتقل من هزال الفصيل إلى الكرم بعدة وسائط، فهزاله دليل على فقد أمه أو فقد لبنها، وهذا دليل على نحرها للضيوف أو إيثارهم بلبنها وذلك دليل الكرم والجود...

وقول نصيب في مدح عبد العزيز بن مروان:

لِعَبْدِ الْعَزِيزِ على قوْمِهِ وغَيْرِهم مِنَنٌ ظَاهِرة
فبَابُكَ أَسْهَلُ أَبْوَابِهم ودارُك مأْهُولةٌ عامِرَة
وكَلْبُكَ آنسُ بالزائرينَ من الأمِّ بالابْنَةِ الزَّائِرَة[١]

فأنس الكلب بالزائرين دليل على أنه يعرفهم لكثرة ترددهم على الدار وإقامتهم فيها لقضاء حوائجهم، وهذا يدل على كرم صاحبه وكثرة إحسانه، وفي جعل أبوابه أسهل أبواب القوم، وداره مأهولة عامرة كنايتان أيضًا عن الكرم، فسهولة الأبواب تستلزم أنها مقصد الكثيرين، وعمارة الدار تستلزم كثرة المترددين، فالبعض يذهب والبعض يأتي والدار تظل عامرة بهم، وهذا دليل الكرم وكثرة الجود، وفي قوله: "مأهولة" إيحاء بكثرة الكرم وحسن الضيافة لدلالتها على أن من يحل بالدار يصير أهلاً لها فلا يشعر بغربة ولا جفوة.

ونظير قول نصيب قول ابن هرمة في أنس الكلب بالضيوف:

يَكادُ إِذَا ما أَبْصَرَ الضَّيْفُ مُقْبِلاً يُكَلِّمُهُ من حُبِّهِ وهُو أَعْجَمُ[٢]

فقد بالغ في أنسه بالضيوف وجعله يكاد ينطق فيرحب بهم وذلك من فرط حبه الناجم عن كثرة مشاهدته للضيوف حتى ألفهم.

ونلاحظ مدى التفاوت في الدلالة على الكرم باستخدام الكلب واستغلال ما عرف عن طباعه وخصوصياته، فقد عرف عنه أنه ينبح عند مشاهدة الغريب ويطارده بنباحه، فإذا ما كف عن النباح وجبن أمام الغرباء دل هذا على كرم صاحبه، وهذا ما نراه في البيت الأول، أما إذا ما تحول جبنه إلى إلفه الزائر وأنسه به، فهذا يدل على المبالغة في كرم صاحبه، وهذا ما نراه في أبيات نصيب، أما كلب ابن هرمة فقد تحول أنسه إلى حب مفرط يكاد معه أن ينطق مرحبًا بالضيف.

---

(١) المنن: النعم مفردها منة... ومأهولة: أي فيها أهلها.

(٢) أعجم: لا يتكلم... والضمير في يكاد يعود إلى الكلب في الأبيات المتقدمة.

ومن الكناية البعيدة قول ابن هرمة في الكناية عن الكرم أيضًا:

لاَ أَمْتَــــعُ الْعُـــــوذَ بالْفِـــصَالِ ولا أَبْتَـــــاعُ إلاَّ قَرِيبـــــةَ الأَجَــــلِ (١)

يريد أن يقول: إنه يذبح العوذ ولا يتركها تتمتع بفصالها، أو أنه يذبح الفصال فيحرم العوذ من التمتع بها، أو أنه يذبحهما معا قبل أن تتمتع العوذ بفصالها وذلك كي يقدم لحومهما للضيوف... كما أنه إذا ابتاع نوقًا لا تبقى عنده طويلا، إذ سرعان ما يذبحها ويقدمها طعامًا لضيوفه... ففي كل شطر من شطري البيت كناية عن كرمه وجوده، انتقل في الشطر الأول من عدم إمتاع العوذ بالفصال إلى ذبحها أو ذبح فصالها أو ذبحهما معا، ومن الذبح إلى تقديم لحمهما للضيوف، وهذا يستلزم كثرة الضيوف وكثرتهم تدل على الكرم... ومما يوحي بكثرة هؤلاء الضيوف، إيثاره التعبير بلفظ الجمع: "عوذ" و "فصال"، فهو لا يذبح فصيلاً واحدًا أو عائذًا واحدة، بل عوذًا وفصالاً عديدة... وفي الشطر الثاني: انتقل من ابتياعه قريبة الأجل، إلى أنه لا يبقيها حية بل يذبحها لضيوفه، وهذا يستلزم كثرة ترددهم عليه الدالة على كرمه وسخائه.

ومنها قول المتنبي في مدح سيف الدولة، مكنيًا عن شجاعته وكرمه.

إلى كـــمْ تَــرُدُّ الرُّسْـــلَ عــمَّا أتــوْا لَـــهُ كــــأنَّهم فــــيما وَهَبْـــتَ مَـــلاَمُ (٢)

كنى عن شجاعته، برده رسل العدو، لأنه يستلزم عدم اهتمامه بقوة عدوه، وهذا دليل الشجاعة، وكنى عن كرمه، برده ملام اللائمين له في كثرة هباته وعطاياه وهذا يستلزم حرصه على العطاء وهو دليل الجود والكرم.

ومنها قول الخنساء في صخر:

طَوِيـــلُ النِّجَـــادِ رَفِيـــعُ العمـــادِ كثــــيرُ الرَّمَـــادِ إذا مـــا شَـــتَا

---

(١) العوذ: جمع عائذ وهي الناقة حديثة النتاج... والفصال جمع فصيل وهو ولد الناقة.

(٢) الرسل: المراد بهم رسل الروم في طلب الصلح... وملام: مصدر: "لام" يقال: لام يلوم لومًا، وملاما وملامة.

كنت بطول النجاد عن شجاعته، لأن طول النجاد يستلزم طول القامة، وطول القامة يستلزم الشجاعة عادة، وكنت برفع العماد عن كونه سيدًا عظيم القدر، ورفيع المكانة في قومه، وبكثرة الرماد عن الكرم والجود، وفي إيثارها وقت الشتاء دلالة على المبالغة في الكرم، لأنه وقت تشتد فيه حاجة المحتاجين.

وقول الآخر في الفخر بقومه:

فَلَسْنَا عَلَى الأَعْقَابِ تَدْمِي كُلُومُنَا ... ولكِنْ على أقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدِّمَا(١)

كنى عن شجاعتهم وإقدامهم بنفي الدماء عن الأعقاب وإثباتها للأقدام، لأن ذلك يستلزم التقدم لملاقاة العدو ومواجهته والثبوت في المعركة وعدم الفرار، إذ الفار يتلقى ضربات العدو من الخلف فتدمى أعقابه، والثابت المتقدم يتلاقاها من الأمام فتدمى قدمه، وهذا دليل الشجاعة والجرأة... وفي إيثار التعبير بكلمة "تقطر" في الشطر الثاني دون "تدمي"، دلالة على قوتهم وتغلبهم على الأعداء فما يصيبهم ليس سوى جروح طفيفة تقطر قطرات يسيرة.

وقول امرئ القيس:

وَتُضْحِي فَتِيتُ الْمِسْكِ فوقَ فِراشِها ... نَئُومُ الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّلِ(٢)

فالبيت كناية عن حياة الترف والتنعم، لأن نومها وقت الضحى، وتعطير فراشها بالمسك الذي يبقى فيه حتى ذلك الوقت، وعدم ارتدائها ملابس الخدمة كل هذا يستلزم أن لديها من يخدمها ويقضي حاجتها ويكفيها شئون بيتها، وذلك دليل الترف والنعيم والرفاهية.

وقول أبي تمام:

فإنْ أنَا لمْ يحْمَدْكَ عنِّي صاغرًا ... عَدُوُّكَ فاعْلَمْ أنَّني غيرُ حامدِ(٣)

---

(١) كلوم: جمع كلم وهو الجرح... والدما: مخفف الدماء.

(٢) تنتطق: ترتدي ملابس الخدمة... تفضل: زيادة وعدم احتياج.

(٣) صاغرا: ذليلا: اسم فاعل من الصغار وهو الذلة، ويحمدك عني: أي يحفظون مدحي فيك وينشدونه مرغمين، وحامد: مادح.

كنى عن جودة شعره وبلوغه الغاية في المديح، بحفظ الأعداء له مكرهين حيث بهرتهم بلاغته، وسحرهم جماله، فحفظهم له وهم لا يحبون الثناء به على الممدوح يستلزم بلوغه في البلاغة والحسن أبعد الغايات.

ومن لطيف الكنايات البعيدة قول الشاعر في وصف الراعي:

ضَعِيفُ العَصَا بادِي الْعُرُوقِ تَرَى لَهُ عَلَيْهَا إذا ما أَجْدَبَ النَّاسُ إِصْبَعَا[1]

فقد كنى عن رقة الراعي ولينه المثمر في إصلاح شأن ما يرعاه من إبل أو غنم، بضعف العصا، لأن ضعف العصا يستلزم عدم إرادة الإيذاء، وهذا يستلزم الرفق واللين.

وقول الآخر في وصف الراعي أيضًا:

صُلْبُ الْعَصَا بالضَّرْبِ قَدْ دَمَّاهَا تَوَدُّ أن اللهَ قَدْ أَفْنَاهَا[2]

كنى عن شدته المثمرة في إصلاح شأن ما يرعاه، بصلابة العصا، لأن صلابة عصا الراعي، تستلزم الشدة في زجر ما يرعاه عما يضره ويؤذيه، وهذا يستلزم حسن الرعاية...

فالغاية في البيتين واحدة وإن اختلفت الوسيلة، فالوسيلة في البيت الأول: الرفق واللين، وفي الثاني: الشدة وقوة الزجر عن ارتياد المراعي الرديئة التي تؤذي... والغاية من الكنايتين: الدلالة على حسن الرعاية...

ومما لطف الكناية وحسنها في البيتين، أنه قد ضم إلى كل منهما، ضرب من ضروب الجمال في التعبير، فضم إلى الأول المجاز المرسل في قوله: "ترى له عليها... إصبعًا" وقد أفاد هذا المجاز الأثر الحسن الذي يبدو على أجسام النوق أو الغنم، وفي هذا دلالة على المبالغة في حسن رعاية الراعي...

وضم إلى الثانية التورية الحسنة في قوله: "بالضرب قد دمّاها" أي: صيرها

---

(١) بادي العروق: ظاهرها لقلة اللحم في جسمه ونحوله.

(٢) الضرب: يطلق على الضرب بالعصا وعلى السير في الأرض... وأفناها: أي أهلكها فهي من شدته عليها تتمنى أن يكون الله قد أهلكها.

كالدُّمي حسنًا، وذلك بسيره بها في ضروب الأرض، فالضرب له معنيان، قريب وهو الضرب بالعصا، وبعيد وهو السير في الأرض، وكذلك "دماها"، لها معنيان، قريب، وهو أسال دمها، وبعيد وهو صيرها كالدُّمَى[1] في الحسن والجمال... والمراد: المعنيان البعيدان، وقد رشحت التورية بقوله: "صلب العصا" لملاءمته للمعنيين القريبين: الضرب وإسالة الدماء...

وسبب تلطيف هذه التورية للكناية أن المعنى القريب للفطين يوهم الإيذاء والإيلام، ولكن بالتأمل والوقوف على المعنى البعيد المراد من كل منهما، يندفع هذا التوهم، فيتأكد بذلك المعنى المراد من الكناية وهو حسن رعاية الراعي.

***

ما الفرق بين الكناية والتعريض؟

يتفق التعريض والكناية في أن كلا منهما معنى يفهم من الكلام ولا تدل عليه الألفاظ دلالة حقيقية، فقولنا: كثير الرماد، دل على معنى الكرم بطريق الكناية والتلازم بين معنى الكرم، وكثرة الرماد، وليست دلالة كثرة الرماد على الكرم دلالة حقيقية، وقول المحتاج في خطاب الغني: "والله إني لمحتاج، وليس في يدي شيء وأنا عريان والبرد قد آذاني" دل على الطلب بطريق: "التعريض" فقد فهم من من كلامه التعريض بطلبه، وليست دلالة كلامه على الطلب دلالة حقيقية.

ويختلف التعريض عن الكناية من جهتين:

الأولى: أن التعريض معنى يفهم من عرض الكلام وجانبه، وسياقاته وقرائن أحواله، فالتلازم بين المعنى التعريضي والمعنى الحقيقي للألفاظ يرجع إلى المواقف الخاصة التي يقال فيها الكلام كما في المثال السابق... أما التلازم بين المعنى المكنى به والمعنى المكنى عنه فمرجعه إلى العرف والعادات وطبائع الأشياء وخصوصيات الأفعال على نحو ما عرفت.

الثانية: أن التعريض لا يأتي إلا في التركيب، ولا يمكن أن يدل عليه اللفظ

(١) الدمي: مفردها دمية وهي الصورة الحسنة المزينة.

المفرد، وذلك لاحتياجه في الدلالة عليه إلى اللفظ المركب، أما الكناية فتأتي في المفرد وفي المركب.

فمن الكناية المفردة: "مواطن الأسرار"، "مواضع الأضغان" و"مواطن الحلم" و"صلب العصا"، "ضعيف العصا"... ومن المركبة: "المجد بين ثوبيه والكرم بين برديه"... ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾، "يبيت بمنجاة من اللوم بيتها"... إلى آخر ما مر من شواهد الكناية.

ومن أمثلة التعريض ما روي أن عمرو بن مسعدة كتب إلى المأمون في أمر بعض أصحابه: "أمَّا بعدُ فقدِ اسْتشْفَعَ بي فُلانٌ إلىَ أميرِ المُؤمنينَ ليتطَوَّلَ في إلحاقهِ بنُظرائهِ منَ الخاصَّةِ، فأَعْلَمتهُ أنَّ أميرَ المُؤمنينَ لمْ يجْعلنِي في مراتبِ المُستشفعينَ، وفي ابتدائي بذلك تعدِّي طاعته" فوقع المأمون في ظهر كتابه، قد عرفنا تصريحك له وتعريضك لنفسك، وقد أجبناك إليهما.

وقول علي كرم الله وجهه: "إن الموتُ طالبٌ حثيثٌ لا يفوتهُ المقيمُ، وإن أكرمَ الموتِ القتلُ، والذي نفسُ ابنِ أبي طالبٍ بيدهِ لضربةُ ألف سيفٍ أهونُ عليَّ من ميتةٍ على فراشٍ.." فهذا كلام قاله على جهة التعريض بأصحابه لتأخرهم عن الجهاد ومقاتلة الأعداء.

ومنه التعريض بخطبة المرأة، كأن يقول الرجل لها: "والله إنك لجميلةٌ، ولعل الله أن يرزقكِ بعلاً صالحًا، وإني لفِي حاجةٍ إلى امرأةٍ صالحةٍ..."، وقد جعل الله التعريض بخطبة المرأة جائزًا في عدتها، دون التصريح، قال عز وجل: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾[١].

ومنه قول الله عز وجل: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾[٢]، ففيه تعريض بخطأ القوم وتعاميهم عن الحق وتسفيه أحلامهم حيث عبدوا هذه الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، ولا تعيرهم جوابًا إذا سئلت.

(١) سورة البقرة آية: ٢٣٥.

(٢) سورة الأنبياء: ٦٣.

الكناية التعريضية

وقد يجتمع التعريض والكناية في التعبير الواحد وتسمى الكناية عندئذ بالكناية التعريضية أو العرضية، ومن ذلك قول الرسول ﷺ: "المسلمُ من سلمَ المسلمون منْ لسانهِ ويده"[١]، أفاد الحديث الشريف، حصر الإسلام في من سلم المسلمون من أذاه، وهذا يستلزم نفي الإسلام عن كل من يؤذي المسلمين، وهو المعنى المكنى عنه، فإذا قيل الحديث في مقام يوجد به من يعرف بإيذاء المسلمين، فهم من عرض الكلام وجانبه التعريض بذلك المؤذي...

ومنه قوله عز وجل: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾[٢]. فإذا فسر "الغيب" في الآية، بالغيبة عن حضرة الرسول عليه الصلاة والسلام، يكون المعنى المصرح به: ثبوت الهداية للمتقين الذين آمنوا بالله ورسوله وقت حضورهم ووقت غيبتهم عنه، وهذا يستلزم إخلاصهم في العقيدة والعبادة، وهو المعنى المكنى به... وفي الآية مع ذلك تعريض بهؤلاء المنافقين الذين أظهروا الإسلام وقت حضورهم فإذا ما غابوا وخلوا إلى شياطينهم قالوا: إنا معكم إنما نحن مستهزءون.

ومنه قول المتنبي في التعريض بنفي الصدق عن فتاته:

تَشْتَكِي ما اشْتَكَيْتُ من أَلَمِ الشَّوْ ... ق إليهَا والشَّوقُ حيثُ النُّحُولُ

فقوله: "والشوق حيث النحول" يفيد حصر الشوق في الجسم النحيل، وهذا يستلزم نفي الشوق عن الجسم السمين الممتلئ، لأن سمن الجسم في عرف أهل الهوى والعشق، يستلزم الخلو من الشوق، فالمعنى المكنى عنه هو نفي نسبة الشوق إلى صاحب الجسم السمين، وفي هذا تعريض بنفي الشوق عن فتاته حيث تدعيه وقد سمن جسمها وامتلأ لحمًا، فهي كاذبة في ادعائها.

---

(١) رواه البخاري في الإيمان برقم (١٠) ومسلم في الإيمان برقم (٦٥/ ٤١).

(٢) أول سورة البقرة.

ومثله قول الآخر:

يلومُ في الحبِّ مَنْ لمْ يَدْرِ طَعْمَ هَوًى   وإنما يَعْذِرُ العُشَّاقَ من عشِقَا

فهو يفيد أن اللوم يقع على العشاق من الذين لم يعرفوا الهوى، ولم يذوقوا طعم الحب، ولم يكتووا بنار العشق، وهذا يستلزم نفي اللوم عن أهل الهوى فالمعنى المكنى عنه هو نفي نسبة اللوم إلى العشاق وأصحاب الغرام، كما يؤكد ذلك الشطر الثاني: "إنما يعذر العشاق من عشقا"؛ فإذا ما وجه هذا البيت إلى من عرف باللوم أو قيل في مجلس يحضره من عرف بلومه أهل الهوى، كان الكلام تعريضًا به.

وكما يجتمع التعريض والكناية في التعبير الواحد، فقد يجتمع والمجاز، كقولك: "أنا لا أطعن في أعراض الناس، ولست ممن يطعن في الأعراض" فقد استعير "الطعن للإيذاء" واشتق منه طعن بمعنى آذى على سبيل الاستعارة التبعية في الفعل، فإذا ما قيل هذا القول أمام أناس قد عرفوا واشتهروا بالإيذاء أو أشار السياق إلى كون من تكلمت عنه مؤذيا، كان الكلام تعريضًا به.

وبهذا يتضح أن التعريض كما يفهم عن عرض التراكيب الحقيقية التي لا مجاز بها ولا كناية، فقد يجتمع وأسلوب الكناية أو المجاز وهذا يوضح ما قررناه من أن التعرض يفهم من التركيب، ولا يمكن أن يدل عليه اللفظ المفرد، فهو معنى يفهم من جوانب الكلام وسياقاته الخاصة ومواقفه ومقاماته المعينة.

التلويح والرمز والإشارة

ترددت في كتب البلاغيين أسماء عدة تطلق على مفهوم الكناية أو التعريض، منها: الإرداف والتمثيل والتلويح والرمز والإيماء والإشارة واللحن، وقد أخذ الأخير من قوله عز وجل: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾[1]، فاللحن في الآية مراد به: التعريض بالشيء من غير تصريح به، أو الكناية عنه بغيره. يقول الشاعر:

ولقدْ لَحَنْتُ لكمْ لِكَيْمَا تَفْقَهُوا   واللَّحْنُ يَعْرِفُهُ ذَوُو الألْبَابِ[2]

(١) محمد الآية: ٣٠.

(٢) انظر الكشاف جـ ٣ ص ٥٣٨.

ولا يتسع المقام هنا لتفصيل القول في هذه المصطلحات وتتبعها في كتب البلاغيين، ولكننا نكتفي بالحديث عن ثلاثة فقط منها حديثًا موجزًا، لنبرز أن مفهومها لم يختلف عن مفهوم الكناية التي فصلنا القول فيها.

فالتلويح معناه في اللغة: الإشارة إلى الغير من بعيد، ولذا أطلقوه على الكناية التي تعددت وسائطها نحو: كثير الرماد... وجبان الكلب.

والرمز في اللغة أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية، ولذا أطلقوه على الكناية التي قلت وسائطها أو انعدمت وكان بها نوع من خفاء التلازم بين المعنيين: المكنى به والمكنى عنه، نحو: عريض القفا، وعريض المنكبين، وصغير الرأس، وطيب الحجزات.

والإشارة أو الإيماء: يكون لمن قرب جدًا ووضح، ولذا أطلقوها على الكناية التي انعدمت وسائطها أو قلت، ووضح فيها التلازم بين المعنيين نحو الكناية عن المرأة بالنعجة أو خضاب البنان، أو التنشئة في الحلية، وعن الرجل بحمل السلاح، وعن الصدر بموطن الحلم وعن الفقر بقلة الفأر في البيت.

ومنها قول أبي تمام:

أَبَيْنَ فَمَا يَزُرْنَ سِوَى كَرِيمٍ وحَسْبُكَ أَنْ يَزُرْنَ أبا سَعِيدِ

كنى عن نسبة الكرم إلى أبي سعيد بزيارتهن له، وقد أبين زيارة غير الكريم، فالتلازم واضح بين المكنى به والمكنى عنه وليس هنالك وسائط.

وقول البحتري:

أَوَمَا رأيتَ المجْدَ ألقَى رَحلَهُ في آلِ طَلْحَةَ ثم لم يَتَحوَّلِ

كنى عن نسبة المجد إلى آل طلحة، بإلقاء المجد رحله فيهم، فالتلازم واضح، ولا يخفى ما في البيت من خيال رائع حيث صور المجد حيا متحركا يلقي رحله في ساحة هؤلاء الأمجاد، ثم يستقر فيهم لا يتحول عنهم.

وقول الآخر:

متى تخلُو تمَيمٌ من كريمٍ ومَسْلَمَةُ بْنُ عمرٍو من تمَيم

كنى بعدم خلوهم من الكريم عن نسبة الكرم إلى مسلمة بن عمرو.

وقول أبي نواس:

تَقُــولُ التِّــي مــنْ بَيْتِهَــا خَــفَّ محَمَـلِي   عَزيـــزٌ علَيْنَـــا أن نـــراكَ تَـــسِيرُ

فقد كنى عن امرأته بقوله: "التي من بيتها خف محملي" والتلازم واضح بين المكنى به والمكنى عنه...

بلاغة الكناية وسر جمالها

الكناية من التعبيرات البيانية الغنية بالاعتبارات والمزايا والملاحظات البلاغية، فهي تضفي على المعنى جمالا، وتزيده قوة، ويستطيع الأديب المتمكن، والبليغ المتمرس أن يحقق بأسلوب الكناية العديد من المقاصد والأهداف البلاغية، وأهم تلك المقاصد:

١- إفادة المبالغة في المعنى، لأن التعبير عن المعنى الكنائي بروادفه وتوابعه له من القوة والتأكيد ما ليس في التعبير عنه باللفظ الموضوع له، وذلك لأنه يصح كإبراز الدعوى بدليلها وكإثبات الحجة ببينتها... وهذا واضح في التعبير عن "الكرم" بكثرة الرماد وهزال الفصيل وجبن الكلب، وعن طول الجيد ببعد مهوى القرط في قول الحماسي:

أَكَلْــتُ دمًــا إن لــمْ أَرُعْــكِ بــضَرَّةٍ   بَعيــدةِ مَهْــوَى القُــرْطِ طَيِّبَــةِ النَّــشر

وعن الترف والتنعم بقول امرئ القيس:

وُتـضحِي فَتيـتُ الْمِـسْك فـوقَ فِراشِـها   نَئُـومُ الـضُّحَى لـمْ تَنْتَطِـقْ عـن تَفَـضُّلِ

وترجع إفادة المبالغة في التعبير الكنائي إلى هذه اللوازم والتوابع التي عبر بها عن المكنى عنه، فهي بمثابة الأدلة والبراهين على تحقيق المعنى وإثباته.

٢- تجسيد المعنى وإبرازها في صورة محسة تزخر بالحياة والحركة، فيكون ذلك أدعى لتأكيدها ورسوخها في النفس، ويتضح ذلك في التعبير عن معنى الشيخوخة وكبر السن بقولك: "انحنى ظهره وصار يمشي على عكاز" فقد جسد أسلوب الكناية معنى الضعف والكبر وأبرزه في صورة حية ماثلة أمام الأعين.

وفي النظم الكريم: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾[١]، أبرزت الآية معنى البخل في صورة اليد المشدودة إلى العنق، المقيدة به وهي صورة قبيحة تنفر منها النفوس فتقبل على البذل والعطاء.

ويقول عز وجل: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾[٢]، ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ ﴾[٣]، ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾[٤]، أبرزت الآيات الكريمة معنى "الندم" في هذه الصور المحسة المشاهدة.

ومن أشعارهم قول ليلى الأخيلية:

وَمُخَرَّقٍ عنه القميصُ تخَالُهُ ... بَيْنَ الْبُيُوتِ مِنَ الحياءِ سَقِيمَا

أبرزت المعنى المعنوي وهي نسبة الكرم إلى الممدوح في صورة مشاهدة محسوسة "مخرق عنه القميص" لأن العفاة تجذبه فتخرق قميصه من مواصلة جذبهم إياه... كما أبرزت وصفه بالحياء في صورة مرئية حسية وهي صورة الإنسان السقيم.

وقول الآخر في الكناية عن كبره وضعفه:

قَدْ كَانَ يُعْجِبُ بَعْضَهُنَّ بَراعَتِي ... حَتَّى سَمِعْنَ تَنَحْنُحِي وسُعَالي

أبرز معنى الضعف والكبر في صورة كريهة مسموعة تعافها الآذان فتنفر منها النفوس وهي: صورة الذي لا يكف عن التنحنح والسعال.

وقول أبي فراس الحمداني وهو أسير في بلاد الروم يخاطب ابن عمه سيف الدولة.

وقدْ كُنْتُ أخشَى الْهَجْرَ والشَّمْلُ جامعٌ ... وفي كلِّ يومٍ لُقْيَةٌ وخِطَابُ

فَكَيْفَ وفيمَا بَيْننَا مُلْكُ قَيْصَرٍ ... وَلِلْبَحْرِ حَوْلي زَخْرةٌ وعُبَابُ؟

---

(١) سورة الإسراء آية: ٢٩.

(٢) سورة الفرقان آية: ٢٧.

(٣) سورة الأعراف آية: ١٤٩.

(٤) سورة الكهف آية ٤٢.

كنى عن "البعد الشاسع بينهما" بقوله "بيننا ملك قيصر وللبحر حولي زخرة وعباب" فأبرز معنى "البعد" في صورة مشاهدة محسة.

٣- يستطاع بأسلوب الكناية التعبير عن المعاني غير المستحسنة بألفاظ لا تعافها الأذواق ولا تمجها الآذان... وشواهد هذا كثيرة في النظم الكريم الذي لا يحوي إلا التعبير الحسن والكلام العذب السائغ... من ذلك قوله عز وجل في الكناية عن الجماع: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[١]، ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾[٢].

وفي الكناية عن الفرج: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[٣]، وفي الكناية عن النكاح، ﴿وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾[٤]، وفي الكناية عن قضاء الحاجة: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾[٥]، ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾[٦].

ومن أشعارهم في الكناية عن شُوَارِ المرأة قول المتنبي:

إنيَّ عــلى شَـغَفِي بِـمَا في خُمْرِهَــا لأَعَــفُّ عــمَّا في سَرَاويلاَتِهَــا

وقول الشريف الرضي:

أَحِـنُّ إلى مـا يَـضْمنُ الـخُمْرُ والـحُلِيّ وأَصْـدِفُ عـمَّا في ضَـمَانِ الـمآزِرِ

٤- يستطاع بأسلوب الكناية التعمية والتغطية وإخفاء ما يود المتكلم إخفاءه حرصًا على المكنى عنه ورغبة في عدم ترديده على الألسنة، كما في الكناية عن أسماء النساء... أو خوفًا من الإفصاح بالمكنى عنه، كما في الكناية عن أسماء الأعداء... من ذلك قول عمر بن أبي ربيعة:

---

(١) سورة النساء آية: ٤٣.

(٢) سورة البقرة آية ١٨٧.

(٣) سورة البقرة آية: ٢٢٣.

(٤) سورة البقرة آية: ٢٣٥.

(٥) سورة النساء آية: ٤٣.

(٦) سورة المائدة آية: ٥.

أيــا نَخْلَتَــيْ وادي بَوانَــةَ حَبَّــذَا ... إذا نــامَ حُــرَّاسُ النَّخِيــلُ جَنَــاكُمَا
فطِيـبُكُمَا أَرْبَـى عـلى النَّخْـلِ بَهْجَـةً ... وزادَ عـلى طُـولِ الْفَتَـاءِ فتـاكُمَا(١)

فقد كنى "بنخلتي وادي بوانة" عن اثنتين من صويحباته، رغبة منه في إخفاء اسميهما، وحرصًا على حسن سمعتهما بين الناس، كما كنى "بحراس النخيل" عن ذويهما خوفا منهم وتحاشيا لإثارة غضبهم وحميتهم.

ومنه قول الآخر:

أَلِـمَّا بـذات الْـخَالِ فَاسْـتَطْلِعَا لنَـا ... عـلى الْعَهْـدِ بـاقٍ وُدُّهَـا أمْ تَـصَرَّمَا(٢)

كنى "بذات الخال" عن صاحبته حرصًا على سمعتها وصونًا لاسمها عن الابتذال بترديد شعره وسماعه...

وقول أبي نواس:

تَقُـولُ الّتِـي مِـنْ بَيْتِهَـا خَـفَّ مَحْمَـلِي ... عَزِيــزٌ علَيْنَــا أن نــراكَ تَــسِيرُ

كنى عن امرأته بقول: "التي من بيتها خف محملي" حرصا على إخفاء اسمها وصيانتها.

ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾(٣)، فقد كنى عن امرأة العزيز بقوله تعالى: "التي هو في بيتها" رغبة عن ذكر اسمها أو نسبتها إلى "العزيز" وحرصا على جملة الصلة: "هو في بيتها" ليبرز عفة يوسف عليه السلام، وإعراضه عن الفاحشة، فهو في بيتها، وهي متمكنة منه، وقد غلقت الأبواب وتزينت وعرضت نفسها "هيت لك" وعلى الرغم من كل ذلك تعفف عليه السلام وأعرض وقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾... ونلاحظ فرق ما بين المكني به في الآية الكريمة "التي هو في بيتها" وفي البيت المذكور "التي من بيتها

(١) بوانة: اسم موضع... جناكما: حسنكما، أربى: زاد عليه.. الفتاء: الشباب.
(٢) ألـما: انزلا... الخال: الشامة في خد الحسناء.. تصرم: زال وتقطع.
(٣) سورة يوسف آية: ٢٣.

خف محملي" فما في الآية يفيد استقراره ﷺ في البيت وتمكنها منه بدلالة الحرف "في"، وما في البيت يفيد الذهاب والابتعاد: "من بيتها خف..".

هذا وقد جرت عادة الشعراء أن يكنوا عن أسماء فتياتهم، أو يطرحوا تلك الأسماء ويطووها من اللفظ سموًا لها، وصونًا لها عن التبذل بجريانها على الألسنة، وترددها على الأسماع، ولذا أحبوا الأماكن النائية المنعزلة حيث يمكنهم التمتع والتلذذ بترديد تلك الأسماء والتغني بها.

يقول ذو الرمة:

أُحِبُّ المكانَ القفرَ من أجلِ أنَّنِي ... بِهِ أتغنَّى باسمِهَا غيرَ مُعْجِمِ

٥- ومن محاسن الكناية، تفخيم المعنى في نفوس السامعين، ويتضح لنا ذلك في الآيات الكريمة التي عبرت عن يوم القيامة ووصف ما فيه من أهوال... من ذلك قول الله عز وجل: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ٥﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣﴾[2]، ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ٣٤﴾[3]، ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ٢﴾[4]...

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي كنى فيها عن يوم القيامة بوصف ما يكون فيه من أحداث وأهوال تفزع القلوب وتزعج النفوس، فليس المراد بتلك الكناية معرفة المكنى عنه، والوقوف عليه، ولكن المراد تنبيه العقول وإيقاظ النفوس بعرض هذه الأوصاف وذكر تلك الأحداث والأهوال، ردعًا للكافر وزجرًا وتنبيهًا للمؤمن وتحذيرًا.

---

(١) سورة القارعة الآيات ١-٥.

(٢) سورة عبس آية: ٣٣.

(٣) سورة النازعات آية: ٣٤.

(٤) أول سورة الزلزلة الآيتان ١، ٢.

وصدق الله العظيم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ (١)، وقانا الله وإياكم عذاب ناره، ومتعنا جميعًا بنعيم جنته إنه سميع الدعاء.

☆☆☆

(١) أول سورة الحج الآيتان ١، ٢.

خاتـــمة

ما من ريب في أن فنون البيان تتفاوت في رسم الصورة البيانية، وتحديد معالمها، وإبرازها، فما يرسمه التشبيه غير ما تصوره الاستعارة، وما تفيده الكناية غير ما يبرزه المجاز...

وقد اتفق البلاغيون على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، وأن الاستعارة أبلغ من التشبيه، والكناية أبلغ من التصريح... واختلفوا في الموازنة بين المجاز والكناية؛ فقيل: إن الكناية أبلغ من المجاز بنوعيه: المجاز المرسل والاستعارة، وقيل: الاستعارة أبلغ من الكناية، لأنها كالجامعة بين الاستعارة والكناية، وقيل: إن الاستعارة المكنية أبلغ من الكناية، والكناية أبلغ من التصريحية، وقيل: الاستعارة التمثيلية أبلغ أنواع الاستعارات؛ لأنها تكون في الهيئات المركبة المنتزعة من أمور متعددة، فهي كثيرة الاعتبارات والملاحظات... والسؤال الآن: ما معنى الأبلغية التي بنيت عليها هذه الموازنات؟ وهل لهذه الموازنات واختلاف البلاغيين فيها أثر فيما تفيده تلك الفنون البيانية؟

والجواب: أن المراد بالأبلغية: زيادة تأكيد المعنى وتقريره وإثباته، وليس المراد بها زيادة في حقيقة المعنى الذي يراد أداؤه، فالتشبيه في قولنا: محمد أسد، يفيد زيادة تأكيد لإثبات الشجاعة لمحمد، لا تفيدها المبالغة بغير التشبيه نحو: محمد أكثر الناس شجاعة، ولا يفيد التشبيه أننا أضفنا إلى شجاعة محمد قدرًا آخر لم يكن موجودًا فيه، وكذلك الكناية في قولنا: زيد كثير الرماد، تفيد زيادة تأكيد في إثبات الكرم لزيد، لا تفيدها المبالغة بغير الكناية نحو: كرم زيد لا يبارى، ولا تفيد الكناية أننا أضفنا إلى كرمه قدرًا لم يكن موجودًا فيه.

والاستعارة كذلك، فقولنا: رأيت أسدًا يقاتل في الميدان يفيد زيادة تأكيد في معنى الشجاعة، لا تفيدها الحقيقة في نحو: "رأيت شجاعًا في الميدان لم أر مثل شجاعته" ولا يفيدها التشبيه في نحو: "شجاع كالأسد"، ولا يعني هذا أن الاستعارة أضافت إلى شجاعة الشجاع قدرًا ليس موجودًا فيه.

فالأبلغية إذًا تعني زيادة تأكيد المعنى وتقريره، وزيادة قوة تأثير هذه الفنون

البيانية في النفوس، وفيما تولده من شعور بثبوت المعاني التي يراد التعبير عنها وتأكيدها.

وأرى أن اختلاف البلاغيين في الموازنة بين هذه الفنون لا أثر له فيما تصوره، إذ المرجع في ذلك لما يقتضيه المقام فإذا اقتضى المقام الإفصاح كان بلا ريب أبلغ من الكناية... وإذا اقتضى التشبيه كان أبلغ من الاستعارة ولا يعني ذلك أن هذه الفنون سواء في إفادة المعاني وتحديد معالم الصور، بل تتفاوت في ذلك كما قلنا، وكما وضح لنا من خلال هذه الدراسة.

فقد وقفنا على مفهوم كل فن من تلك الفنون وعلى أوجه التفاوت والاختلاف بينها، بل على أوجه الاختلاف بين صور الفن الواحد، فمثلا إذا أردنا أن نصف محمدًا بالكرم، لنا أن نقول: محمد كريم... محمد كالبحر في الجود... محمد كالبحر... محمد بحر في الجود...، محمد بحر... شاهدت بحرًا يتصدق ويفيض على الناس... محمد جبان الكلب مهزول الفصيل... وليست نسبة الكرم إلى محمد سواء في هذه الصور... بل تتفاوت وتختلف والمقام هو الذي يحدد ويقتضي استخدام هذه الصورة أو تلك، وعليك أن ترجع إلى فصول هذا الكتاب ليتبين لك أوجه التفاوت والاختلاف بينها.

هذا وقد كان الشعراء يتنافسون في ميدان التشبيه، ويحرصون على إبراز الصور وحسن انتزاعها من منازعها، فهذا ذو الرمة يفخر بإجادتها وإجادة التشبيه، ويقول: إذا قلت: «كأن» فلم أجد قطع الله لساني.

وهذا بشار ينظر في قول امرئ القيس:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رطبًا وَيَابِسًا ... لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَّابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي

ويتروى فيه حيث شبه شيئين بشيئين حتى قال:

كَأَنَّ مَثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُءُوسِنَا ... وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُه

إن حرص الشعراء على إجادة التشبيه والتصوير جعلهم يتروون في انتزاع الصور في ميدان التشبيه والاستعارة والمجاز بأنواعه والكناية، وقد تجلى لنا ذلك من خلال النظر في صورهم وأخيلتهم في فصول هذا الكتاب...

وننبه في الختام إلى أن التشبيه والمجاز بأنواعه والكناية والتعريض في آيات الذكر الحكيم لها من المزايا واللطائف ما لا يتأتى الإحاطة به، ولا يمكن الوقوف عليه، فهذه اللطائف وتلك المزايا يعد منها ولا يمكن أن تستقصى ولا يتأتى حصرها.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجزينا خير الجزاء وأن ينفع بهذا الكتاب، وأن يغفر لنا ولوالدينا وإخواننا ومشايخنا ولمن سبقنا بالإيمان، وأن يعفو عنا وعنهم، ولا يؤاخذها بما يكون قد جرى به القلم من زلات غفل عنها العقل، إنه سميع قريب مجيب الدعوات، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

انتهينا من تأليفه في
٢٩ من ربيع الآخر ١٤٠٦ هـ
الموافق أول يناير ١٩٨٦م
في حي المطار بعنيزة القصيم
المملكة العربية السعودية
د/ بسيوني عبد الفتاح

أهم مراجع الكتاب

١- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي طبعة الحلبي سنة ١٣٩٨هـ.

٢- أسرار البلاغة لعبد القاهر ط دار الطباعة المحمدية سنة ١٣٩٢ هـ، ص: محمد عبد المنعم خفاجي.

٣- الأسلوب للدكتور أحمد الشايب ط السعادة.

٤- إعجاز القرآن للباقلاني ط دار المعارف سنة ١٩٧٧ م. ت. السيد صقر.

٥- إعجاز القرآن الرافعي ط المقتطف سنة ١٣٤٦هـ.

٦- الأقصى القريب للتنوخي ط السعادة سنة ١٣٢٧هـ.

٧- أمالي المرتضى ط الحلبي سنة ١٣٧٣هـ. ت: محمد أبو الفضل إبراهيم.

٨- الإيضاح للقزويني وبهامشه البغية ط صبيح سنة ١٣٩٢هـ.

٩- البرهان في وجوه البيان (نقد النثر) لابن وهب ط مطبعة مصر سنة ١٩٣٩م.

١٠- البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف للدكتور محمد أبو موسى ط دار الفكر العربي.

١١- البيان القرآني للدكتور محمد رجب البيومي ط دار النصر سنة ١٩٧١.

١٢- البيان والتبيين للجاحظ ط الخانجي ت: عبد السلام هارون.

١٣- البيان العربي للدكتور بدوي طبانة ط الرسالة سنة ١٩٥٥.

١٤- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ط الحلبي سنة ١٣٧٣.

١٥- تحرير التحبير لابن أبي الإصبع ط المجلس الأعلى سنة ١٣٨٣ هـ، ت: حنفي شرف.

١٦- التصوير البياني للدكتور محمد أبو موسى ط دار التضامن سنة ١٤٠٠هـ.

١٧- تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ط الحلبي سنة ١٣٧٣هـ، ت: محمد عبد الغني حسن.

١٨- تنزيه القرآن عن المطاعن لعبد الجبار ط دار النهضة ببيروت.

١٩- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. ط: دار المعارف سنة ١٩٧٦.

٢٠- الجمان في تشبيهات القرآن لابن ناقيا. ط. منشأة المعارف. ت: مصطفى الجويني.

٢١- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي. ط: جامعة الإمام: محمد بن سعد الإسلامية ت: محمد الهاشمي.

٢٢- حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي ط: دار الطباعة الخديوية.

٢٣- الحيوان للجاحظ. ط: الساسي: سنة ١٩٥٠.

٢٤- الخصائص لابن جني. ط. دار الهدى ببيروت، ت: محمد علي النجار.

٢٥- دلائل الإعجاز لعبد القاهر. ط: الفجالة. ت: الدكتور: محمد عبد المنعم خفاجي.

٢٦- الرسالة البيانية للصبان على هامش حاشية الإنبابي المطبعة الأميرية سنة ١٣١٥هـ.

٢٧- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي. ط: الخانجي ت: علي فودة.

٢٨- شرح المعلقات للزوزني المطبعة التجارية سنة ١٩٧١.

٢٩- شروح التلخيص.

٣٠- الشعر والشعراء لابن قتيبة ط: دار المعارف سنة ١٩٦٧م، ت: للأستاذ أحمد شاكر.

٣١- الصاحبي لأحمد بن فارس. ط: المؤيد سنة ١٣١٨هـ.

٣٢- الصناعتين لأبي هلال العسكري. ط: الحلبي سنة ١٩٧١هـ.

٣٣- طبقات فحول الشعراء لابن سلام. ط: المدني. ت: محمود شاكر.

٣٤- الطراز ليحيى بن حمزة العلوي. ط المقتطف سنة ١٣٣٣هـ.

٣٥- عقود الجمان للسيوطي المطبعة الشرقية سنة ١٣٠٥هـ.

٣٦- علم البيان للدكتور: بدوي طبانة. ط: المطبعة الفنية الحديثة سنة ١٩٧٧م.

٣٧- العمدة لابن رشيق. ط: دار الجيل. ت: محمد محيي الدين.

٣٨- عيار العشر لابن طباطبا. ط: شركة فن الطباعة سنة ١٩٥٦م.

٣٩- فن الاستعارة للدكتور أحمد الصاوي ط: الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٩م.

٤٠- فن التشبيه لعلي الجندي ط: نهضة مصر سنة ١٩٥٢م.

٤١- الكتاب لسيبويه. ط. الهيئة المصرية سنة ١٩٧٧ م. ت: عبد السلام هارون.

٤٢- الكشاف للزمخشري. ط: الحلبي سنة ١٣٩٨ هـ.

٤٣- الكامل للمبرد. ط الحلبي سنة ١٣٩٨هـ.

٤٤- لسان العرب لابن منظور ط: دار المعارف.

٤٥- متشابه القرآن لعبد الجبار. ط: دار النصر سنة ١٩٦٩م. ت. عدنان زرزور.

٤٦- المثل السائر لابن الأثير. ط: ت محمد محيي الدين.

٤٧- مجمع الأمثال للميداني مطبعة السعادة سنة ١٣٧٩هـ. ت: محمد محيي الدين عبد الحميد.

٤٨- مجاز القرآن لأبي عبيدة. ط: الخانجي: ت: محمد فؤاد.

٤٩- معاني القرآن للفراء. ط: الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٨٠م.

٥٠- المطول لسعد الدين التفتازاني.

٥١- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباسي مطبعة السعادة. ت: محمد محيي الدين عبد الحميد.

٥٢- مغني اللبيب لابن هشام مطبعة المدني. ت: محمد محيي الدين عبد الحميد.

٥٣- مفتاح العلوم للسكاكي. ط: الحلبي سنة ١٣٥٦هـ.

٥٤- المفضليات للضبي طبعة دار المعارف الطبعة الخامسة. ت: الأستاذ محمود شاكر.

٥٥- من أسرار التعبير القرآني للدكتور محمد أبو موسى. ط: دار الفكر العربي سنة ١٣٩٦هـ.

٥٦- من بلاغة النظم العربي للدكتور عبد العزيز عرفة. ط: دار الطباعة المحمدية سنة ١٤٠٢هـ.

٥٧- مناهج التجديد لأمين الخولي. ط: دار المعارف سنة ١٩٦١.

٥٨- الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي. ط دار المعارف سنة ١٣٨٠هـ.

٥٩- النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز مطبعة السعادة سنة ١٣٨٩هـ.

٦٠- نقد الشعر لقدامة. ط: أنصار السنة سنة ١٩٤٩ م ت: كمال مصطفى.

٦١- النقد المنهجي عند العرب للدكتور محمد مندور. ط: نهضة مصر سنة ١٩٧٢م.

٦٢- النقد الأدبي لسيد قطب. ط: دار الفكر العربي سنة ١٩٥٤م.

٦٣- النقد الأدبي الحديث للدكتور محمد غنيمي هلال. مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧١م.

٦٤- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي. ط: مطبعة الآداب سنة ١٣١٧هـ.

٦٥- الوساطة بين المتنبي وخصومه لعلي بن عبد العزيز الجرجاني. ط: الحلبي ت: محمد أبو الفضل إبراهيم.

٦٦- يتيمة الدهر للثعالبي ط: الصاوي سنة ١٩٣٤م.

☆☆☆

محتويات الكتاب